

# التراث العربي



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

# التراث العربي



مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد ١٣٧ - ١٤٢٥ هـ - م ٢٠١٥

رئيس التحرير

أ. د. علي دياب

المدير المسؤول

أ. د. حسین جمعیة

مدير التحرير

أ.م. د. عبد الكريم محمد حسين

هيئة التحرير

أ.د. أحمد الخضر

أ.د. بدیع السید اللحام

د. مهند دوح خسارة

أ.د. وهب رومي

الإشراف والتدقيق اللغوي

أ.د. نبيل أبو عمصة

الإخراج الفني

وفاء السلاطي

الراسلات باسم رئاسة التحرير

اتحاد الكتاب العرب، مجلة التراث العربي،

دمشق-ص. ب (٣٢٣٠)

فاكس: ٦١١٧٢٤٤

E-mail: aru@net.sy البريد الإلكتروني:

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الانترنت:

[www.awu.sy](http://www.awu.sy)

الاشتراك السنوي

- داخـل القـطـر للأـفـراد : ١٦٠٠ لـس
- في الأقطـار العـربـيـة للأـفـراد : ١٠٠٠ لـس أو (٢٠٠) دـولـارـاً أمـيرـكيـاً
- خـارـجـ الـوطـنـ العـربـيـ للأـفـراد : ١٠٠٠ لـس أو (٣٠٠) دـولـارـاً أمـيرـكيـاً
- الدـوـائـرـ الرـسـميـةـ داخـلـ القـطـر : ٢٠٠٠ لـس
- الدـوـائـرـ الرـسـميـةـ فيـ الـوطـنـ العـربـيـ : ١٠٠٠ لـس أو (٢٥٠) دـولـارـاً أمـيرـكيـاً
- الدـوـائـرـ الرـسـميـةـ خـارـجـ الـوطـنـ العـربـيـ : ١٥٠٠ لـس أو (٣٥٠) دـولـارـاً أمـيرـكيـاً
- أـعـضـاءـ اـتـحـادـ الـكتـابـ : ٤٠٠ لـس

الاشتراك يرسل حـواـلةـ بـريـديـةـ أوـ شـيكـاـ يـدفعـ نـقـداـ إـلـىـ مجلـةـ التـرـاثـ العـربـيـ

## **شروط النشر في مجلة التراث العربي**

- ١ - أن يكون البحث ذا صلة وثيقة بالتراث العربي .
- ٢ - جدة البحث ، وتقيده بالمنهج العلمي الدقيق ، والتزامه الموضوعية ، والتوثيق والتخريرج ، والسلامة اللغوية.
- ٣ - تقديم البحث منضداً على الحاسوب ، ومشفوعاً بقرص مدمج (CD) فضلاً عن النسخة الورقية.
- ٤ - أن يراعي البحث علامات الترقيم ، وأن لا يتجاوز الحجم مع الهوامش والمصادر والمراجع ، خمساً وعشرين صفحة.
- ٥ - توثيق البحث علمياً وفق الأسس المعتمدة في المجالات الجامعية السورية المحكمة ، ولاسيما مجلة جامعة دمشق.
- ٦ - تقديم البحث مشفوعاً بملخص مناسب ، وسيرة علمية وذاتية لمؤلفه ، تبين موقعه من الوظائف العلمية ، وعنوانه.
- ٧ - يجري تحكيم البحث ، وفق الأسس المعتمدة في المجلة والمتطابقة مع المجالات الجامعية المحكمة.
- ٨ - ترتيب البحوث في كل عدد ، يخضع للأسس الفنية المعتمدة في المجلة من دون مراعاة مكانة الكاتب العلمية والثقافية.
- ٩ - يمنح مؤلف البحث موافقة علمية على النشر بعد تحكيمه بناء على طلبه ، مرة واحدة في السنة.
- ١٠ - لا تنشر المجلة الأبحاث المنشورة سابقاً ، ويتعهد الباحث بذلك وفق التعهد المعلن.
- ١١ - ذكر البريد الإلكتروني لسهولة التواصل.

---

**التوزيع في الجمهورية العربية السورية:**

**المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات**

فاكس: ٢١٢٢٥٣٢ / هاتف: ٢١٢٧٧٩٧ / ص.ب: ١٢٠٣٥

# **في هذا العدد من التراث العربي**

---

## **افتتاحية العدد**

**الأدب العربي الأندلسي بين التقليد والإبداع..... أ. د. علي دياب..... ٥**

## **محفظتي بـ 'إيف و**

**أمير شعر أبي ذؤيب وغرة كلامه عند الثعالبي ..... د. عبد الكريم محمد حسين..... ١٧**

## **محور النحو**

**نظارات في قراءة شوقي ضيف بعض آراء ابن مضاء القرطبي النحوية ... د. عبد الناصر إسماعيل عساف ..... ٢١  
شيخ زادة في ضوء شرحه لقواعد الإعراب ..... د. إسماعيل مروة ..... ٦٣**

## **تحقيق مخطوطة**

**رسالة في (كان) الناقصة وأخواتها لأحمد بن محمد القطان ..... د. ملاذ زليخة..... ٧٩**

## **محور التاريخ**

**التجييم السياسي في العصر العباسي الأول (دراسة في تطور التاريخ التجييمي) ..... د. عبدو القادري..... ٩٥  
ترجم الشعراء في مسالك الأبصار للعمري ..... د. فاتن كوكة..... ١١٥**

## **شخصية تراثية**

**الأحنف بن قيس ..... د. أحمد الخضر..... ١٣٥**

## **أدب الرحلات**

**تهذيب موانح الأنس برحلتي لوادي القدس لمصطفى أسعد اللقيمي ..... د. علي كردي..... ١٥٣**



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الأدب العربي الأندلسي بين التقليد والإبداع

أ. د. علي دياب

توقف كثير من الباحثين والدارسين عند الأدب العربي الأندلسى بشعره ونثره، ونظروا إليه على أنه محاكاة للأدب العربي المشرقي، وتقليد له ليس أكثر، وذهب فريق آخر من الباحثين ليحضر هذه النظرة، ويعد الأدب العربي الأندلسى ذا سمات خاصة وليس تقليداً لأدب المشارقة، وذكر أصحاب هذا الفريق أدباء كباراً لا يقلون عن أدباء المشرق العربى.

وهنا يذكر هنري بيروز في كتابه الشعر العربي الأندلسى الكلاسيكي أنه بدأت أجيال أندلسية تصاهي الكثير من الأعلام والشعراء والأدباء في المشرق، ويورد قول المراكشي في ابن زيدون: «أبياته الغزلية تنسينا كثير عزة، وهي كذلك تبزّ مدح زهير بن أبي سلمى، وعندما يبسط زهوه وخيلاءه يحلق فوق أمرئ القيس»<sup>(١)</sup>.

فقول المراكشي عن ابن زيدون صحيح، وهنا لابد لنا من الأخذ بعين الاعتبار الفترة التي يتم فيها تناول هذا الأديب أو ذاك، ففي البدايات الأولى للوجود العربي، التي أعقبت فتح الأندلس ومن ثم عصر الولاة الذي عرف بعض الشعراء الذين وصل إلينا إنتاجهم مثل جعونة بن الصمة وأبي الخطار حسام بن ضرار، وكذلك ما نسب إلى طارق بن زياد من شعر أو خطبه المشهورة، والشيء نفسه يمتد زمنياً إلى عهد الإمارة وفترة حكم عبد الرحمن الأوسط التي استمرت حتى عام ٢٣٨ / للهجرة وتتصدر هذه الفترة شعراء كثيرون أهمهم الأمير عبد الرحمن الأول أو الداخل الملقب بচقر قريش، وعاصم بن زيد التميمي ثم العبادي الملقب بأبي المخسي، وأبو المعري عباس بن ناصح الثقفي الجزييري، وأبو العاصي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الملقب بالربضي وحسانة التميمية بنت الشاعر أبي المخسي، فشعر كل هؤلاء يعد شعراً مشرقياً بامتياز، إلا أنه قيل في أرض الأندلس، وذلك لما تميز به هذا الشعر من سمات عرفها الشعر المشرقي من حيث متانة السبك والفروسيّة والخشونة المستمدّة من طبيعة المشرق العربي، بينما نجد في المراحل المتأخرة ظهور السمات الأندلسية الخالصة في الشعر وذلك لتأثيرها بالطبيعة الأندلسية الجديدة واحتلافها عن البيئة المشرقة.

بالتأكيد، لا يمكننا أن نتناول هذا الأمر على هذا النحو أو ذاك من الصراوة، ونقول: إنّ الأدب منذ فتح الأندلس وحتى تاريخ محدد هو أدب مشرقي!! ومن بعد هذا التاريخ أصبح أدباً أندلسياً ولم يعد ثمة علاقة له بالأدب المشرقي؟ إذ لم ينقطع التواصل بين الأدبين والتأثير بل والتأثير المتبادل بينهما، إلا أنّنا نرصد ظاهرة عرفها الأدب العربي الأندلسية ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا بالنسبة إلى المغرب العربي، ألا وهي النّظرة إلى المشرق العربي وما تحمله من قداسة واحترام لأنّه المنبع والأصل، الذي انطلق منه الفكر والأدب باتجاه المغرب ومن ثم الأندلس، وهنا نجد أنّ بعض الأدباء المتأخرين يشيرون إلى ذلك ومنهم الأديب والفيلسوف صاحب طوق الحمامنة أبو محمد بن حزم يقول من قصيدة يخاطب فيها قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشر يفخر فيها بالعلم:

«إِلَّا أَنَّ أَهْلَ هَذَا الْأَفْقَيْ أَبُوا إِلَّا مُتَابِعَةُ أَهْلِ الشَّرْقِ، يَرْجِعُونَ إِلَى أَخْبَارِهِمُ الْمُعْتَادَةِ رَجْوَعَ الْحَدِيثِ إِلَى قَتَادَةِ(٢)، حَتَّى لَوْ نَعَقْ بِتِلْكَ الْأَفْقَيْ غَرَابَ، أَوْ طَنَّ بِأَقْصَى الشَّامِ وَالْعَرَاقِ ذَبَابَ، لَجَثَوْ عَلَى هَذَا صَنْمَأَ وَتَلَوْ ذَلِكَ كِتَابًا مُحَكَّمًا، وَأَخْبَارِهِمُ الْبَاهِرَةِ، وَأَشْعَارِهِمُ السَّائِرَةِ، مَرْمَى الْقَصِيَّةِ وَمَنَاخِ الرَّذِيَّةِ، لَا يَعْمَرُ بَهَا جَنَانٌ وَلَا خَلَدٌ، وَلَا يَصْرُفُ فِيهَا لِسَانٌ وَلَا يَدٌ، فَعَاظَنِي مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَأَنْفَتَ مَمَا هَنَالِكَ، وَأَخْذَتْ نَفْسِي بِجَمْعِ مَا وُجِدَتْ مِنْ حَسَنَاتِ دَهْرِيِّ، وَتَبَعَّبَ مَحَاسِنُ أَهْلِ بَلْدِي وَعَصْرِيِّ، غَيْرَةُ لَهَذَا الْأَفْقَيِ الْغَرِيبِ أَنْ تَعُودَ بِدُورِهِ أَهْلَلَةً وَتَصْبِحَ بَحَارَهُ ثَمَارًا مَضْمَحَلَّةً، مَعَ كُثْرَةِ أَدْبَائِهِ، وَوَفُورِ عَلَمَائِهِ، وَقَدِيمًا ضَيَّعُوا الْعِلْمَ وَأَهْلَهُ، وَيَارِبُّ مَحَسِنِ مَاتَ إِحْسَانَهُ قَبْلَهُ، وَلِيَتْ شَعْرِي مِنْ قَصْرِ الْعِلْمِ عَلَى بَعْضِ الزَّمَانِ، وَخَصَّ أَهْلَ الْمَشْرِقِ بِالْإِحْسَانِ(٣)؟؟».

( )

ويذكر ابن بسام أنه لم يعرض لما يؤيد وجهة نظره من أشعار الدولة المروانية، ولا المدائح العامرية ويستشهد بكتاب الحدائق لابن فرج الجياني معارضًا لـ "كتاب الزهرة" للأصبهاني، ولعل ابن بسام كان شديد التأثر، وبالغ في الأخذ على أهل أفقه في تعلقهم بالشرق، ولكنّه لا يستطيع إنكار الواقع التاريخي، والدور الهام الذي أدّاه القادمون من المشرق سواء مع جيوش الفتح أو في فترات لاحقة، وقد أشار المقرّي في كتابه المعروف "فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، وهو بصدق الحديث عن رحل من المشرق إلى بلاد الأندلس ويقوم بإحصاء المعروف منهم إذ بلغ عددهم حوالي ٨٦ / ستة وثمانين شخصاً، ويذكر المقرّي أنّ معظم الذين دخلوا الأندلس من المشرق، لم يدخلوها للغرض نفسه، الذي ذهب من أجله الأندلسيون إلى بلاد المشرق، وإنّما جاؤوا فاتحين ومبشرين، والمثقفون منهم أسند إليهم التوجيه والإرشاد للمقاتلين القادمين من المشرق، أو المنضمين لجيوش الفتح، وكذلك تعليم اللغة العربية ونشر الدين الجديد في تلك الأصقاع، كما قام المقرّي بإحصاء الراحلين من الأندلس إلى المشرق فبلغ عددهم ٣٠٧ / سبعة وثلاثمائة، وخصص تقريراً الجزء الثاني من نفحه لهذا الباب، وبالمقارنة بين الوافدين إلى الأندلس من المشرق والقادمين من الأندلس إلى المشرق يتبيّن لنا الفرق في ذلك، ويذكر لنا المقرّي قدوم المغني الغارسي المشهور زرياب وابنته علياً وحمدونة وحامد وغزلان وهنية وهنيدة وتلميذاته متّعة(١) وقد استقبل في قرطبة وأمر له الأمير عبد الرحمن بن الحكم براتب جيد وأمر عماله أن يحسنوا إليه، وبعد استقراره قام بزيادة أوتار عوده وترأ خامساً أحمر متوضطاً فاكتسب به عوده لطف معنى، وأكمل فائدة، واتخذ ملوك أهل الأندلس وخواصهم زرياب قدوة لهم فيما سنه من آداب، ومما أخذه عنه الأندلسيون هو تعليمهم لهم كيف يفرقون شعورهم وسط الرأس، ويقصونها من الخلف حتى يظهر العنق ويبدو الجبين، في حين أنّهم كانوا يتركونها تغطي كل هذه الأماكن الجميلة، وقد أنشأ أول مدرسة في الأندلس لتعليم الموسيقى والغناء، وكان عماد هذه المدرسة أبناءه وبناته وجواريه.

ومن العلماء المشهورين الذين قدموا الأندلس من المشرق أبو علي القالي صاحب الأمازي والنواادر، وكذلك أبو العلاء صاعد البغدادي اللغوي، وأصله من الموصل فدخل قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر، وظنّ المنصور أنّه سينافس به أبو علي القالي الوافد علىبني أمية، ومن الذين دخلوا الأندلس أيضاً: أبو الحسن الأنطاكي فكان بصيراً باللغة العربية والحساب وله حظ من الفقه، وقدم الأندلس أيضاً أحد الأولياء الصالحين واسمه سيد يوسف الدمشقي، وهو شاذلي الطريقة، وقدم أيضاً من المشرق إلى الأندلس عدد من النساء منهن: عابدة المدينة وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة، وكذلك فضل المدينة وهي حاذقة في الغناء وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد، وكذلك قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللكمي، والجارية العفراء ويصفها الأرقمي في أنها لم تكن حسنة المظهر ولا جميلته، إلا أنها مغنية بارعة، وهكذا نجد أنّه كان لمجموع الوفدين إلى الأندلس تأثير كبير في مختلف مجالات الحياة، وظل الأندلسيون يحاكون المشارقة في كل شيء، وبهذا الصدد يقول هنري بيريز:

«إن الثقافة الأدبية بدأت في إسبانيا بالشعر المشرقي، وفرضت أسلوباً استبداًياً على ذهن جميع الأندلسيين، فإذا أرادوا أن يميزوا، أو أن يخصوا أديباً أو شخصية ما، يعودون مباشرة إلى ما يقابلها في ذاكرتهم الشرقية، فالمعتضد بن عباد قورن بال الخليفة العبسي -أبو جعفر المنصور- والمعتمد بن عباد قورن بالواثق بالله، وذلك بسبب دقة ذكائه واتساع معرفته الأدبية(١)». وفي الإطار نفسه يقول بيريز أيضاً:

«إن ابن السقاط قورن بحبيب (أبو تمام) وأبا عبد الله اللوشي بالبحيري، وأبا بكر بن قزمان يشبه بالمتنبي لأنّه يقلق أولاً من الأفكار، وابن حزم في رسالته عن إسبانيا يقارن ابن دراج بشار بن برد وبحبيب (أبو تمام) وبالمتنبي، وابن طاهر (أبو عبد الرحمن) من مرسيه يشبه الصاحب بن عباد، الشاعرة مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري فاقت الخنساء» ويتبع بيريز:

«إن الإعجاب بالشرق يترجم عند الإسبانيين في نزولهم إلى إعطاء بعضهم بعضاً ألقاباً شعراء أو فلاسفة شرقيين، إن الأصمعي في أسبانيا يعني محمد بن سعيد الزجالي، المتحدّر من أصل بربري، وحسناً المغرب هي حمدة أو حمدونة بنت زياد المؤدب من قادس، وبختري المغرب هو ابن زيدون صنوبري الأندلس هو ابن خفاجة، وابن الرومي الإسباني هو أبو عبد الله الرصافي، وأبو بكر المخزومي يدعى ابن سعيد «المعري الثاني»»<sup>(١)</sup>

وهكذا نجد أن التراث الشعري العربي ظل ماثلاً في وجدان الشاعر الأندلسي، وبقي الأندلسيون متميزين بحبهم ووفائهم، وربما هذا يعود إلى ما تركه لهم الأوائل ولا سيما عبد الرحمن الداخل ومن جاء بعده، إذ كانت قلوبهم في المشرق وأجسادهم في الأندلس، بينما نجد موقف المغاربة يختلف عن موقف الأندلسيين فاتصف بالإعراض وربما يعود ذلك لسياسةبني العباس و موقفهم من الدولة الأموية في الأندلس، وهذا ماحدا بكثير من المغاربة للنظر إلى كل ما هو مغربي أو أندلسي نظرة لا تخلو من الازدراء والاحتقار.

ومن هنا يمكننا القول: إن أدباء الأندلس شعوا بضرورة الرد على هذه النظرة السلبية من المغاربة تجاههم، ولا سيما أنهم بلغوا مرحلة أصبحوا فيها يشاهدون أدب المشرق، وذلك بعد أن كونوا أرضية متينة قامت على سعة الإطلاع وكثرة الرحلات، وربما أثر بداية تأسيس عبد الرحمن الداخل لدولته المستقلة سياسياً عن المشرق، وفي القرن اللاحق تطور الفكر الأندلسي عامة والأدب خاصة، إلى أن اشتد عوده، وبدأ أدباءه وكتابه إنتاجهم الشري Xavieron به، ويرددون من خلاله على ذلك الاستعلاء المشرقي إن صح التعبير، فها هو ابن شهيد الأندلسي، يؤلف رسالته: التوابع والزوايا، ليظهر تفوّقه على نظرائه المغاربة وذلك بإبداعه لهذا النوع من القصص الخيالية، التي يبرز شخصيته من خلالها.

وببدأ الكثير من الكتاب والأدباء والمفكرين الأندلسين في الغمز من قناة المغارقة، وانكبوا على تأليف كتبهم المتميزة التي يشاهدون من خلالها مؤلفات المغارقة، ومن هذه المؤلفات: المقتبس لابن حيان، والذخيرة لابن بسام، وقلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان، والبديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل الحميري الإشبيلي، والحلة السيراء لابن الآباء، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي، والمغرب في حل المغرب لابن سعيد المغربي، والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب وغيرها من مؤلفات كانت على قدر كبير من الأهمية، ولا تقل عن مؤلفات المغارقة وجاءت في مجلتها لتأكيد الأصالة الأندلسية، وأنها لم تعد محاكية ومقلدة لنظيرتها المشرقية، ونورد هنا مثالين اثنين أوردهما المقرئ في نفحه يؤكد المنحى الذي سار فيه الأندلسيون: المثال الأول هو أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير الكاتب، وقد اشتهر بالمجون والخلاعة مع البلاغة والبراعة وهو من بيت مشهور من جزيرة شقر، من أعمال بلنسية، فيقول فيه ابن سعيد: «هو من كان والدي يكثر مجالسته، ولم يستغد منه إلا ما كنت أحفظه في مجالسته، وكان شديد التهور، كثير الطيش، ذاهباً بنفسه كل مذهب، سمعته مرة وهو في محفل يقول: تقيمون القيامة لحبيب والبحري والمتبني وفي عصركم من يهتدى إلى ما لم يهتدوا إليه؟ فأهوى له شخص له قحة وإقدام، فقال يا أبو جعفر، فأرنا برهان ذلك، ما أظنك تعني إلا نفسك، فقال: نعم، ولم لا؟ وأنا الذي أقول مالم يتتبه إليه متقدم، ولا يهتدى لمثله متاخر».

يا هل ترى أظرف من يومنا	قلّد جيد الأفق طوق العقيق
وأنطق الورق بعيدانها	مرقصة كل قضيب وريق
والشمس لا تشرب خمر الندى	في الروض إلا بكؤوس الشقيق

فلم ينصحوه في الاستحسان، ورده في الغيظ إلى أضيق مكان، فقلت له: يا سيدى، هذا هو السحر الحلال، فبأ الله إلا ما زدتني من هذا النمط، فقال:

أدرْهَا فالسَّماءِ بَدْتُ عَرْوَسًا  
وَخَدَ الرُّوضَ حَمْرَهُ أَصْيلُ  
وَجِيدَ الْغَصَنِ يَشْرُقُ فِي لَالِ  
مُضْمَخَةِ الْمَلَابَسِ بِالْغَوَالِي  
وَجَفَنَ النَّهَرِ كَحْلَ بِالظَّلَالِ  
تَضِيءُ بِهِنْ أَكْنَافَ الْلِّيَالِ»<sup>(١)</sup>

**والمثال الثاني يتعلق بابن زيدون فيقول المقرّي في نفحه:**

«حكي أنّ الوزير ابن زيدون، توفيت ابنته، وبعد الفراغ من دفنها وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم، فقيل: إنّه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد، قال الصدقي: وهذا من التوسع في العبارة، والقدرة على التفنن في أساليب الكلام، وهو أمر صعب إلى الغاية، وأرى أنه أشّق مما يحكى عن واصل بن عطاء، أنه ما سمعت منه كلمة فيها راء، لأنّه كان يلغّ بحرف الراء لشدة قبيحة، والسبب في تهويته لهذا الأمر، وعدم تهويته لأنّ واصل بن عطاء كان يعدل إلى ما يرادف تلك الكلمة مما ليس فيه راء، وهذا كثير في كلام العرب، فإذا أراد العدول عن لفظ فرس قال: جواد أو ساعٍ أو صافن..... وأما ابن زيدون فأقول في حقه إنّه أقل ما كان في تلك الجنازة، وهو وزير، ألف رئيس ممن يتبعين عليه أن يتشرّك له، ويضطر إلى ذلك، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر، وهذا كثير إلى الغاية، لاسيما من محزون، فقد قطعة من كبده. ولكنّه صوب العقول إذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحائب»<sup>(٢)</sup>

**وقال بعض الأدباء:**

«من لبس البياض، وتختم بالقيق، وقرأ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي، وروى شعر ابن زيدون، فقد استكمّل الظرف.»<sup>(٣)</sup>

وفي الختام يمكننا القول: إنّه وعلى الرغم مما ذكرنا، بقي المشرق بفكره وأدبه متغللاً في فكر الأندلس وأدبه لأنّه الأصل. ومن هنا كانت المحاكاة الأندلسية للمشرقية مع الأخذ بعين الاعتبار تبادل هذه المحاكاة من عصر لآخر، وهذا لا يلغى أنّ الأدب العربي في الأندلس استطاع أن يبزّ في بعض الجوانب الأدب العربي المشرقي، ولأنّكر عليه أيضاً تأثيره في الفكر الأوروبي عامه وفي مختلف المجالات، ويعود الفضل في النهضة الأوروبيّة للحضارة العربية في الأندلس، وما أدّته من مهام على هذا الصعيد، وهذا ما دفع بكثير من المستشرقين الأوروبيين لإنصاف هذه الحضارة والرد على من لم ينصفها وأنّكر فضلها على أوروبا، وفي المحصلة فنحن نعدّ الحضارة العربية واحدة بمغربها ومشرقها حضارة حية، أعطت البشرية كنزاً معرفياً غنياً، وأسهمت في تطور الحضارة الإنسانية التي هي جزء منها، تأخذ وتعطي بعيدة عن التعصب والتطرف والاستعلاء، وتعمل لما فيه مصلحة البشرية كافة.

رئيس التحرير

### مصادر البحث ومراجعه

- ١ - أبوالحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر-بيروت، ١٩٧٩ .
  - ٢ - أحمد بن محمد المقرري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ .
- 3-PERES(HENRI) La Poesie Andalouse en arabe classique2 (au x1 siecle) ed, Adrien, Maisonneuve, Paris 1953



# **النقد التطبيقي**



# أمير شعر أبي ذؤيب وغررة كلامه عند الشاعري

د. عبد الكريم محمد حسين\*

لأبي منصور الشاعري (٣٥٠-٤٢٩هـ) افتنانٌ في نقد الشعر، من ذلك حديثه على أبي ذؤيب الهذلي<sup>(١)</sup> (-نحو ٢٢٦هـ) ولنقده إياه جانبان: أحدهما اتباع للمتقدمين، والآخر ابتداع منه بناء على طبيعة شعر أبي ذؤيب ورأي المتقدمين فيه معاً، وسيأتي تقويم أشعار أبي ذؤيب من وجهة نظر الشاعري في عينيته المرثية، وتقوم الدراسة على إثبات العينية، وإثبات نقاده، وبيان مصادره في اتباعه، ومفهوم ما جاء به بابتداعه، وصدى ذلك النقد عند ابن شرف القير沃اني (-٤٦٠هـ) في معالجة تبني على الدلالة اللغوية والسيقانية النصية والحياتية معاً.

## عينية أبي ذؤيب الهذلي:

إثبات القصيدة حق واجب؛ لأن الحكم النقيدي يطلب حضورها؛ لتكون عين المتنقي على النص حيث يضع الشاعري عينه ويده، وقد حكم الشاعري لها، وهي حاضرة في ذهنه، وفي إثباتها استحضار لفضائلها مشفوعاً ببنائها، وفيه بيان لمواضع هم الشاعري منها، في دلالته على حكمه النقيدي، وليس من مقصد المقال تحليل القصيدة ولا استعراض آراء النقاد فيها فلذلك موضع آخر يتناول القصيدة بالتحليل والتأويل، وفيما يأتي نصها<sup>(٢)</sup>:

\* جامعة دمشق - قسم اللغة العربية.

<sup>(١)</sup> خويلد ابن خالد ابن محرث من بني هذيل ابن مدركة من مضر شاعر فحل مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وسكن المدينة وشارك في الغزو والفتح مات سنة ٢٧ هـ. [الأعلام: خير الدين الزركلي مجل ٢ ص ٣٣٥].

<sup>(٢)</sup> المفضليات، اختيار المفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبدالسلام محمد هارون، القاهرة- دار المعارف بمصر، ط٤ ، ١٩٧٦ م: ٤٢١ المفضلية: ١٢٦

## - الحال والسؤال :

والدَّهْرُ لِيْسَ بِمُعْتَبٍ مَّن يَجْزَعُ  
مِنْذَ ابْتَلَنَا وَمِثْلُ مَالِكٍ يَقْفَعُ  
إِلَّا أَقْضَى<sup>(٢)</sup> عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ

أَمِنَ النَّوْنِ<sup>(١)</sup> وَرَبِّهَا تَتَوَجَّعُ  
أَقَالَتْ أَمِيمَةً مَا لِجَسْمِكَ شَاحِبًا  
أَمْ مَا لِجَنْبِكَ لَا يُلَائِمُ مَضْجَعًا

## - الجسم والمصاب :

أَوْدَى<sup>(٣)</sup> بَنْيَيْ مِنَ الْبَلَادِ فَوَدَعُوا  
بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لَا تُقْلِعُ  
فُتَخْرُمُوا، وَلُكْلُ جَنْبٍ مَصْرَعُ  
وَإِخَالُ أَنْيَ لَأْحِقَّ مُسْتَبِعُ

فَأَجَبَتْهَا: أَمَا لِجَسْمِي أَنْتَهُ  
أَوْدَى بَنْيَيْ وَأَعْقَبَ وَنِي غُصَّةً  
سَبَقَوْهَا هَوَيْ وَأَعْنَهُ وَالْهَوَاهُمْ  
فَغَبَرَتُ<sup>(٤)</sup> بَعْدَهُمْ يَعْشِ نَاصِبِ<sup>(٥)</sup>

## - الوالد والمنية :

فِإِذَا الْمَيْنَةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ  
أَفْيَتْ كَلَّ تَمِيمَةً<sup>(٦)</sup> لَا تَفْعَ

وَلَقَدْ حَرَضَتْ بَأْنَادِيفَ عَنْهُمْ  
وَإِذَا الْمَيْنَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا

## - الحال بفارقهم :

سُمِّلَتْ<sup>(٧)</sup> بِشَوْكٍ فَهُنَيْ عُورَتْ دَمْعُ  
بِصَافَا الْمَشْرَقِ<sup>(٨)</sup> كُلُّ يَوْمٍ تُقْرَعُ

فَالْعَيْنُ بِعَدَهُمْ كَأَنْ حِدَاقَهَا  
أَحْتَى كَأَنِي لِلْحَوَادِثِ مَرْزُوةً

<sup>(١)</sup> المنون : المنية ، ويجزع : يتأنم من الشر.

<sup>(٢)</sup> أقض عليه مضجعه إذا خشن بالحصا.

<sup>(٣)</sup> ذهباوا وهلكوا

<sup>(٤)</sup> الغبار معروف ، والصورة كنایة عن الإهمال فصار يقوم بخدمة نفسه.

<sup>(٥)</sup> متَبَعٌ

<sup>(٦)</sup> خرزات يضعها الأعراب لصبيانهم ترد العين والحسد بزعمهم

<sup>(٧)</sup> فُقْشَتْ

<sup>(٨)</sup> المُشَرَّق : جبل بسوق الطائف ، والصفا : الحجارة اللينة الملساء ، ومروة : حصاة جمعها مرو ، وهي هنا بمعنى دريئه.

- التجدد والشامتون:

١٢ وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتَيْنِ أَرِيهِمُ  
أَنِي لِرَبِّ الْدَّهْرِ لَا أَنْصَاعُ  
١٣ وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا  
وَإِذَا تَرَدَّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

الفجيعة:-

٤١ وَلِئِنْ يَهُمْ فَجَّمَ الزَّمَانُ وَرَبِّهُ إِنَّمَا لِمُفْجَّمٍ

- العزاء -

١٥ أَكْمَمْ مِنْ جَيْمِ الشَّمْلِ مُلْتَئِمُ الْقُوَىٰ كَانُوا بَعَيْشَ قَبْلَنَا فَتَصَدَّعُوا

## - الدهر والحيوان صورة العزاء:

١٦ والدَّهْرُ لَا يَقْنَى عَلَى حَدَّانِي  
جَوْنُ السَّرَّاَةِ لِهِ جَدَائِدُ أَرْبَعٌ<sup>(١)</sup>

١٧ صَاحِبُ الشَّوَارِبِ<sup>(٢)</sup> لَايْزَالُ كَانَهُ  
عَبْدُ لَالِّ أَبْيَ رَيْغَةَ مُسْبَعَ

١٨ أَكَلَ الْجَمِيمَ وَطَاوَعَتْهُ سَمْحَاجُ<sup>(٣)</sup>  
مِثْلُ الْقَنَاءِ وَأَزْعَلَهُ الْأَمْرَعُ

١٩ بِقَرَارِ قِيعَانِ سَقَاهَا وَأَبْلَى  
وَاهُ، فَأَثْجَمَ<sup>(٤)</sup> بُرْهَةً لَا يُقْلِعُ

٢٠ فَلَيْشَنْ حِينَأَ يَعْتَلْجَنْ بِرَوْضَتِهِ  
فَيُجَدُّ حِينَأَ فِي الْعِلاَجِ وَيَشْمَعُ<sup>(٥)</sup>

٢١ حَتَّى إِذَا جَازَرَتْ مِيَاهُ رُزُونِيَّهِ  
وَيَأِيْ حِينَ مَلَوَّهَ<sup>(٦)</sup> تَقْطَعُ

<sup>(١)</sup> جون السراة: حمار أسود الظهر، والجداول جمع جدود، وهي الأئمان التي لا لبن فيها.

(٢) وَحِمَارٌ صَبْحُ الشُّوَارِبِ: يُردد نهائه في شواربه. والشوارب: مَجَارِيِ الْمَاءِ فِي الْخَلْقِ. انظر: لسان العرب: (صَبْح) وجاء معنى مسبع: (وقال أبو سعيد الضبي: مسبع - بكسر الباء - فشبة الحمار، وهو ينهرق بعيد قد صادف في غنمته سبعاً، فهو يهجهج به ليزجره عنها). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (سليم) ومسمى معناها: مهملاً.

يُهجّج به ليزجره عنها). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (سبع) ومسمى معناها: مهمل.

<sup>(3)</sup> أتان طولية الظهر وأزعلته: بعثت فيه النشاط فازدادت حرّكته، والأمرع: المداعي الخصبة.

(٤) أشحمة نزل بغارة

(٥) مشتمل على ماء: (إذا شمل الماء ففوج أسره وكشّع عن أنسانه) شمس العالم (شماء)

(٦) ملامة حسن النقاش و حسنات: قطاع تـ

شُوْقٌ وَأَقْبَلَ حَيْنَهُ<sup>(١)</sup> يَتَّبِعُ  
ثَرَرُ<sup>(٢)</sup>، وَعَانَدَهُ طَرِيقَ مَهِيَّعَ  
وَأَوْلَاتِ ذِي الْعَرْجَاءِ نَهَبَ مُجْمَعَ  
يَسَرٍ يُفِيضُ عَلَى الْقِدَاحِ وَيَضْدَعُ  
فِي الْكَافِ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَضْلَعُ  
ضُرَيَّاءٍ فَوْقَ الْسَّنَنِ لَا يَتَّلَعُ  
حَصِيبٌ<sup>(٥)</sup> الْبَطَاحِ تَغِيبُ فِي الْأَكْرَعِ  
شَرَفُ الْحِجَابِ وَرَبَ قَرْعَ يُقْرَعُ

ذَكْرَ الْوَرْدَ بِهَا وَشَاقِيْ أَمْرَةٌ  
فَاقْتَهَنَ مِنَ السَّوَاءِ وَمَا وَهُ  
فَكَانَهَا بَالْجِزْعِ بَيْنَ نُبَایعَ  
وَكَانَهُنَّ رِبَابَةً<sup>(٣)</sup> وَكَانَهُ  
وَكَانَهُ هُوَ مِذْوَسٌ<sup>(٤)</sup> مُتَقْلِبٌ  
فَوَرَدَنَ وَالْعَيْوَقُ مَقْعَدَ رَابِيٍّ وَالِ  
فَشَرَّعَنَ فِي حَجَرَاتِ عَذْبِ بَارِدٍ  
فَشَرِينَ ثُمَّ سَمِعَنَ حِسَادُونَهُ

### - الصياد والموت :

فِي كَفَّهِ جَشَّهُ<sup>(٦)</sup> أَجَشُّ وَأَقْطُعُ<sup>(٧)</sup>  
سَطَاعَهُ هَادِيَّةٌ وَهَادِجُرَشَعُ  
سَهْمًا، فَخَرُّ وَرِيشُهُ مُتَصَمَّعُ<sup>(٩)</sup>  
عَجَلاً، فَعَيَّثَ فِي الْكِنَانَةِ يُرْجِعُ  
بِالْكَشْحِ فَاشْتَمَلتُ عَلَيْهِ الأَضْلَعُ

وَنَمِيمَةٌ مِنْ قَانِصٍ مُتَلَبِّبٍ  
فَنَتَكِرْتَهُ وَنَقْرَنَ وَامْتَرَسَتْ بِهِ<sup>(٨)</sup>  
فَرَمَى فَانْقَذَ مِنْ نَجْوِدِ عَائِطٍ  
فَبَدَأَلَهُ أَقْرَابُ هَذَا رَائِفًا  
فَرَمَى فَالْحَقَّ صَاعِدِيَا مِطْحَراً

(١) وَتَرَوِيْ بِالرُّفْعِ

(٢) البَشْرُ : (الماءُ البَشْرُ فِي الْغَدَيرِ إِذَا ذَهَبَ وَبَقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْهُ شَيْءٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ نَشَّ) لسان العرب بَشْرٌ، ولعل هذا اللفظ من الأضداد

(٣) الرَّبَابُ بِالْكَسْرِ : (جَمَاعَةُ السَّهَامِ أَوْ خَيْطٌ تُشَدُّ بِهِ السَّهَامُ أَوْ خِرْقَةٌ) أَوْ جِلْدٌ تُشَدُّ أَوْ (تُجْمَعُ فِيهَا) السَّهَامُ تاج العروس : (رب)

(٤) وَالْمِذْوَسُ : خَشْبَةٌ يُشَدُّ عَلَيْهَا مِسْنَةٌ، وَخَشْبَةٌ يَدَسُ بِهَا الطَّعَامَ. لسان العرب (دوس) والأضلع الغليظ الشديد.

(٥) الحصباء : صغَارُ الحصَاءِ وَكبارُهَا.

(٦) القوس

(٧) جمع (قطع) وهو النصل العريض.

(٨) تَدَافَعَتْ بِهِ الْأَتَانُ وَالْفَحلُ، وَالْهَادِيَّةُ الْمُتَقْدَمَةُ، وَالْجَرْشَعُ : العظيم.

(٩) المُنْضَمُ الرِّيشُ مِنَ الدَّمِ.

بِذَمَائِهِ أَوْ بِسَارِكَ مُتَجَعِّجَعُ  
كُسِيَّتْ بُرُودَ بِنِي تَرِيدَ الْأَذْرَعُ

٣٥ فَابَدَهُنْ<sup>(١)</sup> حَتَّى وَفَهُنَّ فَهَارِبٌ  
٣٦ يَعْثَرُنَّ فِي حَدَّ الظُّبَاتِ كَأَنَّمَا

### الكلاب والصياد :

شَبَبُ<sup>(٢)</sup> أَفْزَتْهُ الْكِلَابُ مُرَوْعٌ  
فَإِذَا رَأَى الصُّبْحَ الْمَصَدْقَ يَفْزَعُ  
قَطْرٌ وَرَاحْتَهُ بَلِيلٌ زَعْزَعُ  
مُفْضٌ يُصَدِّقُ طَرْفَهُ مَا يَسْمَعُ  
أُولَى سَوَابِقِهَا قَرِيبًا تُوزَعُ  
غُبْرَ ضَوَارِ وَفِيَانٍ وَاجْدَعُ  
عَبْلُ الشَّوَى<sup>(٣)</sup> بِالْطَّرَتِينِ مُؤْلَعُ  
بِهِمَا مِنَ النَّضْحِ الْمَجَدِحِ أَيْدَعُ  
عِجَالَةً بِشَوَاءِ شَرْبٍ يَنْزَعُ  
مُتَّرْبٌ، وَلَكُلٌ جَنْبِ مَصْرَعٍ  
مِنْهَا، وَقَامَ شَرِيدُهَا يَتَضَوَّعُ  
بِيَضْ رِهَابٌ<sup>(٤)</sup> رِيشُهُنَّ مُقْزَعُ  
سَاهِمٌ، فَأَنْقَذَ طُرْتِيَهُ الْمِنْزَعُ  
بِالْخَبْثِ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَبْرَعُ

٣٧ وَالدَّهْرُ لَا يَقْنَى عَلَى حَدَّاثَنِهِ  
٣٨ شَعْفَ الْكِلَابِ الضَّارِبَاتِ فُؤَادَهُ  
٣٩ وَيُعُودُ بِالْأَرْطَى إِذَا مَا شَفَهُ  
٤٠ يَرْمِي بِعَيْنِيهِ الْغَيْوَبَ وَطَرْفَهُ  
٤١ فَغَدَا يَشْرُقُ مَتَّهُ فَبَدَالَهُ  
٤٢ فَاهْتَاجَ مِنْ فَزَعٍ وَسَدَ فُروْجَهُ  
٤٣ يَنْهَشَنَّهُ وَيَذْبَهُنَّ وَيَحْتَمِي  
٤٤ فَنَحَالَهَا بِمُمْذَلَقِينَ<sup>(٤)</sup> كَأَنَّمَا  
٤٥ فَكَانَ سَفُودِينَ لَمَا يَقْتَرَأ  
٤٦ فَصَرَّعَنَّهُ تَحْتَ الْفُبَارِ وَجَنْبَهُ  
٤٧ حَتَّى إِذَا ارْتَدَتْ وَأَقْصَدَ عُصَبَةَ  
٤٨ فَبَدَالَهُ رَبُّ الْكِلَابِ بِكَفَهُ  
٤٩ فَرَمَى لِيْنِقِذَ فَرَهَا فَهَوَى لَهُ  
٥٠ فَكَبَا كَمَا يَكْبُو وَفَيْقَ تَارِزٌ

<sup>(١)</sup> أعطاهن سهماً سهماً لا اثنين اثنين، والذماء: بقية الروح في المذبوح، والمجادح: الدم المحرك، أيدع: الزعفران.

<sup>(٢)</sup> الشبب: الثور المسن، وأفزته: أخافته..

<sup>(٣)</sup> غليظ القوائم

<sup>(٤)</sup> المذلق: القرن الأملس، والرمح، والنضح: التلطيخ،

<sup>(٥)</sup> نصال رقاق. والرهاب بلغة حمير: الكلم، وسهم مقزع: ريش بريش صغاري

## الدهر والفارس:

مُسْتَشِّعِرْ حَلَقَ الْحَدِيدِ مُقْنَعُ  
مِنْ حَرَّهَا يَوْمَ الْكَرِيمَةِ أَسْفَعُ  
حَلَقَ الرُّحَالَةَ فَهِيَ رِخْوَةٌ مَزَعُ

٥١ وَالْدَّهْرُ لَا يَقْنَى عَلَى حَدَانِي  
٥٢ حَمِيمَتْ عَلَيْهِ الدُّرُغُ، حَتَّى وَجَهَهُ  
٥٣ تَعْدُو بِهِ خَوْصَاءُ<sup>(١)</sup> يَقْصِيمُ جَرِيَهَا  
جَرِيَهَا

بِالَّنِي فَهِيَ تَخْوُخُ فِيهَا الِاصْبَعُ  
كَالْقُرْطِ صَارِ غَبَرَهُ لَا يَرْضَعُ  
إِلَّا الْحَمِيمَ يَمِ فَإِنَّهُ يَتَبَضَّعُ  
يَوْمًا أَتَيْحَ لَهُ جَرِيَهُ سَلْفَعُ  
صَدَاعُ سَلِيمَ رَجْعُهُ لَا يَظْلَعُ

٤٤ قَصَرَ الصَّبُوحَ لَهَا فَشَرَحَ لَحْمُهَا  
٤٥ مُتَفَلِّقٌ أَنْسَأَهَا عَنْ قَانِيَهُ  
٤٦ تَأَبَى بِدِرْتَهَا إِذَا مَا اسْتَغْضَبَتْ  
٤٧ يَيَّنَا تَعْنَقَهُ<sup>(٢)</sup> الْكُمَاءَ وَرَوْغَهُ  
٤٨ يَعْدُو بِهِ نَهْشُ الْمَشَاشِ كَأَنَّهُ

## مصارع الفرسان:

وَكِلَاهُمَا بَطَلُ اللَّقَاءِ مُخَدَّعُ  
بِلَائِهِ، وَالْيَوْمُ يَوْمُ أَشْنَعُ  
دَاؤُودُ أَوْ صَنَعُ السَّـوَابِقِ تَبَعُ  
فِيهَا سِنَانَ كَالْمَنَارَةَ أَصْنَعُ  
عَضْبًا إِذَا مَسَ الضَّرِيرَةَ يَقْطَعُ  
كَنَوَافِذِ الْعُبُطِ<sup>(٣)</sup> الَّتِي لَا تُرْقَعُ  
وَجَنَى الْعَلَاءَ، لَوَانْ شِينَأَيْنَفَعُ

٤٩ فَتَنَادِيَا وَتَوَاقَقَتْ خَيَّلَاهُمَا  
٥٠ مَتَحَسِّمَيْنَ الْمَجْدَ، كُلُّ وَاثِقَ  
٥١ وَعَلَيْهِمَا مَسْرُورُ دَتَانِ قَضَاهُمَا  
٥٢ وَكِلَاهُمَا فِي كَفَّهِ يَزْنِيَّةَ  
٥٣ وَكِلَاهُمَا مَتَوَشَّحَ ذَارَوْنَقِ  
٥٤ فَتَخَالَسَ اَنْفَسَ يِهِمَا بِنَوَافِذِ  
٥٥ وَكِلَاهُمَا قَدْ عَاشَ عِيشَةَ مَاجِدِ

<sup>(١)</sup> صفة الفرس<sup>(٢)</sup> تعانقه ، ، السلف : الرجل الشجاع.<sup>(3)</sup> العُبُط : الشقوق

هذا نص القصيدة بطولها موضوع لاختبار أحكام الشاعري فيها. ومعلوم أن أبي ذؤيب قالها بمناسبة وفاة ابنائه لقول أبي زيد عمر بن شبة (٢٦٢هـ) : ((تقدم أبو ذؤيب جميع شعراء هذيل بقصيده العينية التي يرثي فيها بنيه يعني قوله<sup>(١)</sup> :

**أَمِنَ الْمَنَوْنَ وَرَبِّهِ تَوْجَحَ  
وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مِّنْ يَجْزَعُ))<sup>(٢)</sup>**

فكشف عن رتبة هذه القصيدة التي جعلته يتقدم بها شعراء هذيل، وهي في رثاء ابنائه، فتقديم شعره بها، وتقدمت على شعر هذيل لا في المراثي وحدها بل بالفنون الشعرية المختلفة، فكأنها كانت مصباحاً أضاء ما عند أبي ذؤيب من أشعار. فماذا قال فيها الشاعري (٣٥٠ - ٤٢٩هـ)؟

### الشعري وشعر أبي ذؤيب:

للساعري موقف محمل بنظر منه إلى شعر أبي ذؤيب الهذلي من خلال مرثيته، ويقف على ميراث المتقدمين في نقد شعره ونقد قصيده بقوله ((أبو ذؤيب الهذلي : قيل : إن هذيل أشعر قبائل العرب، وأبا ذؤيب أشعر هذيل، وأمير شعره وغرة كلامه قصيده في الرثاء التي أولها :

**أَمِنَ الْمَنَوْنَ وَرَبِّهِ تَوْجَحَ  
وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مِّنْ يَجْزَعُ  
وَأَعْمَرُ بَيْوَتَهَا قَوْلَه<sup>(٣)</sup> :**

**وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْ  
وَإِذَا رَدَ إِلَى قَلْبِهِ لَقِنَعَ**  
وكان يقول الأصمسي : هو أربع بيت للعرب.  
وأحسن ما في القصيدة قوله<sup>(٤)</sup> :

**وَتَجَلَّدِي لِلشَّامَتِينَ أَرِيهِمْ  
أَنِي لَرِبِّ الدَّهْرِ لَا أَنْضَعْ**

<sup>(١)</sup> أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره ، الرياض - عمادة شؤون المكتبات - جامعة الرياض ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م : ٥٥

<sup>(٢)</sup> الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ، بيروت - دار إحياء التراث العربي [طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، د.ت] : ٦ / ٢٦٥

<sup>(٣)</sup> شرح أشعار الهذلين ، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، روایة أبي الحسن علي بن عيسى بن علي النحوي ، عن أبي بكر أحمد بن محمد الحلوازي ، عن السكري ، حققه : عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة - مكتبة دار العروبة ، [د.ت] : ١ / ١

<sup>(٤)</sup> شرح أشعار الهذلين : ١ / ١٠

## فإذا المنيّة أنشبت أظفارها أفيت كل قيمّة لا تنفع<sup>(١)</sup>)

ففي هذا النص حكمُ المتقدمين بتقدير هذيل في الشعر على قبائل العرب، وتقدم أمير أبي ذؤيب على هذيل، وأضاف الشعالي إلى هذا القول حكماً آخر هو تقدم العينية على شعر أبي ذؤيب، وجعلها أمير شعره وغرة كلامه.

### مُصادر الحكم النَّقْدِي:

لهذا الحكم مصدراً: مصدر الرواية، ومصدر الابتداع بناء على الدراسة بشعر أبي ذؤيب، وقصدته العينية وشعر قبيلته، فأوّلما إلى موقع شعر هذيل من أشعار القبائل، وموقع شعر أبي ذؤيب من أشعار هذيل، موهماً بعلوه على أشعار القبائل كلها بعد تقدمه على شعراً هذيل، ومصدر هذا الحكم الرواية فقد ورد الخبر عن حسان ابن ثابت (- ٥٥٤هـ): ((قال أبو عمرو بن العلاء: سئل حسان من أشعر الناس؟ قال: حياً أو رجلاً؟ قال: حياً؟ قال: أشعر الناس حياً هذيل وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب...))<sup>(٢)</sup>

فحسان بن ثابت صاحب الرأي بتقدير هذيل على القبائل، وتقدم أمير أبي ذؤيب عليها عموماً فجعل هذيل تقدم القبائل بأشعارها، وجعل أمير ذؤيب أشعارها أي أشدتها قوة شعر وجاذبية لأنَّه أكثرها شعراً فثمة شعراً في هذيل أكثر منه شعراً.

وفي الإيماء إلى تقدم أشعار هذيل إشارة إلى تقليل رأية الشعر بين القبائل، لأنَّ هذيل هي أكثر شعراً من غيرها، بل هي تحمل رأية الشعر في زمن حسان بن ثابت يذلك على ذلك قول الأصمعي المروي عن شيخ عالم بالشعر: ((قال الأصمعي: سئل شيخ عالم عن الشعراء، فقال: كان الشعر في الجاهلية في ربعة، وصار في قيس.. ثم جاء الإسلام فصار في قيس. قلت للأصمعي: لمَ لم يذكر اليمن؟ فقال: إنما أراد بنى نزار فأماماً هؤلاء كلهم فإنهم تعلموا من رأس الشعراء: امرئ القيس، وإنما كان الشعر في اليمن.))<sup>(٣)</sup>

وتقييم من هذيل، وهذيل حملت الرأية في ذلك الزمن فشهد حسان لأبي ذؤيب بحمل رأية الشعر في هذيل التي تحمل رأية أشعار القبائل فكان خصال الشعر القبلي للقبائل كلها وُجِدَتْ تجلياتها في هذا الشعر أو ذاك من أشعار

<sup>(١)</sup> شرح أشعار الهنالدين: ٨ / ١، يلحظ تغيير ترتيب الأبيات.

<sup>(٢)</sup> الإعجاز والإيجاز، لأبي منصور الشعالي، بيروت - دار الرائد العربي، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م: ١٤٦.

<sup>(٣)</sup> طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي (- ٢٣١هـ) قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، القاهرة - مطبعة المدنى، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م: ١ / ١٣١.

<sup>(٤)</sup> سؤالات أبي حاتم السجستاني للأصمعي ورده عليه فحولة الشعراء، تحقيق د.محمد عودة سلامه أبو جري، القاهرة - مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م: ٦١.

هذيل ، والإشارة إلى تقدمه لا تعني تفرده في بلوغ رتبة التقدم على شعراء القبيلة وحده ، فشعراء القبيلة عامة متقدمون على عموم شعراء القبائل ، ولا يمتنع تأخر بعض أبنائها على جهة الندرة والقلة والشذوذ في الأحوال التي تقبل الاستثناء من القاعدة ، وتقدم قليل من شعراء القبائل الأخرى على فحول من شعراء هذيل ، ويدلك على ذلك أنه واحد من شعراء المقدمة قوله : ((ومنهم المُتَنَحِّلُ : واسمُه مالكُ بْنُ عُمَرُ بْنُ سُوِيدِ بْنُ حَنْشَ بْنُ خُنَاعَةَ بْنُ عَارِيَةَ بْنُ صَعْصَعَةَ بْنُ كَعْبَ بْنُ طَابِخَةَ بْنُ لَحِيَانَ بْنُ هُذَيْلَ بْنُ مُدْرَكَةَ . وقَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابَتَ عَنْهُ : إِنَّهُ أَشَعَّرُ هُذَيْلَ . ))<sup>(١)</sup> فهذا المُتَنَحِّل (...) يبلغ رتبة أشعر شعراء هذيل ، أي من أشعر شعرائها ، وهو في طليعة شعرائها ، وأبو ذؤيب محضرم لعله لقي المُتَنَحِّل في الجاهلية أو عاصره بعض الوقت . وحسان بن ثابت وهو محضرم عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام ، حكم لهما بالتقدم على شعراء هذيل ، ولو علم أن الصيغة تمنع التعدد في القوة الشعرية ما أطلق صيغة أشعر على شاعرين من قبيلة واحدة ، ولو اختلف الزمان اختلافاً واسعاً قِبْلَ تعدد الشعراء في دلالة صيغة التفضيل على فضل كل منهم ، وتعدد جهات التقدم في الشعر مُؤْذِنٌ بإطلاق الحكم على أكثر من شاعر . وهي صيغة لا تمنع التعدد بإطلاقها لأنها تدل على طبقات متعددة من الشعراء تبلغ هذه الرتبة وأخواتها . فدل النقل على تقدم شعراء هذيل إجمالاً لحمل راية الشعر العربي والسير في مقدمة شعراء القبائل ، وحمل راية شعراء القبيلة أبو ذؤيب الهذيلي .

وفي قوله : (يقال) إيهام تضييف الخبر ، وهو غير مقصود ؛ لأن مراده التخفف من الإسناد لشهرة القول بشهرة رواته عن أبي عمرو بن العلاء (- ١٥٤ هـ) .

فهذا أصل تقديم شعراء هذيل على سائر شعراء القبائل ، وأصل تقديم شعر أبي ذؤيب على سائر أشعار هذيل .

ما تقدم يتبيّن قدُّم تقديم هذيل على غيرها من القبائل في الشعر طوراً من الزمان ، وتقدم أبي ذؤيب على شعرائها في جزء من ذلك الوقت أو في الوقت كله ، وتقدم الشاعر لا يمنع مِن تقدم غيره إلى مجاراته في الطاقة الشعرية والقوة المؤثرة في متلقي أشعار أولئك الشعراء ، ولو كانت أسباب تقديم كل منهم مختلفة عن أسباب تقديم الآخرين . ووُجِد الشاعالي في رأي المتقدمين الذين يعلمون أشعار القبائل ، وأشعار هذيل وأشعار أبي ذؤيب أساساً يبني عليه حكماً جديداً لا يهدِم آراء العلماء قبله بل يبني عليها بناء جديداً ، فماذا قال ؟

وفي بيان مصدر الابتداع تجده يقوم على تذوق أشعار أبي ذؤيب ، وتحليلها ، وتفسيرها ، ومراقبة خطوط الالقاء فيما بينها وعلو بعضها على بعض ، وتقدم بعضها على بعض ، فأردد تلك القاعدة التي ورثها بما رآه

<sup>(١)</sup> الجوهرة في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة ، محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنباري التلمساني ، نفحها وعلق عليها : د. محمد التونجي ، الرياض - دار الرفاعي ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م : ٢٤٣ / ١

بقوله في الخبر السابق نفسه : (وأبا ذؤيب أشعر هذيل ، وأمير شعره وغرة كلامه قصيده في الرثاء التي أولها :

**أَمِنَ الْمُنَوْنَ وَرِيهَا تَوْجَعُ وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَّنْ يَحْزَعُ**

وأعمري بوتها قوله :

**وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَهَا إِذَا تَرَدَّدَ إِلَى قَلْبِهَا**

وكان يقول الأصمسي : هو أربع بيت للعرب.

وأحسن ما في القصيدة قوله :

**وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أَرِيهَا مَنْ أَنْصَعَضَ عَنِ الْدَّهْرِ لَا أَنْصَعَضَ عَنِ الْأَنْبَابِ**

**فَإِذَا الْمِنَيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا**

فأضاف أحكماته الثلاثة الآية :

١ - أمير شعره وغرة كلامه مرثية أبنائه

٢ - أعمري بوتها قوله : (والنفس راغبة) وهو البيت الثالث عشر في القصيدة. وجعل ذلك مرادفاً لقول الأصمسي : (أربع بيت قالته العرب)

٣ - وأحسن ما في القصيدة (وتجليدي...)البيت الثاني عشر ، (إذا المنية...)البيت التاسع.

لعل الشعالي وقف على ترتيب آخر لأبيات القصيدة لم يصل إلينا مصدره ، لأنه عيّن الأبيات بغير ترتيب المفضل الضبي لها ، وربما كان الترتيب واحداً فغلب بعض الأبيات بعضاً في ترتيب الاحتجاج ، وغلبة تلك الأبيات في قوة حجتها لديه.

مهما يكن من أمر فإن القصيدة حظيت بحكم مؤكّد بصيغتين : إحداهما : أمير شعره مرثية أبنائه. والأخرى في قوله : (غرة كلامه) ففي إمارة الشعر إشارة إلى علو تلك القصيدة علو أمير القبيلة على أبنائها ، وهو واحد منهم ، أو أمير الجيش الذي يعلو جنده وهو واحد منهم ، فعلا كل بمحكمته ، واتزان شخصيته ، ومحافظتها على وقع يطرب له الجميع من جنسه. فالمرثية هي من جنس قصائده الأخرى لكنها متقدمة عليها في كليتها ، فاستعار لها الغرة من الفرس في إشارة إلى تقدمها ، والتقدم من آيات الفروسية ، كما أن الإمارة من آيات العلو والسيادة ، والغرة بياضها تدعوا إلى التفاؤل بانفتاح بوابة جديدة للشعر تنهض به على قدم آلتة القديمة(الموسيقى والإيقاع).

وفي كلامه أن أعمري بوتها قوله : (والنفس راغبة...)البيت الثالث عشر في القصيدة ، ومراده بقوله : أعمريها بالمعاني الشعرية ، لتجريد النفس منه ، وجعلها شخصية طفل تطمع إذا رغبتها ، وتكتف من جموحها إذا وجهتها للرضوان بالقليل ، وهي حكمة مشتقة من واقع النفس الإنسانية ، وهو سر من أسرار خلود الشعر ، وهو بهذا

يكشف عن المراد بقول عموم النقاد القدامى (بيت القصيدة) بذلك قوله في موضع آخر: ((وبيت القصيدة وكان الأصمعي يقول: هو أربع بيت، قالته العرب:

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَهَا      وَإِذَا تَرَدَ إِلَيْنَا قَلِيلٌ تَقْنَعُ

ومن غرر هذه القصيدة قوله:

وَإِذَا اتَّهَى أَنْشَأَتْ بَتْ أَظْفَارَهَا      الْفَيْتَ كَلْ تَمِيمَةٌ لَا تَقْنَعُ<sup>(١)</sup>

فهذا يجعل معنى بيت القصيدة (أعمـر بيوتها) بالسكان ما يؤمن إلى كثافة المعاني الشعرية، وبلغـ هذا المستوى من الكثافة ما لم تبلغـ الآيات الأخرى. وأوضحـ معنى آخر بكلـام الأصـمعي الذي ذـكر براـعةـ الـبيـتـ، فـدلـ علىـ فـضـاءـ منـ فـضـاءـاتـهاـ فقدـ جاءـ فـضـاءـ (برـعـ) فيـ قولـ ابنـ منـظـورـ المـصـرىـ: ((برـعـ: بـرعـ بـرعـ بـروعـاـ وـبـراـعـةـ وـبـرعـ، فـهـوـ بـارـعـ: تـمـ فيـ كـلـ فـضـيـلـةـ وـجـمـالـ وـفـاقـ أـصـحـابـهـ فيـ الـعـلـمـ وـغـيـرـهـ، وـقـدـ تـوـصـفـ بـهـ الـمـرـأـةـ. وـالـبـارـعـ: الـذـي فـاقـ أـصـحـابـهـ فـيـ السـؤـدـدـ. ابنـ الـأـعـرـابـيـ: الـبـرـيـعـةـ الـمـرـأـةـ الـفـائـقـةـ بـالـجـمـالـ وـالـعـقـلـ، قـالـ: وـيـقـالـ بـرعـهـ وـفـرعـهـ إـذـا عـلـاهـ وـفـاقـهـ، وـكـلـ مـُشـرـفـ بـارـعـ وـفـارـعـ.))<sup>(٢)</sup>

فالبراـعةـ فيـ الـبـيـتـ الشـعـرـيـ بلـوغـ التـمـامـ فيـ كـلـ فـضـيـلـةـ شـعـرـيـةـ، وـتـفـوقـ الشـاعـرـ عـلـىـ أـقـرـانـهـ فيـ عـلـومـ الشـعـرـ، وـجـمـالـ عـرـضـ الـمـعـانـيـ فيـ الـأـبـنـيـةـ الـلـغـوـيـةـ وـالـشـعـرـيـةـ عـرـوضـاـ (موـسـيقـىـ) وـقـافـيـةـ (إـيقـاعـاـ) وـالـأـبـنـيـةـ الـنـفـسـيـةـ عـقـلاـ وـحـكـمـةـ، وـأـغـلـبـ ذـلـكـ مـلـمـوحـ فيـ الـبـيـتـ المـذـكـورـ. فـكـأنـ هـذـاـ الـبـيـتـ أـمـيرـ الـقـصـيـدـةـ أـخـذـ مـنـ مـزـايـاـهـ أـبـيـاتـ كـثـيرـةـ وـلـعـلهـ اـجـتـمـعـ لـهـ مـزـايـاـهـ تـلـكـ أـبـيـاتـ فـكـأـنـهـ أـخـذـ مـنـهـ، وـكـأـنـهـ أـخـذـ مـنـ مـجـمـوعـهـ كـمـاـ اـجـتـمـعـ فـيـهـ وـلـهـ؛ لـأـنـ الـبـيـتـ الـذـيـ يـلـيـهـ (وـإـذـاـ الـمـنـيـةـ أـنـشـبـتـ أـظـفـارـهـ..) أـسـمـاهـ غـرـةـ الـقـصـيـدـةـ، فـدـلـ بـذـلـكـ عـلـىـ أـنـ مـصـطـلـحـ أـمـيرـ شـعـرـهـ وـغـرـةـ كـلـامـهـ يـقـعـانـ مـرـةـ عـلـىـ الـقـصـيـدـةـ وـأـخـرـىـ عـلـىـ الـبـيـتـ فـيـهـ.. حـمـلاـ عـلـىـ اـنـتـقـالـ الـحـكـمـ مـنـ الـقـبـائـلـ إـلـىـ الـقـبـيـلـةـ، فـاـنـتـقـلـ الـحـكـمـ مـنـ أـشـعـارـ أـبـيـ ذـؤـبـ إـلـىـ مـرـثـيـةـ، وـمـنـ الـمـرـثـيـةـ إـلـىـ أـبـيـاتـ مـعـيـنـةـ فـيـهـاـ أـضـافـتـ مـزـايـاـهـ فـيـ الـخـيـرـ وـالـمـلـاـكـ وـالـجـنـ وـالـمـلـائـكـةـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ أـبـيـاتـ الـقـصـيـدـةـ الـمـتـقـدـمـةـ عـلـىـ شـعـرـهـ كـلـهـ فـتـفـرـقـ الـخـيـرـ فـيـ الـقـصـائـدـ وـاجـتـمـعـ فـيـ الـمـرـثـيـةـ، كـمـاـ تـفـرـقـ الـخـيـرـ فـيـ أـبـيـاتـهـ، وـاجـتـمـعـ فـيـ أـبـيـاتـ مـحـدـدـةـ مـنـهـاـ.

وهـذاـ نـظـامـ مـنـ أـنـظـمـةـ الـنـقـدـ مـفـادـةـ إـلـفـادـةـ مـنـ هـيـكـلـ الـحـكـمـ الـنـقـديـ وـالـانتـقـالـ بـهـ مـنـ الـكـلـيـاتـ إـلـىـ الـجـزـئـيـاتـ فـيـ

<sup>(١)</sup> بـابـ الـآـدـابـ، : (أـبـوـ ذـؤـبـ الـهـذـلـيـ)

<sup>(٢)</sup> لـسانـ الـعـربـ، لـابـنـ مـنـظـورـ الـمـصـرىـ (٦٣٠ـ ٦٧١١ـ هـ) نـسـقـهـ وـعـلـقـ عـلـيـهـ: عـلـيـ شـيـرـيـ، بـيـرـوـتـ دـارـ إـحـيـاءـ الـرـثـاـتـ الـعـرـبـيـ، طـ ١ـ، ١٤٠٨ـ هـ - ١٩٨٨ـ مـ: ١ـ / ٣٨٠ـ (برـعـ)

خطى تحفظ نظام موازنة الشعر بالشعر والحال الحضارية الموحدة أو المتعددة كما تبين من البحث.

### صدى نقد الشعالي:

بيان رتبة ما قدمه الشعالي لابد من مراقبة أثر نقاده عند معاصر له توفي بعده، ألا وهو محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني (٣٩٠ - ٤٦٠ هـ) إذ يقول :

(وَأَمَا أَبُو ذُؤِيبٍ فَشَدِيدُ أَسْرِ الشِّعْرِ، أَمِيرُ الشِّعْرِ حَكِيمٌ، شَغَلَهُ فِيهِ التَّجْرِيبُ حَدِيثَهُ وَقَدِيمَهُ؛ وَلِهِ الْمَرِثَةُ النَّقِيَّةُ السَّبِكُ، الْمَتِينَةُ الْحَبَكُ؛ بَكَى فِيهَا بَنِيهِ السَّبْعَةَ، فَقَالَ، وَوَصَفَ الْحَمَارَ فَأَطَالَ، وَهِيَ الْتِي أَوْلَاهَا: أَمِنَ الْمَنَوْنِ وَرَبِّهَا تَوْجِعَ<sup>(١)</sup>)

ففي كلامه أن شعر أبي ذؤيب شديد الأسر(الجاذبية)، وهو أمير الشعر يأمره فيجيب طوعاً، وهو مشغول بالتجريب، وله المرثية النقية السبك، المتينة الحبك، بكى فيها بنيه السبعة فأطال، وعینها بشرط بيتها الأول.

أما شدة أسر الشعر فمستعار من قول يونس بن حبيب : ((كان عبد الله بن قيس الرقيات أشد قريش أسر شعر في الإسلام بعد ابن الزبعري...))<sup>(٢)</sup> فأسر الشعر وشذته تعبر عن قوته الجاذبة لمتلقيه، وهو حكم عام يقيد برهانه في المرثية(أمن المنون)

وأما قوله (أمير الشعر حكيمه) فمأخذ من الشعالي، لأنه جعل المرثية أمير شعره، فنقل ابن شرف إمارة القصيدة إلى الشاعر، وجعلها تعم شعره كله، فخلص بها من الخاص إلى العام، وقوله حكيمه يراد به ما يقع من كلامه موقع الأمثال كقوله : (والنفس راغبة..)

وأما تجريب أبي ذؤيب فكانه يومئ إلى تهذيب لفظه ومعانيه، ومواودة النظر في القصيدة مرة بعد مرة يحذف ويصطفى، ويزيد ويقتفي، وهذه الفكرة لابن شرف لم يسبق إليها في إدراك مذهب أبي ذؤيب في إبداعه الشعري.

وأما كلامه في المرثية(وله المرثية النقية السبك، المتينة الحبك؛ بكى فيها بنيه السبعة، ووصف الحمار فطولُه، وهي التي أولها: أَمِنَ الْمَنَوْنِ وَرَبِّهَا تَوْجِعَ) فإياضح ل الكلام الشعالي ، وتركيز لفهم القصيدة بإبراز مزاياها التي

<sup>(١)</sup> اعلام الكلام ، تصنيف أبي عبيد الله محمد بن شرف القيرواني ، منقول بإذن خاص عن الأصل المحفوظ بدار كتب سعادة أحمد بك طلعت ، عني بتصحيحه وضبط ألفاظه عبد العزيز أمين الحافظي ، القاهرة- مطبعة النهضة ، ط١ ، ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م.

<sup>(٢)</sup> طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحـي (- ٢٢١ هـ) قرأه وشرحـه محمود محمد شاكر ، القاهرة- مطبعة المدنـي ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م : ٦٤٨ / ٢

قدمتها على شعر أبي ذؤيب، وكانت سبباً في بيان تفوق أبي ذؤيب على شعراء هذيل، فجعل لها نقاء السبك فجعلها كالذهب المسبوك على نقاء في النوع، وصفاء في شفافية السبك عن معانيه التي تسكن مبانيه، وجعلها كقطعة قماش أحكم حبكتها في إشارة إلى ارتباط أجزائها بغضها، وقوية رصفها، ومتانتها في مقاومة عامل الزمن وتغييره من جيل إلى جيل مما يجعل متانتها تصور قدرتها على احتمال الموازنة والحفاظ على الحسن والجاذبية معاً عند موازنتها ببنات فنها من مراثي العرب، وذكر أنه أطال في وصف الحمار الوحشي وقضيته مع كلاب الصيد في بوابة العزاء على نحو يجعله يسلو مصابه في تأمل مصير الأحياء من الحيوان والإنسان من ذوي السلاح والمخالب، والحيوان والفرسان من البشر الذين يصدرون الموت لغيرهم يجدون الموت متربصاً بهم.

ما تقدم يتبيّن قيمة خطوات الشاعري في نقد شعر أبي ذؤيب، في اقتباسه من نار مقدميّه النّقدية، وإضافتهُ أنواراً إضافية، واحتفاء من جاء بعده برؤاه، وإضافتهم إلى ما قدمه، على نحوٍ متراكّم هو قليلٌ فوق قليلٍ لكنه مستمر في حركة النص النّقدي الإبداعي بين الأجيال.



### الورقة :

- الإعجاز والإيجاز، لأبي منصور التعاليبي، بيروت - دار الرائد العربي ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
- إعلام الكلام، تصنيف أبي عبيد الله محمد بن شرف القيرواني، منقول بإذن خاص عن الأصل المحفوظ بدار كتب سعادة أحمد بك طلعت، عنني بتصحيحه وضبط ألفاظه عبد العزيز أمين الخانجي ، القاهرة - مطبعة النهضة ، ط ١ ، ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م
- الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين ، بيروت - دار إحياء التراث العربي [طبعه مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، د.ت]
- الجوهرة في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة ، محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصارى التلمسانى ، نقحها وعلق عليها : د.محمد التونجى ، الرياض - دار الرفاعى ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
- أبو ذئب الهدلي حياته وشعره ، الرياض - عمادة شؤون المكتبات -جامعة الرياض ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
- سؤالات أبي حاتم السجستاني للأصمسي ورده عليه فحولة الشعراء ، تحقيق د.محمد عودة سلامه أبو جري ، القاهرة - مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م
- شرح أشعار الهدليين ، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، روایة أبي الحسن علي بن عيسى بن علي التحوي ، عن أبي بكر أحمد بن محمد الحلواني ، عن السكري ، حققه : عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة - مكتبة دار العروبة ، [د.ت]
- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحى (- ٢٣١ هـ) قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ، القاهرة - مطبعة المدنى ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م
- باب الآداب
- لسان العرب ، لابن منظور المصري (٦٣٠ - ٧١١ هـ) نسقه وعلق عليه : علي شيري ، بيروت - دار إحياء التراث العربي ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- المفضليات ، اختيار الفضل الضبي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، وعبدالسلام محمد هارون ، القاهرة - دار المعارف بمصر ، ط ٤ ، ١٩٧٦ م

# **محور النحو**



# نظارات في قراءة شوفي ضيف بعض آراء ابن مضاء القرطي النحوية

إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة  
لاستغناء الفعل بمادته عن فاعله مثلاً

د. عبد الناصر إسماعيل عساف\*

**المُلْخَّصُ:**

تناولَ هذا البحثُ القراءةَ التي قرأَ بها د. شوفي ضيف قولَ ابن مضاءِ في كتابه (الرُّدُّ على النحَاة) بإنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة بعد الفعل؛ لاستغناءِ ذاك الفعل بما دَّتَه في تلك الحال عن فاعله، مثلاً على قراءته آراءَ ابن مضاءِ عامةً.

نظرَ في تلك القراءة حيث كانت في كتبه التي كان لها صلةٌ بال نحو وتجديده وتسويقه وتاريخه، وتوقفَ في ذلك أكثر ما توقفَ عند آخر كتبه (تسيسيرات لغوية)، ورصدَ الدائرة التي تحركت فيها تلك القراءةُ بين صيانته النصَّ وتحريف التفسير والرؤى واختلاف التلقّي والأثر، معتمداً على منهج وصفيٍّ سرَّت فيه خيوطٌ من نقد وتحليل هنا وهناك، وختَّمَ بعضَ ما لاح له فيها من نتائج.

وكان مما انتهى إليه البحث : أنّ لرأي ابن مضاء ذاك أثراً عميقاً في فكر د. ضيف وتصوره النحويّ ؛ إذ نمذجهُ واتّخذه مفتاحاً يحلّ به مشاكل القول بمحذف الفاعل أو غيابه كلّما صادفه فعلٌ خفيٌّ فاعله ؛ وأنّ قراءة ذلك الرأي في كتب د. ضيف في بعض جزئياتها ومتعلقاتها لم تكن على حال ثابتة، بل كانت متفاوتة متغيرة تحركها صيرورة دالّة على تطور رأي د. شوقي ضيف أو فكره النحوي بين حين وآخر ؛ وأنّه كان على صلة بهما نتيجةً أو سبباً اختلاف تلقّي ذلك الرأي وأثره في كتب د. ضيف، وتقلّبه رفضاً وقبولاً، أو في الدرجة والصفة، من حال إلى حال في حركة دائرية ؛ وسريان بعض مظاهر التحكّم والتخيّز والهوى، من تحريف وتحميّة واجتزاء مثلاً، وظلال ثنائية الرضا والسخط، في بعض كلام د. ضيف هنا وهناك ؛ واختلاقِ أو توليد ما لا عهد للناس به من آراءٍ أو توجيهات جديدة .

#### - مقدمة :

كان النحوُ بعضَ ما اشتغلَ به ابنُ مضاء القرطبيّ، أبو العباس أو أبو جعفرٍ أحمدُ بن عبد الرحمن بن محمدّ بن سعيد اللخميّ (١٣٥٩ـ ٥٩٢ هـ). وكان - كما ذكر بعضُ مترجميه - إماماً في علم العربية مقدّماً، بصيراً بالنحو، ممتازاً<sup>(٢)</sup> فيه، مجتهداً في أحكام العربية، منفرداً فيها بآراءٍ ومذاهبٍ شذّ بها عن مأولف أهلها. وقد ألفَ فيها ثلاثة كتبٍ : (تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان) الذي رد عليه ابنُ خروف، وناقضه بكتابه (تنزيه أئمّة النحو عما نسب إليهم من الخطأ والسلبو)؛ و(المشرق) الذي ترددت بعضُ آراء ابن مضاء فيه في بعض كتب خالفيه دالّة على أنه وكتاب (الرد على النحاة) التالي كتابان مختلفان لا كتاب واحد، كما قال بعض المحدثين<sup>(٣)</sup> ؛ و(الرد على النحاة) الذي انتهى إلينا من تلك الكتب، وحقّقه المحدثون ونشروه غير مرّة.

( )

:

/

/

/

/

/

"

"

/

/

( )

( )

( ) : / / .

## – آراء ابن مضاء في كتب د. ضيف:

لم تحظَ آراءُ ابن مضاء النحويةُ التي صدر فيها عن جرأة وإقدام، ومنها آراءُه في كتابه (الرد على النحاة) التي قامت على نقض فكرة العامل النحوي بمفهومه المتعارف عند النحويين، وما يتعلّق بها من تأويلٍ وتقديرِ العوامل والمعمولات، والعلل الثنائي والثالث، والقياس التفسيري أو التعليلي (المنطقى)، والتمارين غير العملية = في زمن ابن مضاء أو زمن خالقه بما حظيت به من اهتمام واحتفاء في زماننا، ولا كُتب لها في ذلك العصر من الديوع والاشتهر ما كُتب لها في هذا العصر، فقد عُني بها العلماء والباحثون المُحدثون، ولا سيّما من كانت له صلة بتسهير النحو وتعليميه وتجديده، كبيرٌ عنایة، وكان أعناهم بها د. شوقي ضيف.

ود. شوقي ضيف (١٩١٠ – ٢٠٠٥ م) – رحمه الله – أولُ من بعث آراء ابن مضاء، ونشرها بين المعاصرين، إذ نشرَ كتابه (الرد على النحاة) سنة ١٩٤٧ ، واحتفى بها في مدخله إليه، وأكثرُ من أفاد في المعاصرين من آراء ابن مضاء وأصوله ، واعتمد عليها ، ووظّفها في كتبه وأبحاثه التي عقدتها لتسهير تعليم النحو وتجديده ، وتاريخ النحو العربي : المدخل إلى كتاب (الرد على النحاة) ، و(المدارس النحوية) ، و(تجديد النحو) ، و(تسهير النحو التعليمي قديماً وحديثاً ، مع نهج تجديده) ، و(تسهيرات لغوية).

وآراءُ ابن مضاء التي عُني بها د. ضيف في تلك الكتب، ورددَها فيها، وأفاد منها أو تبنّاها وعوّل عليها، لم تخرج – كما يدلُّ الفحص والتبيّع – عن دائرة الآراء التي احتواها كتاب ابن مضاء (الرد على النحاة) ؛ إلّا رأياً وافق فيه ابنُ مضاء بعضَ العلماء، عُدّت فيه "لا سيّما" أداةَ استثناء، ذكره د. ضيف في بعض كلامه<sup>(١)</sup> في توجيهه نصب الاسم بعدها على الاستثناء، ونقله من كتاب (الجمع)<sup>(٢)</sup>.

وكان لآراء ابن مضاء في كتابه (الرد على النحاة) أثرٌ بنويٌّ عميقٌ في فكر د. ضيف النحوية، ومشروعه في تسهير النحو التعليمي وتجديده، فقد كان نشرُ الكتاب سنة ١٩٤٧ كما صرّح في مقدمة كتابه (تجديد النحو) : "باعثًا له منذ تحقيقه على التفكير في تجديد النحو بعرضه عرضاً حديثاً على أسس قوية تصفيه وتروّقه وتجعله دانِيَ القطوف للنائمة"<sup>(٣)</sup> ، وبجوانبٍ من أصوله وآرائه استضاء في الأساس الثاني من الأساسين التي أقام عليها تصنيفه الجديد للنحو<sup>(٤)</sup> ، وبرأيه أخذ في بعض المسائل والأبواب<sup>(٥)</sup> ..

على أن علاقة د. ضيف بآراء ابن مضاء – كما يدل النظر والتحليل – كانت انتقائيةً، فيها قدر من التحكم والذاتية، اختار من تلك الآراء ما يخدم مشروعه في تجديد النحو وتسخير تعليمه، واهتم بما يناسب الأصول العامة لابن مضاء، وترك منها بعض الآراء الجزئية أو التفصيلية التي تخلخل حكمه أو تصوره العام الذي بناه عن ابن مضاء وفكرة النحوي، أو تفسدُ الرأي الذي يدل عليه بعض كلام ابن مضاء دون بعض، أو تدسّ باخره خيطاً من الاضطراب والتناقض في كلام ابن مضاء بين الرأي والتطبيق.

وإذا كان كلام د. ضيف في كتبه يدل على استقبال حفي بعض تلك الآراء، وكبير تأثر، فإن في قراءته هنا وهناك ما يدل على إعادة إنتاج بعض تلك الآراء تفسيراً وتطبيقاً، فيها ما حفظ للرأي أصله، وفيها ما أفسده وأهدره.

وهذا البحث يقتصر على النظر في قراءة د. ضيف لرأي من تلك الآراء، قال به ابن مضاء في كتابه (الردد على النحاة)، وردده د. ضيف في أكثر كتبه الخمسة، وقرأه قراءة تنظير وتفسير وتطبيق أعادت إنتاجه، وهو إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة الواقعه فاعلاً لاستغناء الفعل ب Maddatه عن ذاك الفاعل غير الظاهر.

### - رأي ابن مضاء في كلام د. ضيف:

ذكر د. ضيف فيما ذكر من آراء ابن مضاء رأيه في إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة جوازاً أو وجوباً في مثل: "زيد قام" و"أقوم، نقوم، تقوم"؛ لأن الفعل لا يشتمل على ضمير مستتر، بل يدل على الفاعل بمادته، كما يدل اسم الفاعل وما إليه على مرفوعه بمادته في مثل: "زيد قائم". وبين د. ضيف في بعض كلامه<sup>(١)</sup> أن ذلك كان بعض اختيار ابن مضاء واستدلاله لبيان نقض فكرة المعمولات المذوقة.

ونسب إليه في سياق ذلك أنه ألغى ضمائر الرفع البارزة المتصلة: ألف الاثنين وواو الجماعة ونون الإناث في مثل: "قاما، قاموا، قمن" ، وأنه أخذ بالرأي الذي يُعد هذه الضمائر إشارات أو علامات للعدد كما قال المازني، لا ضمائر ولا فواعل كما زعم النحاة<sup>(٢)</sup>.

وزاد في بعض كلامه التاء المتحركة المختصة بالماضي، إذ قال في أثناء عرض مقترنات لجنة وزارة المعارف المصرية لتبسيط قواعد النحو والصرف وتسخيرها على الناشئة: وبكل ذلك أخذت اللجنة، وزادت عليه - أي على ابن مضاء - ضمائر الرفع البارزة المختصة بالماضي في مثل: "قمت - قمت - قمت". وهي زيادة مفهومة من كلام ابن مضاء، واللجنة بذلك تلتقي به في هذه الفكرة تقائماً<sup>(٣)</sup>.

### - رأي ابن مضاء بين صيانة النص وتحريف القراءة واختلاف التلقي والأثر:

يدلّنا النظرُ في كلام د. ضيف على هذا الرأي نظرةً فاحصة في ضوء كلام ابن مضاء في كتابه (الرد على النحاة)، وعارضته في الكتب الخمسة بعضه بعض؛ على كلام يتردد فيه شيء من صيانة النص، وشيء من تحريف القراءة، وشيء آخر من اختلاف التلقي والأثر.

#### • صيانة النص :

كان الأول (صيانة النص) في وصف د. ضيف رأي ابن مضاء في تقدير ضمائر الرفع المستتره وصفاً وافق كلام ابن مضاء في كتابه (الرد على النحاة)، وتعبيره عنه تعبيراً لم مختلف عما بدا عليه في كلامه في ذلك الكتاب إلّا في بعض اللفظ. وكلام ابن مضاء في التعبير عن رأيه في هذه الفكرة كان من الوضوح والتصريح بحيث يمتنع اللبس في فهم مقصوده، ويندفع الخطأ في قراءة ذلك الرأي أو استنتاجه.

#### • تحريف القراءة :

وكان الآخر (تحريف القراءة) فيما أصاب كلام د. ضيف حين نسبَ إلى ابن مضاء القولَ بإلغاء ضمائر الرفع المتصلة (الواو، الألف، النون، التاء) من خطأ في الاستنتاج، وزيادة على المحتمل احتمالاً في كلام ابن مضاء، وهو ما لا تردد في وصفه بالتحريف.

وآية ذلك أنَّ د. ضيف نسبَ إلى ابن مضاء القولَ بإلغاء ضمائر الرفع المتصلة البارزة الدالة على العدد في مثل : "قاموا، قاما، قمن" حيث ذكر ذلك في كتبه، نسبةً قاطعةً لا تردد فيها، في حين كان كلام ابن مضاء على ذلك مسوقاً على وجهٍ من الاحتمال ليس في الكلام ما يرقى به إلى درجة الرجحان، بل إنَّ إنعام النظر في ذلك الكلام بسياقه وقرائته اللغظية، وترتيبه على منازله تقديمًا وتأخيرًا؛ يدلُّ القارئ على أنه وجه مرجوح .

وقولُ د. ضيف في بعض كلامه بإلغاء ابن مضاء ضمير التاء المتحركة في مثل : "قمتُ - قمتَ - قمتِ" ، وجعلها حرف إشارة، وأنَّ ذلك مفهوم من كلام ابن مضاء = اختلافُ ليس في كلام ابن مضاء ما يشعر به البة، بل إنَّ كلامه على تلك التاء حيث تناول مسألة إلغاء تقدير الضمائر المستتره دالٌّ على أنَّ تلك التاء المتحركة ضميرٌ معادٌ لا حرف إشارة.

وإذا شئت أن تعرف ذلك بنفسك فاقرأ كلام ابن مضاء في هذين الأمرين قراءة مدقة .

قال : "إذا قيل (زيد قام) ودلَّ لفظ (قام) على الفاعل دلالةً قَصْدٍ فلا يحتاج إلى أن يضمِّر شيء، لأنَّه زيادة لافائدة فيها، كما كان ذلك في اسم الفاعل، .. وهنا احتمالان : أحدهما أنَّ في نفسِ المتكلِّم ضميراً كما في قولنا : (زيداً ضربته) لكنَّه لم يُدلَّ عليه بلفظ ، لعلم المخاطب به ؛ والدليل على ذلك قولهم في

الثنية : (قاما و يقومان) وفي الجمع (قاموا ويقومون) فهذه ضمائر دلّ عليها بالفاظ. والثاني : أن تكون هذه الألف والواو علامتين للثنية والجمع ، كما قيل (أكلوني البراغيث) جعلهما بعضُ العرب مع التقديم والتأخير ، وجعلهما أكثرُهم مع تأخير الفعل عن الفاعل ، .... فإن قيل : فما تصنع بقولهم (أنت قمت وأنا قمت) لم يغّنِهم تقديمُ الفاعل عن إعادته أخيراً؟ قيل : هذا دليلٌ ، ولكن قياس الغائب على المخاطب والمتكلّم ليس بقطعيٍّ ، ولعله يكتفى في الغائب بالظاهر المتقدّم ولا يكتفى به في غيره<sup>(١)</sup> ..

وفي كلام ابن مضاء على إنكار تقدير الضمائر المستترة في المستقات ما يقطع أنَّ ألف الثنية وواو الجمع ونون الإناث عنده ضمائر. انكر الاستدلال لقول النحاة برفع المستقات ضمائر مستتر ؛ بظهور ضمير الرفع عند العطف توكيداً لذلك الضمير في قولنا : زيد ضارب هو وبكر عمرأ ؟ لأنَّ هذا يكون في حال العطف لا غير ، ولا تكون حال العطف على قلتها أصلاً لغيرها على كثرتها ، فلا يُقاس غيرُ العطف على العطف لذلك. ثم إنَّ قياس غير العطف عليه ظنٌّ ، وكيف يُثبت الظنُّ شيئاً مستغنٍّ عنه لا فائدة للسامع فيه ، ولا داعي للمتكلّم إلى إثباته ، وإثباته عيٌّ

ثم قال : "ويُسقط ظنَّ قياس العطف أنَّ هذه الصفات لم يظهر لها ضمير في الثنية والجمع كما ظهر في الفعل ، فيقابل هذا الظنُّ في الإسقاط ذلك الظنُّ في الإثبات ، فعلى هذا يكون الإثبات لا دليل عليه قطعي ولا ظنيٌّ. وإثباته في كلام الناس بغير دليل قطعي لا يجوز ، فكيف بكتاب الله تعالى ، وادعاء زائد فيه بظن ، والظنُّ ليس بعلم<sup>(٢)</sup> ."

والظاهرُ أنَّ د. ضيف في آخر كتبه (تيسيرات لغوية) رجع عما نسبه إلى ابن مضاء في ذلك رجوعاً لم يصرّح به ، لكن دلّ عليه تقديرهرأيَ ابن مضاء في إنكار تقدير ضمير الرفع المستتر لدلالة الفعل عليه ؛ بالفعل إذا لم يكن معه فاعلٌ ظاهر من اسم أو ضمير. قال : "... لأنَّ ذلك مقيد بأن يكون الماضي للمفرد الغائب أو الغائبة ، وليس معه اسم ظاهر فاعلٌ" ، أمّا حين يكون الفاعل ضميراً أو اسمًا ظاهراً مع "قام" في مثل : "قام زيد - قاما - قاموا - قام الريدون" ، فإنَّ الفعل حينئذ يليه فاعلٌ كما يلي المضارع والأمر الفاعل ضميراً أو اسمًا ظاهراً في مثل : "يقومان - .... قُمن" فكلَّ هذه فواعلٌ تلي الفعل ...."<sup>(٣)</sup> .

على أنَّ ثمة تحريفاً آخر دبَّ في أوصال بعض كلام د. ضيف : أراد أن يزين الرأيَ الذي نسبه إلى ابن مضاء متحكّماً ومحرّفاً في أعين القراء ، فزيَّف بعبارته بعضَ الحقائق تزييفاً تخذه مطيةً لرأده ، فتنقص من مذهب الجمهور المخالف لذلك الرأي ، حين عزاه إلى "بعض النحاة" ، فقال : "ونرى ابن مضاء ينتهي في أثناء

تفكيره في هذه المسألة إلى أنّ ضمائر الثنوية والجمع في مثل (قاما وقاموا وقمنَ) ليست ضمائر كما يزعم بعض النحاة، بل هي علامات تدلّ على الثنوية والجمع<sup>(١)</sup>.

وهذه دسيسة تقتضي بمفهوم المخالفه أنّ الرأي الذي نسبه د. ضيف إلى ابن مضاء من كثرة الأنصار والأعوان، في جنب الرأي المخالف، بمكان عليٍ. وهذا تشويه للحقيقة وعكسٌ للواقع.

ثم ارتقى د. ضيف بلغة (أكلوني البراغيث) مستظهراً بها لهذا الرأي، على قول من يجعل الضمائر فيها حروفاً دالة على العدد ثنوية أو جمعاً، فكانت بمنزلة اللغة العليا، لغة جمهور العرب، جوازاً واستعمالاً، حين أغفل ما ينبغي في وصفها والحكم عليها، من تقيد بالقلة أو الشذوذ، مكتفياً بحكم الجواز، ومتعداً بما وقع لها من شواهد محتملة في القرآن الكريم والحديث الشريف. قال: "... وهذا نفسه ما تصنعته العربية بأدوات الثنوية والجمع إذا كان الفاعل مثنى أو مجموعاً، فإنه إذا تأخر الفاعل<sup>(٢)</sup> جاز لك أن تذكر هذه العلامات، وهي لغة طبيعية، وبلحارث بن كعب، وأخذ شنوعة، ويسمّيها النحاة لغة (أكلوني البراغيث)، وقد جاءت أمثلة لها في القرآن الكريم والحديث الشريف. ويجوز لك أن تمحّف هذه العلامات، وهي لغة جمهور العرب.<sup>(٣)</sup>".

ولو كسر د. ضيف حدة حماسته وانتصاره لابن مضاء لرجع عن ذلك، ولقال بما نصّ عليه في كتابه (تجديد النحو)<sup>(٤)</sup>: أنّ هذه اللغة شاذةٌ، تخرج على قواعد النحو، وينبغي إهمالها.

## • اختلاف التلقّي والأثر:

تجلى ذلك في موقف د. ضيف المتعدد المتقلب من إلغاء ضمائر الرفع المستترة والمتعلقة البارزة. فلو كان لك أن ترصد موقف د. ضيف في كتبه الخمسة من رأي ابن مضاء الداعي إلى إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة خاصةً، وأن تستبين تلقّي ذلك الرأي في تلك الكتب، وأثره في فكر د. ضيف النحوي ومشروعه في تيسير النحو وتجميده = لبذا لك جلياً أنّ ذلك كان يختلف باختلاف تلك الكتب؛ وأنّ د. ضيف كان ينتقل فيها من حال إلى حال في حركة دائرية يشهد لها، عند ترتيب تلك الكتب ترتيباً زمنياً، التقاء رأيه أو اختياره في أول تلك الكتب: المدخل إلى كتاب (الردد على النحوة) وآخرها (تيسيرات لغوية)، دون سائرها؛ وبذلك انتهى به التقلب في ذلك إلى حيث بدأ، والتقي رأيه واختاره مبدأً ومتتهى.

( )

( )

( )

( )

## • القبول في المدخل إلى (الرد على النحاة) :

احتفي د. ضيف في المدخل إلى كتاب (الرد على النحاة) برأي ابن مضاء في إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة، وزين الرأي الآخر الذي نسبه إليه بشيء من التحريف<sup>(١)</sup> وحين دعا إلى تصنيف النحو تصنيفاً جديداً، وتكلّم على مسألة إلغاء التقدير والتأويل في الصيغ والعبارات، أنكر رأي النحاة في تقدير ضمائر الرفع المستترة جوازاً أو وجوباً، وعد ذلك الاستمار وهما لا دليل عليه، والتقدير فيه ضرباً من التكليف يحيل على ما لا يرى ولا يفهم في الصيغ؛ وتبني رأي ابن مضاء؛ لأنّ الفعل إذا لم يذكر فاعله (حذف أو استتر) دلّ عليه الفعل بمادته. واستحسن هذه الفكرة، ورأى جمالها يبدو أكثر فأكثر في أبواب لا يكاد يتبيّن الإنسان فيها الفاعل كأبواب التعجب، في مثل: "ما أحسن السماء!"، وأفعال الاستثناء: خلا، عدا، حاشا، في مثل: "قام القوم ما خلا زيداً"، ونعم وبئس، والتنازع؛ وعدّ الفاعل فيها مخدوفاً وجوباً.

ومدُّ هذه الفكرة (حذف الفاعل لدلالة الفعل عليه بلفظه أو مادته) كما مدّها د. ضيف، وهو اجتهاد واتساع في التطبيق، يعني عن التأويل والتقدير<sup>(٢)</sup>

## • الوصف والحياء في (المدارس النحوية) :

كان من أمر د. ضيف في كتابه (المدارس النحوية) - وهو كتاب تطغى عليه صبغة تأريخ المذاهب النحوية وترجمة أهم النحوين ورصد حركة النحو العربي في تاريخه المطابول - حين ذكر رأي ابن مضاء، في موضع ترجمته والتعريف بفكرة، أن اكتفى بالوصف المتلطف بالحياد، وبين موقع ذلك الرأي في سياقه التاريخي، بعيداً عن الموقف الذاتي (الرأي أو الاختيار) رفضاً أو قبولاً. فقد ذكر من رأي ابن مضاء إنكار تقدير ضمير رفع مستتر في نحو: "زيد قام"؛ لأنّه فعل لا فاعل له، مبيناً سبق الكسائي في القول بحذف الفاعل في التنازع، واتساع ابن مضاء بذلك - أي حذف الفاعل، أو خلوّ الفعل من الفاعل - هنا، ثمّ نسب إليه نسبة جزم وقطع القول بأنّ الألف والواو والنون في مثل: "قاما، وقاموا، وقمن، ويقومون" ليست ضمائر، بل هي علامات تدلّ على التشنيه والجمع، وأنّه كان في ذلك يسترضيء برأي الأخفش<sup>(٣)</sup>.

## • الرفض التواري بالصمت في (تجديد النحو) :

لاذ د. ضيف بالصمت في كتابه (تجديد النحو)، فلم يذكر رأي ابن مضاء في ذلك تصريحاً أو إشارة، لا في الكتاب، ولا في مدخله.

()

()

()

ولا يبعد أن يكون تجاهل ذلك الرأي، وبعض ما اتصل به، من لدن د. ضيف، دالاً على موقف رافض له. يدفعني إلى ذلك ويدلّني عليه التزام د. ضيف في هذا الكتاب بما جرى عليه جمهور النحاة من تقدير ضمائر الرفع المستتره وجوباً أو جوازاً، وتصنيف ألف الاثنين ووأو الجماعة ونون النسوة في ضمائر الرفع المتصلة<sup>(١)</sup>.

ومما يؤكّد ذلك أنّ ما دعا د. ضيف إلى تطبيق رأي ابن مضاء فيه من نماذج غاب فيها الفاعلُ عن الفعل، وتفسيره في ضوء ذلك، نصّ عليه نصاً في مدخل (الردد على النحاة) أو أشار إليه إشارة = غاب عن كتاب (تجديد النحو) مدخلاً وكتاباً. وهو في ذلك إما أن يكون على خلافٍ بين، وإما أن ينبع على ما كان من حذف الفاعل أو خلوّ الفعل من الفاعل، دون أن يخلع عليه شيئاً من رأي ابن مضاء، ولو قليلاً، إشارة أو تصریحاً.

ترى ذلك في ألفاظ الاستثناء: خلا، عدا، حاشا، التي ترك فيها مذهب الجمهور وابن مضاء معًا، فاقتصر على نصب ما بعدها؛ ولم يُشر إلى جواز الجر إذا تجردت من "ما"؛ وعدّها مع "ما" دونها أدوات استثناء، يُنصب ما بعدها على الاستثناء؛ وانتقد القول بفعالية هذه الألفاظ، وما يتقتضيه من تقدير فاعل مستتر وجوباً؛ لما فيه من إسرافٍ في الإعراب، وخلوّ ذلك الإعراب العسير من معنى الاستثناء نصاً أو إشارة؛ وعد الرأي الذي اقترحه ورأه واضح وأدخل في المنطق، يجتاز به صعوبةً بل لغزاً في باب الاستثناء<sup>(٢)</sup> وتراء في كلامه على فعلي التعجب "ما أفعله ! وأ فعل به !" الذي قدر فيه لل فعل فيهما ضميراً مستتراً تقديره في الأول "هو"، يعود على "ما"؛ وفي الثاني "أنت"<sup>(٣)</sup>.

وتراء في كلامه على نحو "أقبل وتكلّم زيد" الذي يتنازع فيه الفعلان الاسم يطلبانه فاعلاً؛ فقد عدّ الاسم فاعلاً للفعل الثاني، وحكم بحذف فاعل الفعل الأول لدلالة السياق عليه، وهو ما عزاه نصاً إلى سبيوبيه والكسائي<sup>(٤)</sup>.

ذكر ذلك كلّه دون أن يذكر رأي ابن مضاء، ولو إشارة، هنا وهناك. فكأنّه كان بذلك في حال من يرضى اعتزال رأي ابن مضاء في ذلك.

## • الرفض المؤيد بالنقد في (تيسير النحو التعليمي) :

استولى على موقف د. ضيف في كتابه (تيسير النحو التعليمي قدّيماً وحديثاً مع نهج تجديده) الرفض وال النقد. بسطَ القول في إنكار ابن مضاء تقديرِ ضمائر الرفع المستترة، والرأي الذي نسبه إليه من إحالة ألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة حروفٌ عدد أو علاماتٌ عدد، وضمائر الرفع المتصلة البارزة (التايات) حروف إشارة، في غير موضع؛ وبينَ موقع ابن مضاء من الرأي الأخير حين قرر أنه أخذ فيه – كما قال د. ضيف – برأي المازني، كما بين امتداد هذين الرأيين في مقترنات لجنة وزارة المعارف المصرية لتبسيط قواعد النحو وتيسيرها على الناشئة سنة ١٩٣٨، وقرارات مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٤٥؛ ثم أدلى بدلوه، وأعلن موقفه، فانتقد ذلك كله بما فيه من فكرة إلغاء ضمائر الرفع المستترة، وضمائر الرفع المتصلة البارزة؛ لأنّها في رأيه تُحدِّث اضطراباً وخلخلة في باب الفعل والفاعل، لما تُفضي إليه من كون الأفعال قسمين: أفعالاً لها فواعل، وأفعالاً لا فواعل لها، وهو ما يحدث بلبلةً في ذهان الناشئة<sup>(١)</sup>. ومن هنا رأى أن يظل النحو التعليمي على ما هو عليه من اعتداد بضمائر الرفع المستترة، والضمائر المتصلة البارزة، وإعراضها فواعل، كما أعتبرها النحاة، أخذنا بقانون الاطراد في وضع القواعد<sup>(٢)</sup>.

وهذا كما لا يخفى يدل على رؤيةٍ تربويةٍ تعليميةٍ محضةٍ تتأى عن التصور العلمي الموضوعي الدقيق . وكان مما انتصر به د. ضيف لذلك أنَّ ضمائر الرفع المتصلة بالماضي (التايات) عند التأمل مقطعةٌ من الضمائر المنفصلة المقابلة لها "أنت" وفروعه؛ وأنَّ الهمزة والنون والتاء في مضارع المتكلّم والمتكلّمين والمخاطب على التوالٰي تصاهي مثلاً عنها في ضمائر الرفع المنفصلة "أنا، نحن، أنت". وعدَ ذلك كله على التقدير والفرض دليلاً على أنَّ النحاة كانوا في منتهى الدقة حين عدُوا التاء المتحرّكة في مثل "قمت" ضمير رفع متصلًا بارزاً، وحكموا على مضارع المتكلّم بتحمله ضمير رفع مستتر وجوباً<sup>(٣)</sup>.

ويصحُّ الاستدلالُ هنا لموقف د. ضيف الرافض لرأي ابن مضاء بما كان من استدلال في الكلام على موقفه في كتابه (تجديد النحو) : من التزام مذهبِ الجمهور في تقديرِ ضمائر الرفع المستترة، وتصنيفِ ألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة في ضمائر الرفع المتصلة<sup>(٤)</sup>؛ وغيابِ أثر رأي ابن مضاء مثلاً عن الكلام على ألفاظ الاستثناء: خلا، عدا، حاشا، مصدرة بـ "ما" أو مجردة منها<sup>(٥)</sup>، و فعلٍ التعجب: ما أفعله! وأ فعل به<sup>(٦)</sup>!

:

( )  
( )  
( )  
( )  
( )  
( )  
( )

## ٠٠ الاحتفاء والاتساع في التطبيق في (تيسيرات لغوية) :

إذا انتهيتَ إلى كتاب د. ضيف (تيسيرات لغوية) بدا لك فيه يتلقى رأيَ ابنِ مضاءَ في منع تقديرِ ضمائر الرفع المستترة، لتعبيرِ الفعل بمادته عن فاعله الذي يقدرُه النحاة ضميرًا مستترًا، بقبولِ حسن، ويختفي به أكبرُ احتفاء، ويتسعُ في تطبيقاته.

ولقائلٍ أن يقول : ويمثل ذلك تلقى د. ضيف هذا الرأي في المدخل إلى كتاب ابنِ مضاءَ (الرد على النحاة) فهل كان في ذلك ضربٌ مطابقة ؟

وللمدقق أن يُجيب : إنَّ اتفاق الموقف في الموضعين، وما فيه من شبَّهٍ ظاهر، لا يبلغ عند التحقيق مبلغ المطابقة؛ لما بينهما من اختلاف لا يقتصر على الشكل والتعبير: إجمالاً كان في الأول، وتفصيل في الثاني، بل يمتد إلى بنية الاستدلال وقراءة الرأي والاتساع في تطبيقاته. وفي كل ذلك شيءٌ من الاحتفاء وحسن التلقي ومظاهره .

قرأ د. ضيف رأيَ ابنِ مضاءَ في ضوءِ كلامه وأمثاله وأداته كما كانت في كتابه (الرد على النحاة) قراءة أناةٍ ولبَّثَ انتهت به إلى ضبط ذلك الرأي وتقييده. فال فعلان الماضي والمضارع على منذهب ابنِ مضاءَ ما لم يظهر فاعلهمَا يدلُّان بعادتهمَا على ذلك الفاعل الذي يقدرُه النحاة ضميرًا مستترًا جوازًا أو وجوباً .

وقد صرَّح د. ضيف أنَّ ذلك مقيَّد بالفعل إذا لم يلِه فاعلٌ، ضميرٌ أو اسمٌ ظاهر. فكأنَّه كان بذلك، ولاسيما في ضوء الأمثلة التي ساقها في ذلك، يبرأ ممَّا نسبه إلى ابنِ مضاءَ في غير موضعٍ من كلامه من إلغاء ضمائر الرفع البارزة المتصلة؛ لأنَّها إشارات أو علامات للعدد، لا ضمائر ولا فواعل، ويرجع عنه.

قال : أمَّا حين يكون الفاعل ضميرًا أو اسمًا ظاهراً مع قام في مثل : "قام زيد - قاما - قاموا - قام الزيدون" فإنَّ الفعل حينئذ يليه فاعل كما يلي المضارع والأمر الفاعل ضميرًا أو اسمًا ظاهراً في مثل : "يقومان - يقومون - ..." فكلَّ هذه فواعل تلي الفعل<sup>(١)</sup> ..

ورأى خلال ذلك أنَّ يمدَّ رأيَ ابنِ مضاءَ الذي وقف عند الفعلين الماضي والمضارع كما تدلُّ أمثلته، ليشملَ أمرَ المفرد المخاطب. قال : ونستطيع أن نمدَّ رأيه ليشملَ الأمر للمفرد المخاطب في مثل : "اكتُبْ" فهو يدلُّ بصيغته على الفاعل ، بل ربِّما كانت دلالته أقوى ، لأنَّ الفاعل معه في تقدير النحاة ضمير مستتر وجوباً مثل فواعل المضارع حين تكون ضميرًا مستترًا وجوباً ، فإنَّها واجبة الاستثار دائمًا معه.<sup>(٢)</sup>

## • الاستدلال لرأي ابن مضاء:

من مظاهر الاحتفاء برأي ابن مضاء والتلقي التي كان فيها شيء من الاختلاف الاستدلال له تأييداً وانتصاراً. وإذا كان د. ضيف قد وظف لذلك ما أمكن توظيفه من قرائن أو أدلة بدت له في كلام ابن مضاء في المدخل إلى كتاب (الرد على النحاة)<sup>(١)</sup> فإنه ترك ذلك هنا في كتابه (تيسيرات لغوية)، واستدلّ له بما لم يكن في كلام ابن مضاء، وتجلى ذلك في ثلاثة أمور:

١ - الاستدلال بواقع فعلِي الأمر والمضارع اللذين يغيب الفاعل عنهما كلياً في كل حال. فقد عدَ ذلك "من أقوى الأدلة على صحة رأي ابن مضاء، إذ لا يوجد مجال من الأحوال"<sup>(٢)</sup>.

٢ - الاستدلال برأي بعض علماء اللغات المشهورة بـ (الساميات) أن حروف المضارعة : الممزة والنون وفاء المخاطب في مثل : "أكتبُ - نكتبُ - تكتبُ" مقطعة من ضمائر الرفع المنفصلة (أنا - نحن - أنت).

قال : "في هذا دليل قوي على سداد رأي ابن مضاء في أن الفعل المضارع يدل بمادته في الصيغ السابقة على الفاعل ، تماماً مثل "قام" في قوله : "زيد قام"<sup>(٣)</sup> .

وهذا الدليل عند التأمل ذو وجهين ؛ لأنَّه مبني على التقدير والظن ، لا القطع واليقين. فإذا وثبت حروفُ المضارعة تلك بفاعل ذلك الفعل ، فكان الفعل دالاً ببعض مادته على فاعله ، لم يمتنع أن توحى تلك الحروفُ بأنَّ فواعلَ تلك الأفعال ضمائرُ مستترة تدلُّ عليها وتتوح بها .

ومن هنا لم يتتردد د. ضيف في الاتكاء على هذا الدليل في غير هذا الموضع ، لانتقاد رأي ابن مضاء وتأييد رأي النحاة في تقدير ضمائر الرفع المستترة<sup>(٤)</sup> .

وبذلك كان الاستدلال بهذا الرأي هنا كما كان الاتكاء عليه هناك بأخره ضعيفاً لا يرقى إلى درجة القطعيِّ المحكم ، لتمكن الاحتمال والتقدير منه.

٣ - الاستدلال بغياب الفاعل غياباً مطرداً عن الفعل في بعض الصيغ كأفعال الاستثناء وفعلِي التعجب ، وكثير ما ، وقلما ، وطالما ، على صحة رأي ابن مضاء. ففي حين كان يفسر غياب الفاعل عن هذه الأفعال ويسوّجه برأي ابن مضاء باستغناء الفعل عن فاعله لدلالة بمادته عليه كان يعدَّ هذه الصيغ

( ) :

( ) :

( ) :

( ) :

برهاناً قوياً ودليلاً واضحاً على صحة رأي ابن مضاء في دلالة الفعل بعاديته على فاعله، حين لا يلي ذلك الفعل فاعل ضمير أو اسم ظاهر<sup>(١)</sup>.

وبذلك كان د. ضيف يقلب قول ابن مضاء بين الرأي يطلب له الدليل، والدليل يستدل به لغيره. ومن هنا كانت العلاقة بين رأي ابن مضاء وتلك الصيغ كما بدت في كتاب (تيسيرات لغوية) استدلاليّة تبادلية: يستدل برأي ابن مضاء لتفسير غياب الفاعل عن الفعل في تلك الصيغ وتسويفه، وهو الغالب، ويتصدر بغياب الفاعل عن الفعل في تلك الصيغ لذلك الرأي حيناً.

## • صور التطبيق والاتساع في رأي ابن مضاء:

كان تطبيقُ رأي ابن مضاء، وهو أثر من أثر التلقّي العميق، وضربٌ من الاجتهاد في التعبير عن حسن القبول، واستيعاب الفكرة، أوسع ما كان في هذا الكتاب .

جزم د. ضيف بدقة ابن مضاء متهى الدقة فيما قرره من دلالة الفعلين الماضي والمضارع، إذا لم يكن لهما فاعل ظاهر اسم أو ضمير، بعاديتهما على الفاعل المضمر، دون حاجة إلى تقدير ضمائر مستترة؛ ومد ذلك إلى أمر المخاطب، ورأى ذلك قاعدة تخل مشاكل غياب الفاعل في صيغ يطرد فيها ذلك الغياب. ثم أخذ يفسّر في ضوء ذلك غياب الفاعل المطرد عن أفعال الاستثناء و فعلي التعجب : ما أفعّله ! وأفعّل به ! وكثراً وقلماً وطالماً، والفعل الأول في صيغة التنازع، إذا لم يذكر فاعله؛ وغياب الفاعل في بعض آيات القرآن والقراءات القرآنية وحديث النبي ﷺ، وكلام العرب شرعاً ونشرأ .

ثم كانت أوسع خطواته حين توسل بقول ابن مضاء في تفسير غياب نائب الفاعل عن الفعل المبني للمجهول إذا اقتصر على ظرف غير متصرف أو جار و مجرور؛ وقرر أن ذلك الفعل حينئذ يستغني عن نائب الفاعل بعاديته أو صيغته<sup>(٢)</sup>.

وإذا كانت بعض صور التطبيق والاتساع فيه هنا : تفسير غياب الفاعل في بعض آيات القرآن والقراءات القرآنية وحديث النبي ﷺ وكلام العرب شرعاً ونشرأ ، وغياب نائب الفاعل عن الفعل المبني للمجهول إذا اقتصر على ظرف غير متصرف أو جار و مجرور = زيادة محضة على ما كان في المدخل إلى كتاب (الرد على النحاة) لا تجد أثراً لها فيه، فإنَّ الصور الأخرى لم تخلُ من زيادة تفصيل وتفسير واستدلال أو زيادة مفردات وجزئيات ، مجتمعتين أو منفردين.

### - أفعال الاستثناء:

زاد في أفعال الاستثناء على "خلا، عدا، حاشا" التي أراد أن يفسّرها في ضوء رأي ابن مضاء لغيب الفاعل غياباً مطرداً عنها، الفعلين: لا يكون، وليس، في نحو: "قام القوم لا يكون زيداً، قام القوم ليس زيداً"، اللذين قلّبما على النقصان وغياب الاسم عنهما على رأي البصريين تارة، وعلى التمام وغياب الفاعل عنهما على رأي الكوفيّين كما نصّ تارة أخرى.

وزيادة هذين الفعلين لا تعدو في تقديرى السعي إلى استيعاب أفعال الاستثناء جميعاً. لكنَّ كلام د. ضيف عليهما عند النظر والمراجعة يدلّنا على أمرين:

١ - تقليلُ الفعلين على التمام والنقصان تارةً فتارةً بعيداً عن القطع بأحدهما أو الميل إليه، دالٌّ على حياد وتوقف عن الاختيار. وهو ما يعني بآخرة أن د. ضيف رجع عمّا ذهب إليه من قبلُ واعتمدَ ودعا إليه، على الأقلّ في كتب النحو التعليميِّ، من أنْ "كان" وأخواتها أفعال لازمة، يكون المفوع بعدها فاعلاً، والمنصوب حالاً<sup>(١)</sup>؛ أو توقف فيه.

٢ - نسبةُ القول بتمام هذين الفعلين أو لزومهما، وهو قطعةٌ من نسبة القول بذلك في "كان" وأخواتها عامةً مع كون المفوع بعدها فاعلاً، والمنصوب حالاً، إلى الكوفيّين بإطلاقٍ كما كان في معظم كلام د. ضيف<sup>(٢)</sup>، متابعةً لما وقع في كلام بعض القدماء والمؤخرين في المنصوب بعدها<sup>(٣)</sup>، أو مقيداً بالكوفيّين بعد الفراء (ت ٢٠٧ هـ) كما ورد في بعض كلامه<sup>(٤)</sup> = مبنيةٌ على تقليدٍ مُضللٍ، وتتفقُّر إلى التحقيق الذي يضبط القول فيها على وجهه.

ولو ضبط د. ضيف ذلك في ضوء ما نُسِب إلى الكوفيّين فيه، وما ورد في كتبهم التي انتهت إلينا، لقيّد ذلك فقال: في بعض ما نُسِب إلى الكوفيّين من رأيٍ في منصوب "كان" وأخواتها؛ لأنَّ للکوفيّين في ذلك غيرَ رأيٍ، والمعتمد من ذلك في كتبهم أنَّ "كان" وأخواتها ترفع اسمًا وتنصب خبراً.

---

(١) :  
(٢) :  
(٣) :  
(٤) :

فهذا الفرّاء مثلاً، وهو من أشهر أئمة الكوفيّين، كان من شأنه إذا تكلّم على بنية "كان" الناقصة في كتابه (معاني القرآن)، أن يسمّي المرفوع بعدها اسمًا لها، دون أن يحمل المتصوب البتة على الحال أو القطع<sup>(١)</sup>، وهما مصطلحان استعملهما في التعبير عن مفهوم "الحال" النحوّي.

وإذا غاب عن كلام الفرّاء في (معاني القرآن) التصریح بحال منصوب "كان" وأخواتها فهذا ثعلب<sup>(٢)</sup> (ت ٢٩١ هـ) يقول: الفرّاء يقول: لدن [غدوة] ينصب ويرفع ويختفيض، فتاویل الرفع: لدن كان غدوة، وينصب بخبر كان، ويختفيض بـ "عند"، أي: عند غدوة ..<sup>(٣)</sup>.

وذاك ابن سعدان الكوفي (ت ٢٣١ هـ) يقول: واعلم أنّ كان ولم يكن وليس وأمسى ... وما اشتُقَّ من هذه يرفعن الأسماء ونحوتها وينصبون الأخبار. تقول: كان عبد الله الظريف قائماً، رفعت "عبد الله" لأنّه اسم لـ "كان" ، ونصبت "قائماً" لأنّه خبر لـ "كان". قال الله عزّ وجلّ: «ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا» [النحل: ٥٨] . الزخرف: ١٧ [٤].

### - طالما وقلما وكثرا :

على أنّ زيادة الأفعال "طالما، قلما، كثرا" هنا - وهي زيادة محضة، فقد ورد الكلام عليها قبل مختصراً في كتابه (تجديد النحو) في (باب الحذف والذكر)<sup>(٤)</sup> منقطعاً عن رأي ابن مضاء أو سياقه - في تطبيقات رأي ابن مضاء، والأمثلة التي تفسّر في ضوئه، كانت عند التحقيق في غير محلّها، مختلفة عن نظائرها؛ لأنّ اقتران هذه الأفعال بـ "ما" الزائدة منعها من طلب الفاعل، وكفّها عنه، فلم يكن بها لذلك احتياج إلى فاعلٍ غاب، فيصبح اللجوء إلى رأي ابن مضاء لتفسيره.

ويؤكّد ذلك ذلك خلوّ كلام د. ضيف على هذه الأفعال مما يدلّ على ارتباطها برأي ابن مضاء، ولو إشارةً.

ونصّه في الاستدلال بهذه الأفعال على صحة رأي ابن مضاء، إذ قال: "وهذه الأفعال الثلاثة" قلما، كثرا، طالما "تُعدّ برهاناً قوياً ... على صحة ما ذكره ابن مضاء من أنّ الفعل حين لا يليه فاعل منطوق به يدلّ

( )

:

( )

/

( )

:

( )

على فاعله بمادته<sup>(١)</sup> = دليل على ارتباط آخر مختلف اختلافاً ضدّ يبلغ حدّ العكس؛ لأنّ الارتباط المراد الذي نعنيه ونبحث عنه يكون فيه رأي ابن مضاء حجّةً ودليلًا على غياب الفاعل عن تلك الأفعال.

ثمَّ كيف يصحُّ للدكتور ضيف أن يزجَّ بهذه الأفعال في هذا الإباب، وقد نصَّ على أنها "أفعال لا فواعل لها البِتَّة"<sup>(٢)</sup>؟ إلَّا أن يكون قوله "لا فواعل لها" تنويعاً في العبارة يتسع لما لم يكن له فاعل البِتَّة، على تقدير النحاة، ولما غاب عنه فاعله حذفًا أو إضماراً.

### - رجوعه عن رأيه في فاعل "نعم وبئس" :

وإذا كان لقارئ أن يستدرك فيقول : تركَ د. ضيف هنا ما كان يرى إنفاذَ رأي ابن مضاء فيه في المدخل إلى كتاب ابن مضاء (الرد على النحاة)، وهجرَ ما راوهه ثمة من إمكان تفسير فاعل "نعم" و"بئس" بذلك الرأي؛ لأنَّه محنوف وجوباً<sup>(٣)</sup>.

قيل : كان ذلك منه، إذ سكت عنه، فلم يُشرِّإليه البِتَّة هنا أو في أيّ موضع آخر من كتبه غير ذلك الموضع، رجوعٌ فضيلة، فلعله وقعَ في باله ما غفل عنه ثمة وأخطأ فيه، فهجره هجراناً لا عودة عنه، بعد ما بدا له ما فيه؛ لأنَّ فاعل هذين الفعلين لا يُحذَف وجوباً، بل الأصل ذكرُه، وإذا حُذِف لعنة لم يُغنِّ الفعلُ فيهما عنه بمادته أو صيغته، بل دلَّ عليه غيره؛ فإذا أضْمِر وجوباً في نحو : "نعمَ رجلاً زيدَ، ونعمَ رجلين القوي والجريءُ فُسرَّ بتميزه يعود إليه ويدلُّ عليه، وهي حالة نصٌّ عليها العلماء"<sup>(٤)</sup>، فكان التمييز بذلك دليلاً له وكاشفاً عنه، لا صيغة الفعل أو مادته.

وكان د. ضيف إذا أراد أن يفسِّر تلك الصيغة والتركيب التي غاب عنها الفاعل في هذا الكتاب (تيسيرات لغوية) عرضَ آراء العلماء فيها أو توجيهاتهم إماً كانت؛ فأما ما بني على خلاف رأي ابن مضاء فكان من أمره فيه أن يتنقّصه ما وجد إلى ذلك فيه سبيلاً، وأما ما كان منها موصولاً برأي ابن مضاء أو فيه ما يُفضي إليه، فكان يحتفل به، ويسوقه على أحد وجهين : إماً أن يذكره ذِكرَ استحسان على أنه واسطة تنتهي به إلى رأي ابن مضاء، وإماً أن يذكره بإزاء رأي ابن مضاء على أنه أحد اختيارين : يذكرهما على حد سواء، فلا تفضيل ولا إيثار، أو يرجع عليه قول ابن مضاء الذي يصفه بما يرى فيه من أوصاف التفضيل. ترى ذلك في كلامه، ويتراءى لك من ورائه قدرٌ من تحيّز وهو صادر عن أخيذه استبدَّ به رأيُ ابنِ مضاء.

()

()

()

()

/

:

/

/

فهذا د. ضيف مثلاً حين أخذ يفسّر غياب الفاعل عن أفعال الاستثناء جعل يرمي المذاهب المبنية على تقدير الفاعل فيها ضميراً مستتراً وجوباً، ومنها رأي الجمهور: البصريين والkovfien، بالتكلف غاية التكلف. ثم آثر عليها مذهب الفراء الذي رأى "حاشا" فعلاً لا فاعل له، وهو ما مده أبو حيـان إلى الفعلين "خلا، وعدا"، فكانت هذه الأفعال الثلاثة بذلك لا فواعل لها. حتى إذا سدد د. ضيف هذا الرأي، وتتخذ هذه الأفعال دليلاً على صحة رأي ابن مضاء، رأى طرد رأي الفراء في الفعلين الآخرين "لا يكون، وليس" - وهو منه ضرب من القياس والمجانسة ربما كان فيه قلق ونبو؛ لأن المألوف فيهما على أصل استعمالهما ظهور مرفوعهما، بخلاف "خلا، وعدا، وحاشا" في غالب استعمالها، وهو الاستثناء - بحيث يكونان فعلين لا فاعل لهما على رأي من يرى التمام فيهما، أو لا اسم لهما؛ أو فرض رأي ابن مضاء عليهما، فيستغليان بعادتهما عن الفاعل.

"وبذلك - كما قال د. ضيف - يحلّ لنا ابنُ مضاء مشاكلَ إعرابِ أفعالِ الاستثناءِ جميعاً<sup>(١)</sup>".

### - صيغتا التعجب:

وحين خاض د. ضيف في صيغة التعجب "ما أفعله !" انتقد تقديري الأخفش اللذين كانت "ما" فيهما نكرةً موصوفة، أو اسمًا موصولاً، مبتدأ خبره محذوف، ووصفه بـ "غير قليل من التكلف". وانتقد رأيَ البصريين الذين جعلوا "ما" نكرةً تامةً بمعنى شيء مبتدأ خبره الجملة الفعلية التالية التي يُقدر الفاعلُ فيها ضميراً مستتراً عائداً على "ما" ، وهو رأيٌ نفاه عن الأخفش ، بل نسب إليه إنكاره<sup>(٢)</sup> ، ولم يحفظه من القدح أن آثره على تقديري الأخفش ؛ لأنّه "أولى منهما" ؛ فاعترف "بأنّ هذا التقدير - أي تقدير البصريين : شيء حسن الرياض - يحمل شيئاً من التكلف ؛ لأنّه يجعل العبارة "ما أحسنَ الرياض !" خبرية بينما هي تعجبية إنشائية ، ولا ريب في أنه يُسقط منها معنى التعجب"<sup>(٣)</sup>.

فرّ من هذين الرأيين ، وكأنّي به يرى في تقدير الفاعل فيهما ضميراً مستتراً شبحاً يحوم حوله ، ولاذ بما قال به الكسائي من أنّ "ما" تعجبية ، حرف لا محلّ له من الإعراب ، فاستمسكَ به ، وأفاد منه ، إذ رتب عليه خلوًّ الفعل في هذه الصيغة من الفاعل ، وانتهى بذلك إلى رأي أو توجيه جديد لم نعلمه في الأوّلين .

قال : وإذا أخذنا برأي الكسائي في "ما" التعجبية كان الفعلُ الماضي بعدها لا يحمل ضميراً مستتراً وجوباً فاعلاً لها ، بل كان فارغاً تماماً من الضمير<sup>(٤)</sup> .

()

()

()

()

حتى إذا وصل إلى مبتغاه، ووجده منفذًا إلى رأي ابن مضاء فزع إليه في حل مشكلة خلو الفعل من الفاعل، فقال: "والحل مفتاحه بسيط، هو رأي ابن مضاء في أن الفعل قد يستغني عن الفاعل للدلالة عليه بمادته ...."<sup>(١)</sup>.

وكلام د. ضيف هنا فيه شيء من التخليل والتحكم دعه إليهما التحيز دعاً.

أما الأول فتراه في التعقيب على رأي البصريين الذي رأى أن تقديرهم فيه: "شيء حسن الرياض" ينزع من الصيغة معنى التعجب والإنشاء، فتقول خبرية.

وهذا عند التحقيق غير معين؛ لأن هذا التقدير تقدير تقريب، لا يلزم منه مطابقة حقيقة العبارة ونمطها الأسلوبية خبراً أو إنشاء، فـ"كل مؤول بشيء ليس حكمه حكم ما أول به"<sup>(٢)</sup>. وهو عند النظر يشبه أن يكون تقدير إعراب، فلا يتضمن لزوماً الدلالة النحوية أو البلاغية، إذ "ليس يتنبأ أن يكون تفسير المعنى مخالفًا لتقدير الإعراب" كما نص ابن جنّي<sup>(٣)</sup>، ولا أن يكون تقدير الإعراب مخالفًا للمعنى. وذلك المعنى النحوي أو البلاغي يولد حينئذ أو بيئنه السياق أو المقام، أو يكون ثمرة دلالة عرفية تواطأ عليها المتكلمون في استعمال هذا التركيب أو ذاك في كلامهم لمعنى بعينه.

على أن معنى التعجب في هذه الصيغة على هذا التقدير كما قال بعض العلماء مستقى من التنكير؛ لأن التنكير يناسب معنى التعجب.<sup>(٤)</sup>

على أن د. ضيف قدره في بعض كلامه في غير هذا الكتاب تقدير استفهام، فقال: "كأنك تقول: ما الذي جمله؟ تعجبًا"<sup>(٥)</sup>.

فهل كان ذلك لوناً آخر من التعبير عن تحفظه من هذا التقدير الذي تحفظ منه هنا، ورماه بما رماه؟ وأما الثاني فكان في توظيف رأي الكسائي في "ما"؛ إذ نماه، ورتب عليه أن الفعل الماضي بعدها لا يحمل ضميراً مستترًا وجوباً فاعلاً له، بل يكون فارغاً من الضمير.

( )

( )

( )

( )

( )

وهذا الترتيب أو التفريع تسرى فيه روحٌ من الحتمية والجبرية غريبة لا نعلم في كلام العلماء ما يفسّرها أو ينصرها، إذ لا يلزم من متابعة الكسائي في أنّ "ما" حرف تعجب، سقوطُ الفاعلِ أو تخلُّفه.<sup>(١)</sup>

وحين وصل د. ضيف إلى صيغة التعجب الأخرى "أَفْعَلُ بِهِ؟" عرض أقوال العلماء فيها، ونظر فيها نظر من يبحث عن رأي تسكن به نفسه وترضى. فلماً فقد ذلك فيها أعراض عنها بعد ما رماها بما وجد فيها، فرمى قولَ البصريين الذين يرون الفعل في هذه الصيغة فعلاً ماضياً جاء على صورة الأمر، زيدت الباء فيه على فاعله، وقولَ ابن كيسان القائل بعودة الضمير المستتر إلى مصدر الفعل، بما فيهما من لفة طويلة لا يؤدّيها ظاهرُ التعبير، دعا إليها البحث عن الفاعل.

ولم يكن سكته عن رأي الفراء، ومنْ تبعه كالزمخشري، وفيه كان الفعل في هذه الصيغة فعلَ أمرٍ حقيقيٍ، فاعله ضمير تقديره "أنت"، والباء فيها زائدة على المفعول = بشارةَ قبول وسكتوتَ رضا؛ لأنَّه لم يجد فيه بغيته. لذلك أسرع إلى ابن مضاء، فاقترض منه رأيه في أنَّ الفعل قد يستغني بمادته عن الفاعل، وقال بما لم يقلْ به أحدٌ قبله : إنَّ "أَجْمَلُ" في "أَجْمَلُ بِالرَّوْضِ" ! فعلٌ تعجبٌ لا فاعل له، وعدَ ذلك إراحةً للنحوة جمِيعاً من اللفَّ المتَّكَلُّ حول إيجاد فاعل للفعل "أَجْمَلُ" دون حاجة إلى البحث عنه، إذ هو محاولة لإيجاد ما ليس بموجود فعلاً<sup>(٢)</sup>.

وكان من تمام رأيه تعليقُ الجار (الباء) وال مجرور بعد الفعل به ، على أنَّ الباء غير زائدة ، وهو الذي اعتمدَه قبلُ في بعض كلامه في غير هذا الموضع ، وعدَّه قطعةً من إعراب الكوفيين حيناً ، وإعرابِ الفراء وغیره حيناً آخر<sup>(٣)</sup> أو أن تكون الباء زائدة على المفعول ، وهو بعض ما كان في الرأي الذي نسبه إلى الفراء هنا ، وعليه كان المعتمدُ في بعض كلامه قبلُ<sup>(٤)</sup>.

على أنَّ في نسبة ذلك الرأي إلى الفراء ، متابعةً لما كان في بعض مصادره ، نظراً؛ لأنَّ الظاهر من كلام الفراء في كتابه (معاني القرآن) أنَّ الباء زائدة على الفاعل ، وهو ما يقتضي باخراج التزاماً نفيَ كون الفعل أمراً حقيقةً ، لفوات التناسب بين الأمرين : زيادة الباء في الفاعل ، وكون الفعل أمراً حقيقةً ، قال : .. وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع إذا كان يُمدح به صاحبه ، ألا ترى أنك تقول : كفاك به ، ونهاك به وأكرم به رجالاً

( )

( )

" "

" "

:

" "

" "

" "

" "

" "

" "

( )

( )

( )

وبئسَ به رجلاً، وطاب بطعمك طعاماً، وجاد بثوبك ثوباً. ولو لم يكن مدحاً أو ذمّاً لم يجز دخولها ...<sup>(١)</sup>. وهذا النص يدفع عن الفراء ما نسبه إليه د. ضيف في كتابه (تجديد النحو) من تعليق الجار وال مجرور في هذه الصيغة بالفعل، وهو ما اعتمدته ثمّة وعازاه إليه وإلى ابن كيسان والزجاج والزنخشري<sup>(٢)</sup>، أو يدعو إلى التوقف والنظر فيه.

ولا يخفى بعد ما في كلام د. ضيف في نسبة بعض هذه الأقوال بين موضع وآخر من اختلاف ظاهر كان يحسن ضبطه وتحقيقه، وما في الاختيار والاعتماد هنا وهناك من تقلّبٍ بين الآراء.

### - فاعل الفعل الأول في التنازع:

وحين ذهب يفسّر غياب الفاعل عن الفعل الأول في نحو: "جلس وكتب زيد" استحضر ثلاثة آراءٍ يحرّكها الغيابُ، ورأياً آخر موصولاً بالحضور. فذكر قول سيبويه باستغنائهم عن فاعل الفعل الأول بالفعل الثاني ومعهـ، لعلم المخاطبـ بهـ منـ الكلامـ؛ وقولـ الكـسـائـيـ بـحـذـفـ فـاعـلـ الـفـعلـ الـأـوـلـ لـوـجـودـ مـاـ يـدـلـ عـلـيـهـ (الـقـرـيـنـةـ الـلـفـظـيـةـ)، ورأـيـ ابنـ مضـاءـ القـائـمـ عـلـىـ اـسـتـغـنـاءـ الفـعلـ بـعـادـتـهـ عـنـ فـاعـلـهـ. وـبـهـ عـلـىـ مـاـ بـيـنـهـ مـنـ رـبـاطـ أـوـ تـقـاءـ. وـذـكـرـ المشـهـورـ مـنـ رـأـيـ الفـرـاءـ أـنـ الفـاعـلـ الـمـذـكـورـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـةـ فـاعـلـ لـلـفـعـلـيـنـ مـعـاـ.

حتى إذا أخذ يفسّر غياب الفاعل عن الفعل الأول في قول بعض الشعراء في هذا الباب، ومنه :

ما جاد رأياً ولا أجدى محاولةَ  
إلا أمرؤ لم يُضع دنيا ولا دينا<sup>(٣)</sup>

غيب رأي الفراء لأمر لا يتعدّر فهمه، لأنّه مبني على مفهوم الحضور الذي كان على النقيض من فكرة الغياب والخلفاء التي ألت بظلالها على هذا الباب بقوّة؛ ثمّ نجح قول سيبويه لأمر لا نعلمه، واقتصر على رأيِّ الكسائيِّ وابنِ مضاءِ، يفسّر بهما ذلك الغياب، على حد سواء على الاختيار والاسعة، فإنّما أن نقول مع الكسائيِّ بحذف فاعل "جاد" في قول الشاعر لدلالة القرينة اللغوية عليه، وإنّما أن نقول مع ابنِ مضاءِ باستغناء الفعل عنه بعادته، ورأيه - كما قال - أوسع تطبيقاً.

على أنّ الاعتماد على رأي ابنِ مضاءِ هذا هنا، وتوظيفه في باب التنازع، عند التحقّيق، تصرفٌ في غير محلّه؛ لأنّ له رأياً خاصاً بغياب الفاعل في باب التنازع، ورد في كتابه (الرد على النحة)، إذ آثر رأيِّ الكسائيِّ في مشهور ما نقل عنه، وصحّحه، وقال بما قال من حذف الفاعل في مثله متابعةً وترجحه<sup>(٤)</sup>.

( ) /

( ) /

( ) /

( ) /

والواجب مراعاة المحلّ، واستعمال الصق الرأيين به فيه. واستبدال العام بالخاص دون حاجة أو دليل في تقديري خللٌ منهجيٌ لا ينبغي، ينمّ هنا على تحكم وتفسير رغبيٍ.

وقد ارتبط رأيُ الكسائي ورأي ابن مضاء عند د. ضيف هنا، حيث فسرَ غياب الفاعل في بعض آي القرآن والقراءات القرآنية وحديث النبي ﷺ وكلام العرب شعراً ونثراً ارتباطاً شديداً، فكانا ركيزة ثانية اعتمد عليها كثيراً في ذلك. فقد اجتمعا في تسعه مواضع من الموضع الأحد عشر التي تناول فيها ذلك.

### **– الفاعل الغائب في بعض آي القرآن والشواهد الشعرية والحديث النبوى :**

كان د. ضيف في هذه الموضع التسعة يؤثر القول بحذف الفاعل آخذًا بما رأاه الكسائي، على قول من يقدر الفاعل ضميراً، ولا سيما إذا لم يتبيّن عائد الضمير ولم يتعين، أو كان في تقديري – على ما يرى – ما فيه من تكليف، ويرجح عليه غالباً رأي ابن مضاء. وهذا الترجيح فيما أظنُ كان بعض ما دعا د. ضيف إلى الاقتصار، إذ ختمن بحثه وقرر خلاصته، على رأي ابن مضاء في تفسير غياب الفاعل في تلك الأمثلة والشواهد<sup>(١)</sup>.

وكان يزكي أكثر ذلك بأنَّ الغرض من الكلام بيانُ وقوع الفعل (الحدث) لا منْ أحدثه، وهو ما صرّح به بآخرة بعبارة أخرى إذ قال : "ليس الغرض منها جميـعاً بيان الفاعل الذي وقع منه الفعل، وإنـما الغرض بيان وقوع الفعل على المفعول ، ولذلك أغفل الفاعل مع تلك الأفعال ، ولم يذـكر<sup>(٢)</sup> ."

وهو ما استند إليه في القاعدة العامة التي أجمل بها صنيعه إذ قال : "قد يستغني الفعل في العربية عن الفاعل أحياناً إذا كان الغرض إيقاعه على المفعول به دون عنایة بذكر من أوقعه<sup>(٣)</sup> ."

وكلام د ضيف في هذه الموضع جميـعاً قطعة أخرى دالة على عميق أثرِ رأي ابن مضاء في تصوّره التحويـي ، تعـبر عن اختيارِ موقفِ معلمـ، واتساعـ في التطبيق. وذلك ما لا تثريـب عليه فيه في ذاته ، لكنـ بعضـ ما في كلامـه من دقـائقـ وتفاصيلـ ، عندـ النـظرـ ، تتطـويـ على زـلالـ لا يعلـلـها إـلـا هـوـيـ مستـحـكمـ.

ليس من ذلك عندي أن يقدـرـ د. ضيفـ الفـاعـلـ حيثـ يـعـتـقـدـ حـذـفـهـ ؛ لأنـ تـقـدـيرـ الفـاعـلـ يـقتـضـي الإـضـمارـ ، وـهـوـ خـلـافـ الحـذـفـ. فـذـلـكـ – عـلـىـ دـقـتـهـ – أـثـرـ سـهـوـ أوـ غـفـلـةـ .

عرض د. ضيف قراءة الحسن البصري «ذَكَرَ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَا» [مريم: ٢<sup>(١)</sup>]، وعقب برأي ابن جنّي<sup>(٢)</sup> أنّ الفاعل ضمير عائد على مفتتح السورة «كَهِيْعَصْ» [مريم: ١]، أي المتلئ من القرآن، وهو ما نفي عنه د. ضيف الوضوح، ثم قال: وفي رأيي أنه ينبغي أن نأخذ إما برأي الكسائي القائل بجواز حذف الفاعل، فالفاعل مذوق وتقديره: «هذا القرآن»، وإما أن نأخذ برأي ابن مضاء – وهو الأرجح – القائل...<sup>(٣)</sup>

لكنّ منه – فيما أرى – اختلاف الرأي أو الحكم في الأشباء والنظائر. وهو ما لا مناص من وصفه بالتحكم. وقد بدا لي ذلك هنا في أمرين :

١ - تجاهل د. ضيف استناد العلماء في بعض كلامهم إلى دلالة السياق في تقدير عائد الضمير المستتر الواقع فاعلاً؛ لأنّ ذلك الدليل يزكي ما كان خلاف رأيه و اختياره؛ والتفت إليه لما تعلق ببعض رأيه و اختياره، وكان له دليلاً ونصيراً.

فحين عرض حديث النبي ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)<sup>(٤)</sup> ذكر مذهب النحاة في أنّ فاعل "يشرب" ضمير مستتر عائد على اسم فاعل مشتق منه. وعقب عليه بقوله: "والتكلف واضح في تصور هذا الضمير المستتر وعائده، ورأيُ الكسائي في أنّ الفاعل مذوق في مثل ذلك أوضح، وأكثر منه وضوحاً رأي ابن مضاء في أنّ الفعل "يشرب" في الحديث لا فاعل له، وأنه إنما يدلّ على فاعله بعادته التي تقتضي حدوث الشرب من شخص. على كل حال الفعل في الحديث استغنى عنه بتصور حدوثه، وليس الغرض بيان وقوع الشرب من شخص معين، وإنما الغرض بيان إيقاعه على المفعول به، ...".<sup>(٥)</sup>

وحين تكلّم د. ضيف على استغناء الفعل عن فاعله في التنازع آخر الأمر لم يجد حرجاً من أن يزكي ذلك بدلالة السياق، فقال: " واستغناوه في صيغة التنازع المذكورة واضح بدلالة السياق ".<sup>(٦)</sup>

---

م	.	:	( )
م	/	:	( )
م	.	:	( )
م	/	:	( )
م	.	:	( )
م	/	:	( )

فهل من المحكم أن يصف د. ضيف تقدير الفاعل ضميراً مستترأً على "الشارب" بـ "التكلف الواضح" ، والكلام بسياقه يرشح هذا التقدير: الفعل "يشرب" في موضعه: "يشرب ... يشربها" بمادته ودلالته، والفاعل المشتق من فعله "الزانى" في التركيب الأول من الحديث المبني على بنية تركيبية متوازنة متناهية: "لا يزني الزانى حين يزني ، وهو مؤمن = ولا يشرب الخمر حين يشربها ، وهو مؤمن"؟.

أولاً يذكر رأي ابن مضاء المبني على دلالة الفعل على فاعله بمادته هذا المعنى والتقدير؟ أليس "الشارب" قطعة من مادة الفعل "يشرب"؟.

ثم إن تقدير الفاعل ضميراً يعود على "الشارب" الذي يدل عليه الفعل بمادته لفظاً ومعنى لا يقيّد الفعل "الشرب" بشخص معين ، وهو من ثم لا يتعارض وما رأه من أنه "ليس الغرض بيان وقوع الشرب من شخص معين ، وإنما الغرض بيان إيقاعه على المفعول به..." .

ومن هنا ييدو حكم د. ضيف على هذا التقدير بـ "التكلف الواضح" اتهاماً ينبي عن رغبةٍ وهو ، لا حكماً صادراً عن وصف واقع مجرد .

٢ - استحسن د. ضيف تقدير البصريين الفاعل في قوله تعالى «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآياتِ ليسجتنَّه حتى حين» [يوسف : ٣٥] وقوله تعالى «وتبيَّن لكم كيف فعلنا بهم» [إبراهيم : ٤٥] ضميراً يعود على المصدر الذي دل عليه الفعل ، "الباء" في الموضع الأول ، و"التبيُّن" في الموضع الثاني = استحساناً بذلك عليه نصه على أنهم يتقوون مع ابن مضاء مباشرة في قوله إن الفعل يستعني بمادته عن الفاعل<sup>(١)</sup>؛ وتصرّحه بأنّ مادته المصدر<sup>(٢)</sup> ، وانصرافه عن نبز ذلك التقدير انصرافاً يشبه سكت الرضا المبرأ من السخط والإنكار؛ في حين تحفظ من تقدير الفاعل في قراءة يحيى وإبراهيم «فيَرِى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ» [المائدة : ٥٢] بالباء<sup>(٣)</sup> ، وفي (لا يشرب الخمر) ، وقول عمرو ابن ملقط<sup>(٤)</sup>: أودى بنعلي وسرباليه = ضميراً يعود على فاعل مشتق من تلك الأفعال: رأيهم ومتأنلهم ، الشارب ، مود ، تحفظاً دعاه إلى الإعراض عنه حيناً ورميه

( )

( )

( )

( )

بالتتكلف الواضح حيناً آخر<sup>(١)</sup> أليس اسمُ الفاعل المأْخوذُ من فعله قطعةً من مادّته، أم هو التمييز ينبعُ بِماء الهوى؟!

ولعلّ ما يؤكّد القولَ باستحسان د. ضيف تقدير البصريين السالفين أن تراه، حيث طبق رأيَ ابن مضاء في تفسير غياب نائب الفاعل عن الفعل المبني للمجهول إذا لم يلِه إلّا ظرفٌ غير متصرف أو جارٌ و مجرور، يهجم على ما بُني من آراء العلماء وتوجيهاتهم على تقدير نائب الفاعل في ذلك ضميراً مستتراً يعود على مصدر الفعل المفهوم من بنيته، أو ضميراً مبهماً مستتراً يدلّ على ما يدل عليه الفعل من مصدر أو ظرف، وفيها ما لا يختلف البتّة عن تقدير البصريين ذاك، هجومَ المُنْكِر، ويرميها دون تردد بالتمحّل الشديد، والمشقة في التصور، والتعسُّف في التقدير.

وهذا شيء منه يدعوك إلى التعجب، تراه ينظر إلى الشيء في موضع بعين الرضا، ثم تراه في موضع آخر يصير إليه ينظر إلى ذلك الشيء أو إلى نظيره بعين سخطٍ تبدي المساوي.

### - نيابة الظرف غير المتصرف والجار والمجرور عن الفاعل :

وبمثل تلك العين التي أذكى في نفس د. ضيف شهوة المخالفـة شق العصـا، إذ نبذ آراء العلماء قاطبةً في نائب الفاعل في هاتين المسألتين جملةً وتفصيلاً، وأثر أن يسلط على القضية فيهما رأيَ ابن مضاء باستغـاء الفعل بـمادـته عن فاعـله، ويولـد رأيـاً جديـداً لم يـعهدـ عندـ الأوـلينـ والآخـرينـ.

ترك د. ضيف الرأي المنقول عن الأخـفـشـ في جواز قيام الظرف غير المتصرف نائبـ فـاعـلـ، وانتقدـهـ بماـ فيـ تلكـ الـظـرـوفـ المـنـصـوـبـةـ لـفـظـاـ المـرـفـوـعـةـ مـوـضـعـاـ مـنـ "ـمـبـاـيـنـةـ"ـ وـاـضـحـةـ لـلـظـاهـرـ المـلـفـوـظـ وـالـمـضـمـرـ الخـفـيـ"ـ<sup>(٢)</sup>ـ. ثـمـ ردـ ماـ ذـهـبـ إـلـيـهـ الجـمـهـورـ فيـ ذـلـكـ مـنـ أـنـ نـائـبـ الـفـاعـلـ مـعـ تـلـكـ الـظـرـوفـ ضـمـيرـ مـسـتـرـ قـبـلـهـ يـعـودـ عـلـىـ المـصـدـرـ المـفـهـومـ مـنـ بـنـيـةـ الـفـعـلـ المـبـنـيـ لـلـمـجـهـولـ، فـفـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ «ـوـحـيـلـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ مـاـ يـشـتـهـونـ»ـ [ـسـبـاـ :ـ ٥٤ـ]ـ يـقـدـرـوـنـ:ـ حـيـلـ الـحـولـ بـيـنـهـمـ،ـ وـفـيـ قـوـلـ الشـاعـرـ:

**وَيُبَشِّرُ بِالترحِيبِ عَنْدَ سَلَامِهِ وَيُقْرَبُ<sup>(٣)</sup>**

يقدّرون: تُبَشِّرُ البشاشة، وَيُقْرَبُ القيام. ...

ورمى رأي الجمّهور بالتمحّل الشديد، ووصف تقديرهم بالاضطرار، "غير ملتفتين إلى أن الفعل المبني للمجهول يدل على المصدر الذي يقدرونها ببنيته، وأنه لا حاجة له إليه."<sup>(١)</sup>، كما رماهم بالغفلة إذ قال: "وفاتهم أنّ النائب للفاعل حين يكون مصدرًا لا يضيف للسامع فائدة، إلّا إذا خُصص بشيء من أنواع التخصيص، ... إذ اشتربطوا له إما الإضافة وإما الوصف وإما العدد...".<sup>(٢)</sup>

وأتهام د. ضيف هنا للجمّهور بالغفلة أو بنحوها يتحمل أن يكون عن غفلة منه وسهو؛ غفل عمّا نصّ عليه العلماء من أنّ تقييد المصدر بـ "ال" نوع من الاختصاص<sup>(٣)</sup> – والمصادر التي قدرها الجمّهور في تلك الشواهد التي ساقها د. ضيف من هذا القبيل، مختصة بـ "ال" - ثم حكم بما حكم؛ إلّا أن يكون د. ضيف قد أخفى من رأيه، أو في كلامه، ما لا أعلمـه.

ولم تكن مذاهب النحاة في نيابة الجار والمجرور عن الفاعل عند د. ضيف بأحسن حالاً؛ فأنكر مذاهبيـم جميعاً، ما قام على نيابة الجار وحده عن الفاعل، أو نيابة المجرور وحده، أو الجار والمجرور معاً<sup>(٤)</sup> كما أنكر رأيـ من يرى أنّ نائب الفاعل إذا اقتصر الفعل المبني للمجهول على الجار والمجرور في نحو: "يُحذـر منه، لا يحتاجـ إليه" هو ضميرـ بهم مستتر يتحمل ما يدل عليه الفعل من مصدر أو ظرف، وهو ما عزاهـ د. ضيف متابعةً بعض مصادره إلى ابن هشام ومن تابعـه<sup>(٥)</sup>، أو ضميرـ بهم عائد على المصدر المفهوم من الفعل، وهو ما عزاهـ إلى بعض النحـاة، ومنهم ابن درستويه والرـندي الأندلسـي؛ ووصف هذين الرأـيين بالمشـقة في التصورـ، والتعـسـ في التـقدير؛ لأنـ الفعل يدلـ على المصدر والظـرف التـزاماً، أو بـعبارةـ أخرىـ: بصـيغـتهـ، فهوـ فيـ غـنىـ عنـ ذـكرـهـماـ أوـ تـقدـيرـهـماـ.<sup>(٦)</sup>

حتـىـ إذاـ انتـهىـ دـ.ـ ضـيـفـ منـ هـذـهـ الـآرـاءـ وـتـلـكـ فيـ هـاتـيـنـ الـمـسـائـلـيـنـ،ـ خـلـصـ بـآخـرـةـ،ـ مـسـتـنـداـ إـلـيـ رـأـيـ ابنـ مضـاءـ،ـ إـلـيـ القـوـلـ بـمـاـ لـاـ عـهـدـ بـهـ مـنـ أـنـ الفـعـلـ المـبـنيـ لـلـمـجـهـولـ إـذـ لـمـ يـكـنـ مـعـهـ إـلـاـ ظـرفـ غـيرـ مـتـصـرـفـ أـوـ جـارـ وـمـجـرـورـ يـسـتـغـنـيـ عـنـ نـائـبـ الـفـاعـلـ بـمـادـتـهـ أـوـ صـيـغـتـهـ.<sup>(٧)</sup>

## • نتائج :

هذا ما قادني إليه النظرُ في قراءة د. ضيف رأيَ ابن مضاء في إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة ؛ لاستغفاء الفعل بـمادته عن فاعله إذا غاب واستتر. ولو أراد المـرءُ أن يـبـيـنَ بعضَ مـلامـحـ تلك القراءة أو معالـهاـ، وبـعـضـ ما صدر عندـ ضـيـفـ فيـ أـثـنـاءـ ذـلـكـ، تـبـيـنـ إـجـمـالـ ؛ لـقـالـ :

ـ كان لرأيِ ابن مضاء الذي تناوله هذا البحث أثرٌ عميقٌ في فكر د. ضيف وتصوره النحوـيـ، فاحتفل به في كثير من كلامـهـ، ولا سيـماـ فيـ آخرـ كـتبـهـ، عـظـيمـ اـحتـفالـ، وـكانـ يـلـهـجـ بـهـ، وـيلـوذـ بـهـ كـلـمـاـ صـادـفـ فعلـ خـفـيـ فـاعـلـهـ ؛ نـذـجـهـ، وـاتـخـذـهـ مـفـتاـحـاـ يـحـلـ بـهـ مـشاـكـلـ القـولـ بـحـذـفـ الـفـاعـلـ أوـ غـيـابـهـ عنـ بـعـضـ الصـيـغـ وـالـتـراـكـيـبـ المـسـمـوـعـةـ، وـبعـضـ الـقـرـاءـاتـ الـقـرـآنـيـةـ وـشـواـهـدـ الـعـرـبـيـةـ منـ شـعـرـ أوـ حـدـيـثـ، الـتـيـ فـسـرـهـاـ فيـ صـوـئـهـ، فـآلـتـ إـلـىـ حـظـيرـتـهـ، وـكـانـ لـهـ فـيـهاـ آـرـاءـ وـتـوـجـيـهـاتـ لـمـ يـسـبـقـ إـلـيـهاـ.

ـ كان من منهج د. ضيف أحياناً إذا عرض آراء ابن مضاء أو درسها ♦ ربطُ الرأيِ الفرعـيـ أوـ الجـزـئـيـ منها بالـأـصـلـ الـكـلـيـ أوـ الـعـامـ منـ أـصـوـلـ ابنـ مضـاءـ الـتـيـ صـدـرـ عـنـهـ. منـ ذـلـكـ مـثـلاـ رـبـطـ إـنـكـارـ تـقـدـيرـ ضـمـائـرـ الرـفـعـ الـمـسـتـتـرـةـ لـدـلـالـةـ الـفـعـلـ بـمـادـتـهـ وـاستـغـفـاءـهـ بـهـاـ عنـ فـاعـلـهـ بـنـقـضـ فـكـرـ الـمـعـمـولـاتـ الـمـحـذـوفـةـ .

♦ التـبـيـهـ عـلـىـ جـذـورـ تـلـكـ الـآـرـاءـ فـيـ رـأـيـ مـنـ كـانـ قـبـلـ اـبـنـ مـضـاءـ مـنـ عـلـمـاءـ، وـامـتـدـادـاتـهـ فـيـ آـرـاءـ خـالـفـيهـ مـنـ عـلـمـاءـ وـبـاحـثـينـ أوـ هـيـئـاتـ عـلـمـيـةـ، وـبـيـانـ أـثـرـهـاـ أوـ وـجـوـهـ التـقـاءـ آـرـائـهـ بـأـرـاءـ أـوـلـئـكـ الـبـاحـثـينـ أوـ تـلـكـ الـهـيـئـاتـ وـالـمـؤـسـسـاتـ، كـلـمـاـ وـجـدـ لـذـلـكـ سـبـيـلاـ، أوـ بـدـاـ لـهـ فـيـ بـدـوـ، وـكـانـ لـهـ فـيـهـ دـلـيـلـ وـمـسـاعـدـ.

ـ وإـذـ كـانـ ذـلـكـ مـاـ يـقـتضـيـهـ الـبـحـثـ الـعـلـمـيـ عـلـىـ وـجـهـهـ الـحـقـ، لـمـ فـيـهـ مـنـ بـيـانـ مـنـزـلـةـ هـذـاـ الرـأـيـ أوـ ذـاكـ، وـالـتـبـيـهـ عـلـىـ مـوـقـعـهـ فـيـ سـيـاقـهـ التـارـيـخـيـ ؛ فـإـنـ فـيـهـ نـفـحةـ مـنـ مـؤـازـرـةـ مـعـنـوـيـةـ أوـ نـفـسـيـةـ تـزـينـ هـذـاـ الرـأـيـ أوـ ذـاكـ فـيـ نـفـسـ الـقـارـئـ، وـتـلـقـيـ عـلـيـهـ صـبـغـةـ مـنـ قـبـولـ.

ـ كان من أمر د. ضيف في آخر كتبـهـ، إذا تـكـلـمـ عـلـىـ غـيـابـ الـفـاعـلـ فـيـماـ وـقـفـ عـنـدـهـ مـنـ قـرـاءـاتـ قـرـآنـيـةـ وـشـواـهـدـ شـعـرـيـةـ أوـ حـدـيـثـ نـبـويـ، أـنـ يـبـيـنـ غـرـضـ ذـلـكـ الـحـذـفـ أوـ الـغـيـابـ، وـهـوـ بـيـانـ وـقـوعـ الـفـعـلـ (ـالـحـدـثـ) لـاـ بـيـانـ فـاعـلـهـ.

ـ كان د. ضيف أحياناً يستغلّ بعضـ ماـ يـقـعـ لـهـ مـنـ أـقـوـالـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ وـأـفـكـارـهـ، يـنـمـيـهـ وـيـرـتـبـ عـلـيـهـ ماـ يـدـفـعـهـ إـلـىـ مـبـتـغـاهـ الـذـيـ يـحـدـوـهـ إـلـيـهـ فـكـرـةـ مـسـبـقـةـ، حتـىـ إـذـ وـصـلـ إـلـيـهـ لـاـذـ بـقـولـ اـبـنـ مـضـاءـ، يـفـسـرـ هـذـاـ التـوـجـيـهـ أوـ الرـأـيـ الـذـيـ أـنـبـهـ نـبـاتـاـ جـدـيدـاـ.

ـ وـقـعـ فـيـ كـلـامـ دـ.ـ ضـيـفـ هـنـاـ وـهـنـاكـ، خـلـالـ قـرـاءـتـهـ، مـنـ مـظـاهـرـ الـقـولـ وـالـبـحـثـ وـالـاسـتـدـلـالـ، مـاـ يـدـلـ عـلـىـ تـمـكـنـ رـأـيـ اـبـنـ مـضـاءـ مـنـهـ، وـاسـتـبـدـادـهـ بـهـ اـسـتـبـدـادـاـ كـانـ يـدـعـهـ إـلـىـ أـنـ يـسـلـطـ ذـلـكـ الرـأـيـ عـلـىـ بـعـضـ

الصيغ والتركيب والقراءات والشواهد الشعرية والنشرية كالسيف المصلَّت ، فإذا نظر القارئ في ذلك ثم نظر تراءى له الحياد أحياناً يقطر دماً أو يتلوى الملاً على سرير بروكرست prokrustes<sup>(١)</sup>.

- خالط قراءة د. ضيف ذلك الرأي شيء من تحريف ، فكان فيها شيء من الخطأ في الاستنتاج ، وزيادة ما لا أصل له على رأي ابن مضاء ، والارتفاع بالمحتمل والمرجوح إلى درجة اليقين والرجحان ، واختلاط ما لا يُشعر به كلام ابن مضاء البة ، بل ما يدل ذلك الكلام على خلافه . على أن كلامه في آخر كتابه (تيسيرات لغوية) يدلنا عند النظر والتأمل على رجوعه عن بعض ما ند عنه من ذلك قبل رجوعاً خفيّاً لا تصريح فيه .

- كان من أمر د. ضيف إذ قرأ ذلك الرأي أن يجترئ بعض كلام ابن مضاء ويقتصر عليه ، معرضاً عن معارضة جميع كلامه الموصول بذلك الرأي بعضه بعض حيث وجد . وهو ما أفضى حيناً بأخرة إلى رأي غير مُتقن ، ونتيجة غير محكمة .

- وقع في بعض كلام د. ضيف من مظاهر التحكم والتحيز والهوى ، ما كان يطلّ برأسه تارة فتارة . ومن ذلك مثلاً تزييف بعض الواقع تزييفاً يشوّه الحقيقة تزييناً لرأي ابن مضاء في أعين القراء ؛ واختلاف الرأي أو الحكم في الأشباه والظواهر ؛ والاستدلال بما لا يرقى إلى القطعي المحكم لتمكن الاحتمال والتقدير منه .

- ألمت ثنائية الرضا والسطح المبنية على نقائص غير متكافئين ظللاً لا تخفي على قراءة د. ضيف ، فكان الاحتفاء والحماس ، وكانت محسن الأوصاف والنعوت ، إذا ذكر رأي ابن مضاء وما كان له به صلة فعلاً أو اقتضاء ، وكان التقصص والانتقاد ، وكانت الأحكام أو الأوصاف السلبية ، إذا ذكر ما خالف ذلك الرأي وما كان ذا صلة به ، من آراء العلماء وتوجيهاتهم .

- تسلل إلى بعض كلام د. ضيف شيء من الحتمية ولزوم ما لا يلزم ، فرتّب مثلاً على قول الكسائي إن "ما" في صيغة التعجب "ما أفعله؟" حرف تعجب ، سقوط الفاعل أو تحفُّله ؛ ودلّ كلامه إذ تعقب بعض الآراء والأعاريض ، في بعض ما تكلّم به على "خلا ، وعدا ، وحاشا" ، وعلى صيغة التعجب "ما أفعله؟" دلالة اقتضاء على لزوم دلالة الإعراب أو التقدير النحوي على المعنى النحوي كالاستثناء أو البلاغي من خبر أو إنشاء . وكل ذلك غير لازم .

- اختلف تلقّي د. ضيف لذلك الرأي بين كتبه الخمسة إِمَّا في أصل الموقف رفضاً وقبولاً، وإِمَّا في الصفة والدرجة، فكان يتقلّبُ في ذلك من حال إلى حال في حركة دائريّة، من القَبول إلى الْحِياد، فتجاهلِ الرافض المتخفي بالصمت، فالرفض الصريح المسلح بالنقد، فالقبول الحسن والاحتفاء الكبير والاتساع في التطبيق. وبذلك التقى حداً هذه الدورة من التلقّي ابتداءً وانتهاءً في القبول، وتبالينا فيه صفةً ودرجةً.

- مدُّ. ضيف الفكرَة التي قام عليها رأيُ ابن مضاءٍ عن اجتهاد واتساع في التطبيق - وهو أثُرٌ من أثر التلقّي العميق، وضرب من الاجتهاد في التعبير عن حسن القبول، واستيعاب الفكرَة - قاده تدريجيًّا أو دفعَةً واحدةً إلى اخلاق ما لا عهد للناس به من آراءٍ أو توجيهات جديدة. من ذلك مثلاً ما انتهى إليه من أنَّ "ما" في صيغة التعجب "ما أفعله؟" حرف تعجب لا محلٌّ له من الإعراب ، وال فعل بعده لا فاعل له ، فارغ من الضمير ؛ وما رأه من أنَّ الفعل في صيغة التعجب الأخرى "أفعلْ به؟" فعل تعجب لا فاعل له.

- سرى الاختلاف في رأي د. ضيف في بعض مسائل العربية التي ترددت في بعض كتبه، إما عن قصد بعد مراجعة ونظر، وإما عن شدید ولع برأي ابن مضاء، وانسياقٍ غير منضبط في تطبيق ذلك الرأي في بعض الكلام .

وإذا أراد المرء هنا أن يتبيّن رأيَ د. ضيف المعتمدَ في مسألة من تلك المسائل التي تعدد فيها رأيهُ أو اختلفَ، كان عليه أن يعوّلَ على ما كان في آخر كتبه (تيسيرات لغوية) إماً وُجْد، وكان كلامُه عليه مفسّراً معلّلاً جمع له فيه أدلةه. وهذا ما تراه مثلاً في كلامه على "خلا، عدا، حاشا" التي آمن بفعاليتها واستغنائها عن فاعلها بمادتها بعد أن جَحَدَ ذلك وعدّها أدوات استثناء يُنصَبُ ما بعدها على الاستثناء، وعلى صيغتي التعجب : "ما أفعله ! وأفعل به !" اللتين أفرَغَهما من الفاعل ؛ وعلى منْع نية الْجَارِ وال مجرور عن الفاعل إذا اقتصر الفعل المبني للمجهول عليهما.

نَدَّ عَنْ دِ. ضَيْفَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ عَلَى بَعْضِ مَسَائلِ الْعُرْبِيَّةِ شَيْءٌ مِنْ سَهْوٍ أَوْ غَفْلَةٍ، وَوَرَدَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ الْخَطَا فِي نَسْبَةِ بَعْضِ الْأَقْوَالِ وَالآرَاءِ صَدَرَ فِيهِ عَنْ تَقْليِدٍ وَمَتَابِعَةٍ مُفَتَّرَةٍ إِلَى التَّحْقِيقِ. وَكُلُّ أُولَئِكَ مَا نَبَهَتْ عَلَيْهِ حِيثُ أَمْكَنَ أَوْ انْبَغَى.

- لم تكن قراءة د. ضيف في بعض جزئياتها ومتلقياتها، إذ قرأ رأي ابن مضاء، في كتبه الخمسة، على حال ثابتة تأسرها كينونة واحدة، بل كانت متفاوتة متغيرة تحركها صيرورة دائمة دالة على تطور رأي د. ضيف أو فكره النحوي بين حين وآخر، وتنم على نظر ومراجعة. والله تعالى أعلم.

## المصادر والمراجع

- ارتشاف الضرب، أبو حيان الأندلسي، تحرير: د. رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط ١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م. - الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢ م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، تحرير: د. جودة مبروك، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢ م.
- بغية الملتمس، الضبي، تحرير: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط ١، ١٤١٠ هـ، ١٩٨٩ م.
- بغية الوعاة، السيوطي، تحرير: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط ٢، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.
- تجديد النحو، د. شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، ط ٣، ١٩٩٠.
- التذليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيّان الأندلسي، تحرير: د. حسن هنداوي، الجزءان الرابع وال السادس، دار القلم - دمشق، ط ١، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠٢ م.
- تيسيرات لغوية، د. شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، ط ١، ١٩٩٠.
- تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً، مع نهج تجديده، د. شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، ط ٢، ١٩٩٣.
- الجمل في النحو المنسوب إلى الخليل، تحرير: د. فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م.
- خزانة الأدب، البغدادي، تحرير: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط ٣، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦ م.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ابن فردون المالكي، تحرير: مأمون الجنان، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م.
- ديوان الإمام عليّ، جمعه وضبطه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الذيل والتكملة، ابن عبد الملك، تحرير: محمد بن شريفة، السفر الأول، القسم الأول، دار الثقافة - بيروت.
- الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، تحرير: د. شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨.
- شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق: يوسف عمر، جامعة قاريونس - بنغازى، ط ٢، ١٩٩٦ م.

- غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، تحرير: برجستراسر، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م - كشف الظنون، حاجي خليفه، دار إحياء التراث العربي - بيروت، مصورة من طبعة إستانبول.

- الكلمات، أبو البقاء الكفوبيّ، تحرير: د. عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة ناشرون - بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

- الحتسبي، ابن جني، تحرير: علي النجدي ناصف، د. عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف - القاهرة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

- مجالس ثعلب: أحمد بن يحيى، تحرير: عبد السلام هارون، دار المعارف - القاهرة، ط ٢، ١٩٦٠.

- مختار تذكرة أبي علي الفارسي وتهذيبها، ابن جني، تحرير: د. حسين بو عباس، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط ١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١٠م.

- مختصر النحو، ابن سعدان الكوفي، دراسة وتحقيق: د. حسين أحمد بو عباس، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الرسالة ٢٣٧، ٢٦، الحولية ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م - المدارس النحوية، د. شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، ط ٧، ١٩٩٢م.

- معاني القرآن، الفراء، تحرير: محمد علي النجار، أحمد يوسف نجاتي، عبد الفتاح شلبي، عالم الكتب - بيروت، ط ١، ١٩٨٠م.

- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

- المنصف شرح كتاب التصريف، ابن جني، تحرير: إبراهيم مصطفى، عبدالله أمين، وزارة المعارف، إدارة الثقافة العامة - القاهرة، ط ١، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م.

- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف - القاهرة، ط ٤.

- النواذر في اللغة، أبو زيد الأنباري، تحقيق ودراسة: محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق - بيروت والقاهرة، ط ١، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

- همع الهوامع، السيوطي، تحرير: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.



# شيخ زاده في ضوء شرحه لقواعد الإعراب

د. إسماعيل مروة

مُحيي الدين محمد بن مصلح الدين القوجوي(١)، والقوجة كما أفادني أحد العارفين باللغة التركية(٢)، تعني الشيء الكبير، والشيخ الكبير المسن، والعالم الكبير أيضاً. ولعل هذا الأخير هو الأقرب إلى شارحنا شيخ زاده، لأنه كان معلماً متصدراً للإقراء، وهذا الرأي يفسر لنا أيضاً كثرة ورود هذه النسبة في أسماء العلماء الأتراك في تلك الحقبة. واستعراض سريع لأعلام كتاب "الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية" لطاشكيري زاده، يبين هذا الأمر بجلاء ووضوح.

وقد أجمعت المصادر جميعها على تسميته.

## حياته

إن شيخ زاده، شأنه شأن كل العلماء المتأخرين، غير العرب خاصة، لم يلق العناية التي يستحقها في كتب التراجم، فلا ذكر لتاريخ مولده، ولا إشارة إلى عمره وكم عمر، ولا إلى الأشياء الخاصة في حياته العلمية.

ونحن إن شئنا أن نستقي ترجمة وافية لحياة هذا العلم فإننا سنبدأ من كتاب "الشقائق النعمانية"، وهو أقرب المؤلفين إليه روحًا وزماناً، ثم ننتقل إلى الكتب التي أخذت عن "الشقائق" ترجمته جملة، دون أي زيادة مثل: "الكتاكيب السائرة" و"شدرات الذهب" و"الأعلام" و"معجم المؤلفين".

فما كتبه معاصره المتأثر به طاشكيري زاده، هو المصدر الأول لترجمته بل الأوسع.

"العالم العامل الفاضل الكامل محيي الدين محمد ابن الشيخ العارف بالله تعالى مصلح الدين القوجوي،" قرأ على علماء عصره، ثم وصل إلى خدمة المولى الفاضل ابن أفضل الدين، ثم صار مدرساً بمدرسة خواجة خير الدين بمدينة قسطنطينية، وتزوج بنت الشيخ العارف بالله الشيخ محيي الدين القوجوي، ثم غالب عليه داعية الفراغ والعزلة، وترك التدريس، وعيّن له كل يوم خمسة عشر درهماً بطريق التقاعد وكان - رحمه الله تعالى - يستكثر ذلك ويقول : يكفيوني عشرة دراهم ، ولازم بيته واحتفل بالعلم الشريف والعبادة ، وكان متواضعاً متخفشاً ، مرضي السيرة ، محمود الطريقة ، وكان محباً لأهل الصلاح ، وكان يشتري من السوق حوائجه بنفسه ، ويحملها إلى بيته بنفسه ، مع رغبة الناس في خدمته ، وهو لا يرى إلا أن يباشره متواضعاً الله تعالى ، وهضمياً للنفس ، وكان يروي التفسير في مسجده ، ويجتمع إليه أهل البلد ، ويستمعون كلامه ، ويتركون بأنفاسه ، وانتفع به كثيرون"(٣) زاد صاحب "الشقائق النعمانية" في ترجمته ما يتصل به مباشرة فقال : (وكانت له محبة عظيمة لهذا العبد الفقير ، وأنه من جملة ما افتخرت به ، وما اختارت منصب القضاء إلا بوصيته منه ، وكان قد أوصاني به)(٤). ونقل صاحب "الكتاكيب السائية" هذه الترجمة من "الشقائق" وكذلك فعل ابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب" وصاغ قول طاشكيري "ومن أخذ عنه صاحب الشقائق" قال : وهو من جلة من افتخرت به ، وما اختارت منصب القضاء إلا بوصيته منه"(٥). "فالشقائق" هو المصدر الأول لترجمته ، وعنده أخذ من جاء بعده وكان كلامهم تردیداً لما قال .

ولم تذكر المصادر عن أخذ شيخ زاده علمه ، واكتفت بقولها عن جملة علماء عصره .

ولم تذكر من طلابه أحداً اللهم إلا ما جاء من كلام ابن العماد عن طاشكيري ، والمرجح أنه لم يأخذ عنه أخذ العلم ، فهما معاصران ، متقاربان علمًا ، ووفاة .

وربما فسر رأيه في اختياره للقضاء بالأخذ عنه ، وأنا لا أرجح ذلك كما أني لا أتفق ، وهو للثاني أرجح .

وهذا من الجوانب المغفلة في حياته ، وحياة غيره من علماء هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية .

أما وفاته فتجمع المصادر على أنها كانت عام ٩٥٠ هـ ، غير أن الزركلي ذكر أن وفاته كانت عام ٩٥١ هـ(٦) ، وهذا وهم لست أدربي مصدره ، والأصح ما ذكره أحد معاصريه ، صاحب "الشقائق" عن وفاته وهو أقرب المؤرخين إليه ، وعنده نقل من جاء بعده من المؤرخين .

**مكانته العلمية :**

مع أن المصادر لم تذكر شيئاً عن حياته العلمية إلا أن الظاهر من ترجمته أن حياته كانت مليئة بالعلم، فهو مدرس، درس وحصل، وهو بعد ذلك متفرغ للعلم الشريف والكتابة.

وإن لم يصلنا الكثير عن تفصيلات حياته العلمية، إلا أن مؤلفاته التي وصلتنا تبين مكانته، فهو من تصدى لكتب صعبة فشرحها وقربها للناس في الفنون المختلفة.

وأجمع المصادر التاريخية، وكتب الفهارس أن حاشيته على "تفسير البيضاوي" من أجل كتبه، بل من أجل حواشي "أنوار التنزيل". فشيخ زاده واحد من العلماء المشاركين، والمدرسين العاملين بعلمهم، وما أخلاقه، وتواضعه وزهره، إلا شواهد عدل على علمه، وعمله بهذا العلم.

وكتبه من بعد تشهد بهذه المكانة، ويضاف إليها اليوم كتاب جديد لم تلتفت إليه كتب الفهارس قديماً: "شرح قواعد الإعراب".

**مذهب النحوى :**

درجت العادة أن يُحدد المدرس مذهب مؤلف كتابه الذي يدرسه، وذلك من خلال استقراء النص، وتحقيق آراء المؤلف في الكتاب المدروس، وتحديد اتجاه هذه الآراء.

وغالباً ما يقتصر هذا التحديد على مدرستي البصرة والковفة، وهما المدرستان الشهيرتان في النحو العربي، وهناك من يحاول إثبات وجود مدارس أخرى كالبغدادية والشامية والأندلسية.

لكن التابع لهذه المدارس يجد أنها تدور في فلك المدرستين الأساسيةن في النحو العربي؛ البصرية والkovفية.

ولن أتبع في هذا الفصل دراسة نشوء المدرستين وأعلامهما فذلك أمر تاريخي بحت لا مسوغ له هنا، وكل ما يهمنا هو أن ندرس الكتاب خاصة، ولذلك الأبحاث التاريخية مجالاتها الأخرى.

إن ما سأفعله هو تحديد مذهب شارح "قواعد الإعراب" (شيخ زاده) وهذا أمر لابد منه، وعليه سيقوم فيما بعد تحديد موقفه من الاحتجاج والاستشهاد، الذي هو أساس الخلاف وأساسه بين أتباع هاتين المدرستين الجليلتين.

إن خلافات كثيرة قائمة بين أصحاب هاتين المدرستين، في القياس والسماع، وغيرهما، ومن خلال استقراء آراء المؤلف في هذه الأمور يتم تحديد هوية المؤلف النحوية.

شيخ زاده، إلى أي من المدرستين ينتمي، أو على الأصح نقول نحو أي مدرسة ينحو شيخ زاده؟

إن النص الذي ندرسه "شرح قواعد الإعراب" يحدد لنا مذهب الشارح من خلال استقرائه، وتحديد مصادره، فالكتب التي عاد إليها واحتج بها تبين مذهبها.

فأكثر كتب شيخ زاده من كتب البصرية، وهو يحتاج بها موافقاً<sup>(٧)</sup>. مثل كتب سيبويه، والمبرد، والأخفش.

أما عندما يورد كتب الكوفيين، فإنه يوردها معززة لقاعدة حسب أصول البصرية، أو لنقض ما جاءت به.

ومنهجه يظهر لنا مذهبة أيضاً<sup>(٨)</sup>، فشيخ زاده يضيق على نفسه في الشواهد، شأنه في ذلك شأن أصحاب المدرسة البصرية، فshawahdeh تندرج على الشكل التالي :

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - الشعر العربي.
- ٣ - الأقوال.
- ٤ - الحديث الشريف.

فهو لم يأخذ من الأحاديث الشريفة إلا بأقل القليل مع أنه متاخر، وعدد من المؤخرين توسعوا في الاستشهاد في الحديث<sup>(٩)</sup> كابن مالك. أما استقراء النص فإنه يبين ميله إلى المذهب البصري بجلاء ووضوح، فهو يذكر القاعدة النحوية حسب المذهب البصري، دون إشارة إلى الخلاف، إن لم يكن هناك من خلاف، ويعود ليقول في مكان آخر : أما الكوفيون فيقولون كذا..

وكذلك يورد مذهب سيبويه حجة، ويورد بعد ذلك رأي الكسائي والفراء وغيرهما مرجحاً رأي سيبويه، وهكذا..

ومن عباراته الدالة على مذهبة :

يقول الشلوين أحد شيوخ الكوفيين.

أما عند الكوفيين والأخفش منا.

خلافاً للkovfeen.

الجمهور = البصرية.

فعندما حدد أن الشلوين من شيوخ الكوفيين، فقد دفع مذهبة عنه على غير عادته في الرسالة، وكذلك العبارات التالية.

وفي الرسالة عموماً يطلق عبارة النحاة والجمهور على البصرية.

أما في قواعد الاحتجاج، فإننا نلمس ذلك من خلال موقفه من السمع والقياس.

فهو يعتمد السمع: نقلأً عن الارتشاف.

وكذلك القياس: على غير القياس.

لا يقاس على الشاذ.

والشذوذ يورد بعضه، ولا يقيس عليه.

فضيل يفضل: تداخل الأبواب التصريفية: شاذ.

دخول حتى الناصبة على المضمر يجوزه المبرد، وهو شاذ.

حذف حرف العطف مع ذكر المعطوف فشاذ نادر.

وهو لا يقيس على اللغات كلها، وإنما يذكر تلك اللغة، دون أن يقيس عليها وهذا لا يعني أن (شيخ زاده) أخذ بالمدرسة البصرية وحسب، بل إننا نجده شأنه في ذلك شأن النحاة المتأخرین، يأخذ من المدرسة الأخرى من مبدأ التوفيق بين المدرستين. والسبب في ذلك يكمن في أن الشارح مفسر وفقيه قبل أن يكتب في النحو وشرحه، وهذه الطائفة من العلماء لها موقف في الاحتجاج والحكم عليه.

والمفسرون وإن لم يأخذوا بالقراءات الشاذة في التعبد، إلا أنهم يأخذون بها للاستشهاد النحوي، لأن مادة القراءات تشكل عندهم مادة كبيرة من الشواهد التي تسمو إلى أعلى درجات الفصاحة.

فالاحتجاج عنده يبدأ بإجماع أهل البصرة والковفة، ثم بما انفرد به مدرسة البصرة، وما هو مقنع من آراء الكوفيين.

أما القياس على الشاذ فإنه يذكره ولا يأخذ به كما في نصب الفعل بعد (لم) عند بعض العرب.

وإذا تعارض القياس والسمع، أخذ بالسمع غير الشاذ كمذهب البصريين والفصاحة عنده كما عند أغلب علماء اللغة:

فقریش أولاً، وقیس، وتمیم، وأسد، وهذیل..

وقد اتفق مع النحاة بأن البصريين أصحّ قياساً، لأنهم لا ينتفتون إلى كل مسموع، ولا يقيسون على الشاذ، والkovfion أوسع روایة في ذلك (١٠).

## الاستشهاد في الشرح:

حدد النحاة الاستشهاد في اللغة بـ:

القرآن، القراءات، وفيها خلاف، الحديث الشريف، الشعر، النثر.

القرآن والقراءات القرآنية:

يحدد السيوطي في "اقتراح" كيفية الاحتجاج بالقرآن وقراءاته، رابطاً ذلك الاحتجاج بالسماع والقياس

فقال:

"أما القرآن فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواتراً أم آحاداً أم شاذًا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تختلف قياساً معروفاً، بل ولو خالفته يتحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه، وإن لم يجز القياس عليه" (١١).

ومن المعاصرين يقف الأستاذ سعيد الأفغاني في كتابه "في أصول النحو" من قضية القراءات موقف السيوطي، فقال في هذا المجال:

"لم يتوفّر لنص ما توفر للقرآن الكريم من تواتر روايته، وعنّية العلماء بضبطها وتحريرها متناً وسندًا، وتدوينها بالمشاهدة عن أفواه العلماء الأثبات الفصحاء والأنبياء من التابعين عن الصحابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فهو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطريق التي وصل إليها في الأداء والحركات والسكنات، ولم تعنّ أمّة بنص ما اعتنى المسلمين بقرائهم، وعلى هذا يكون هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به" (١٢). أما فيما يخص القراءات فقد قال الأفغاني وهو يرى عزوف النحاة عن الاستشهاد بها:

"وبعد، فقراءات القرآن جميعها حجة في العربية متواترها وأحادادها وشاذها، وأكبر عيب يوجّه إلى النحاة عدم استيعابهم إياها، وإضاعتهم على أنفسهم ونحوهم مئات من الشواهد المحتاج بها، ولو فعلوا لكان قواعدهم أشد إحكاماً" (١٣).

الخلاف بين النحاة كبير حول الاستشهاد بالقراءات، وكذلك الخلاف بين النحاة والقراء، وليس المجال هنا لدراسة هذا الخلاف والبتّ فيه، خاصة وأن العلماء لم يصلوا إلى نتيجة واضحة موحدة.

إن ما يهمنا هو موقف شيخ زاده من هذا الخلاف، فهو يستشهد بالقرآن استشهاداً كاملاً في (٢٢٠) موضعًا، يأخذ بالقراءات المتواترة وقراءات الآحاد والقراءات الشاذة أيضًا، أما المتواترة فهي مثبتة في الكتاب كاملاً، أما الآحاد والشاذة، فهي في مواضع محددة بـ (١٤) مواضعًا في الرسالة، لكن اللافت للنظر

أن الشارح لم يُشير إلى كون هذه القراءة شاذة أم لا، بل ذهب شيخ زاده إلى الاستشهاد بقراءات شاذة لم تحوها كتب القراءات الشاذة، ولدى العودة إلى المظان وجدت هذه القراءات جميعها في تفسير أبي حيyan الأندلسyi "البحر المحيط" الذي يشير إلى شذوذها، بينما لم يفعل ذلك شارح الرسالة<sup>(١٤)</sup>.

ومن ذلك يتضح مذهب الشارح، فهو يحتاج بالقرآن وقراءاته جميعاً دون أي حرج كما اعتاد النحاة من قبل حيث اقتصروا على المتواترة كسيبوية وغيره من أئمة النحو قدماً.

### **الحديث الشريف:**

في الاستشهاد بالحديث الشريف خلاف بين النحاة، لكن الإجماع كان على عدم الاستشهاد إلا بما صح نقله عن النبي صلى الله عليه وسلم لفظاً.

"انقسم اللغويون فيما يروى من الأحاديث فريقين : فريقاً غالب على ظنه أنه لفظه - عليه السلام - ، فأجاز الاحتجاج بها ، وفريقاً غالب على ظنه أنها مروية بالمعنى لا باللفظ ، وإذا لا يحيز الاحتجاج بها"<sup>(١٥)</sup>.

والسيوطى في "الاقتراح" يبين أسباب عدم الاحتجاج به ، مع رأى المدرستين بقوله :

"أما كلامه صلى الله عليه وسلم فيستدل منه بما ثبت أنه قال على اللفظ المروي ، وذلك نادر جداً، إنما يوجد في الأحاديث القصار على قلة أيضاً . فإن غالب الأحاديث مروي بالمعنى ، وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها ، فرووها بما أدت إليه عبارتهم ، فزادوا ونقصوا وقدموا وأخرجو وأبدلوا ألفاظاً بأخرى .

البصريون والkovfion لم يستدلوا بالحديث النبوي كثيراً ، وإن فعله بعض المتأخرین کابن مالك"<sup>(١٦)</sup>. ومنهج الشارح هو منهج التحويین القدامی من أتباع المدرستین ، لم يستشهد بال الحديث الشريف إلا في موضع محددة ، كاستشهاده به على لغة "أكلوني البراغيث" في حديث "يتناقبون فيكم"<sup>(١٧)</sup>.

وقد ألمع إلى رأي ابن مالك ومن تبعه في الاستشهاد بالحديث ، لكنه لم يأخذ به ، وليس ذلك إلا من باب الخوف والخشية والحيطة.

### **الشعر:**

أجمع النحاة على الاستشهاد بالشعر المؤثوق المعروف قائله ، وأسقطوا من شواهدهم الشعر غير معروف القائل<sup>(١٨)</sup>. وحددوا ذلك بزمان ومكان محدثين ، لكن ذلك لا يعني أنهم لم يخربوا هذه القاعدة ، ففي سيبوية عدد غير قليل من الشواهد مجهلة القائل ، وأخرى مروية بروايات متعددة ، وثالثة متنازعة بالنسبة .

والشارح في شرحه تبع المنهج نفسه في الاستشهاد، فأخذ بهذه القواعد لكن بغير صرامة ونرى ذلك من خلال هذا الجدول :

عدد الشواهد الشعرية ٢٩ شاهداً.

عدد الشواهد معروفة القائل ١٨ شاهداً.

عدد الشواهد غير معروفة القائل ٧ شواهد.

عدد الشواهد متنازعـة النسبة ٤ شواهد.

فالشارح بقي على المنهج الذي جاءه من السابقين في استشهاده ورؤيته نسبة الشواهد، وتماشيها مع القاعدة تؤكد تمسكه الشديد بالقواعد التي وصلته، وربما كان السبب الرئيسي في ذلك أنه لم يصل مرتبة الاجتهد التي تسمح له بأن يختلط طريقاً خاصة كما فعل ابن مالك، مع أنه يعرف ذلك ويدركه.

### النثر:

استشهاد النحاة بالنشر الذي قاله الفصحاء، ورواه الثقات (١٩) والشارح اكتفى بهذا الشرط ، وبقي ملازماً له في رسالته ، وقد اكتفى في شرحه بالاستشهاد بـ :

قولين لسيدنا عمر رضي الله عنه (٢٠).

قولين لسيدنا علي كرم الله وجهه (٢١).

ثلاثة أمثال (٢٢).

ذكر هذه الشواهد ، وهي من أقوال الفصحاء ، وروها النحاة في كتبهم وقد روی مجموعة أخرى من الأقوال النثيرة التي تداولتها النحاة في كتبهم من سيبويه إلى يومنا ، من مثل : قام زيد.. وغيرها من كلام النحاة الذي صيغ من أجل تعزيز قاعدة ، أو تأكيد حكم نحوـي ، لم أقف مع هذه الأقوال لعدم الضرورة ، ولأنـ شيخ زاده كما أشرت كان ناقلاً لآراء النحاة ، جاماً لها ، مردداً لعباراتـهم.

فشيخ زاده من أتباع المذهب البصري في الأخذ بأصول النحو ، من سماع وقياس واحتجاج ، وكذلك من أتباعـه في الاستشهاد ، لكنـه توسع في ذلك قليلاً ، في القراءات خاصة أخذـاً بمذهب ابن جـني في الاستشهاد بالقراءات القرآنية مهما كانت نوعيتها ؛ متواترة ، أم آحادـاً ، أم شـادة.

ولذلك المذهب ما يُسوغـه عند القدماء ، والمحدثـين ، من ابن جـني إلى أبي حـيان الذي أخذـ بما عنده في "البحر المحيط" إلى المرادي الذي اعتـد بذلك في "توضـيـح المقاصـد والمسـالـك" وقد أخذـ ذلك عن أبي حـيان

بإشارة إليه، وبغير إشارة وكذلك شارحنا المتأثر بالمرادي وأبي حيان معاً، وقد ظهر ذلك واضحاً في كتابيه:  
"حاشيته على أنوار التنزيل" و"شرح قواعد الإعراب".

وبذلك يتضح لنا أنه كان من أتباع الأصول النحوية، لم يشاً أن يخرج عن إجماع النحاة، وإن وفق بين المذاهب أحياناً، في كثير من الدقة والأمانة العلمية في عزو الآراء إلى أصحابها..

## آثارہ:

لشيخ زاده مصنفات عديدة، متنوعة الاتجاهات، في الفقه واللغة والشعر والفرائض والتفسير، وهذا ما سأقف عنده وهو يحمل أكثر من دلالة على غزارة علمه، ومشاركته العلمية.

والمتبوع لهذه المصنفات يلحظ أنها جميعها تنتهي إلى كتب الأملئيات العلمية، والسبب في ذلك ينبع من قيادة دفة التدريس، وهذه المهنة تقتضي من صاحبها أن يعطي من كل علم طرفاً، خاصة في تلك الحقبة التي لم يكن الاختصاص ذات قيمة فيها، بل كانت المشاركة في العلوم هي الدالة على طول باع المدرس، وحسن تعليمه.

وقد ذكر له صاحب الكشف (٢٣):

١ - "حاشية على أنوار التنزيل للبيضاوي"، ذكر حاجي خليفة هذا المصنف في مواضع عدّة من كتابه، وذكر أن هذا الكتاب "حاشية شيخ زاده" هو أفضل حواشي "أنوار التنزيل" من بين الحواشـي الكثيرة التي كُتـبت على "تفسير البيضاوي" وفي ذلك دلالة على مكانة "الشارح" في عالم التفسير والتصنيف..

وفي الوقت نفسه أشار حاجي خليفة، وغيره من مؤرخي الكتب العربية إلى أن هذا الكتاب "حاشيته على أنوار التنزيل" أفضل مصنفاته، وعند العودة إلى مصنف شيخ زاده هذا ما شدني إليه فالكتاب على قدر كبير من الأهمية، وفيه الكثير من العلم الدال على المشاركة وقد طبع هذا الكتاب في أوائل هذا القرن، وعرفه الباحثون، وقد روه حق قدره، ووضع في مكانه اللائقة بين كتب التفسير وحواشيها.

ولعل هذا الكتاب هو السبب الأول في شهرة شيخ زاده، ورفعه إلى مرتبة الشرّاح الكبار، في الوقت الذي كثرت فيه كتب الحواشى.

وقد رد ذكره المصنفوں مثل: (معجم المطبوعات العربية لسرکیس - ومعجم الأعلام للزرکلی - ومعجم المؤلفین لکحالہ..).

حتى إن كتب التراجم نسبت شيخ زاده إليه، وأضفت صفة الكتاب على الكاتب فذكر كحالة : "مفسر، فرضي، مشارك في بعض العلوم، كان مدرساً بالقدسية" (٢٤) ونقل الزركلي في أعلامه نقاً عن حاجي خليفة قوله :

- "هي أعظم الحواشي فائدة وأكثرها نفعاً، وأسهلها عبارة"(٢٥).
- شرح "مفتاح العلوم" للسكاكبي، وهو واحد من أهم كتب هذا الفن وأشهرها تصدى شیخ زاده لشرحه، وقد أشار إلى هذا الشرح في "شرح قواعد الإعراب".
- وهو من دلائل مشاركة شیخ زاده، وغزاره علمه، وقد ذكرته كتب الفهارس والتراجم(٢٦).
- شرح "مشارق الأنوار النبوية من صاحب الأخبار المصطفوية"(٢٧) للصاغاني وقد سماه الزركلي (حاشية)، والشرح والحاشية في تلك الحقبة المتأخرة أخذنا اسماً واحداً، مع أن الشرح أرفع رتبة عند المصنفين القدامى من الحاشية. حتى إن التأليف في هذا العصر عُرف بتأليف الحواشي والشروح، مدحًا كان أم ذمًا.
- شرح "وقایة الروایة فی مسائل المدایة"(٢٨) فی الفقه الحنفي، وشیخ زاده من الفقهاء الأحناف، وقد أسهم إسهاماً كبيراً فی إغناء مکتبة الفقه الحنفي بعدد من الكتب والشروح، وهذا واحد من كتبه المهمة فی هذا الباب، كما نقل أصحاب الفهارس والتراجم.
- شرح "الکواكب الدریة فی مدح خیر البریة"(٢٩) للبوصيري، المعروفة بـ: "البردة وهي من مشارکاته البلاغية والشعرية معاً، وهذه القصيدة من أهم قصائد المدح النبوی، وهي من أشهر تلك القصائد التي عرفت فيما بعد باسم "البدیعیة" وذلك لاهتمامها الكبير بالجانب البدیعی فی هذا الجانب(٣٠).
- تعليق على "المدایة فی الفروع" للمرغینانی الحنفی(٣١)، وهو من إسهاماته فی الفقه الحنفی أيضاً.
- شرح "الفرائض السراجیة"(٣٢)، وهو من الكتب المشهورة فی بابه أيضاً، ويعزز نسبة شیخ زاده الفقهیة.
- "شرح قواعد الإعراب" لابن هشام وهو الكتاب الذي أقدمه فی هذه الدراسة، ولم تشر الكتب إلى هذا الكتاب غير إشارات لا تروي غلة، لكن المخطوطتين نسبتاً إلى شیخ زاده.
- وقد جمع فی هذا الكتاب مجموعة علومه التي سبق ذكرها وأهمها، بل جلها فی التفسیر والفقہ.
- لابد فی هذه الوقفة مع مؤلفات (مصنفات) شیخ زاده من تسجيل ملاحظات وتعليق حولها:
- ١- ليس في تأليف (شیخ زاده) إبداع تأليفی خاص به، أي لم ينشئ المصنف كتاباً خاصاً به، وإن حملت كتبه شيئاً من بصمته الخاصة، لكن الحق أنه كان فی تصانیفه مرتكزاً علی غيره.
  - ٢- مصنفاته عديدة، والعلوم التي تعلمها وعلمتها متنوعة، لكن طابعها العام فقهي تفسيري.

- ٣- مصنفات شيخ زاده كافة تحمل اسم شرح أو حاشية فهو من المحسنين الشارحين، وهذا الصنف من المؤلفين لا يبلغ درجة الإمامة مهما بلغ.
- ٤- أثر مهنته التدريسية ، - وقد كان أستاذًا في استانبول- في مؤلفاته واضح للغاية ، وذلك من خلال النوعية ، وقد ألفت لتقرير مؤلفات الأصول إلى الطلاب الذين يجلسون إليه في حلقة التدريسية.
- ويظلم كثير من النقاد مثل هذه النوعية من التأليف ، ويعدونها هامشية لا قيمة لها ، ويعدها آخرون عظيمة في مرتبة التأليف ، لكن الحق يقتضي أن تأخذ مكانها السليم ، فهي ثقافة عصر ، ومنهج جيل من المؤلفين المصنفين ، ولو حاولنا إحصاء أسماء الشروح لأعجزنا ذلك.
- وكم من الشروح ضاعت لأنها ليست أصلية ، وكم منها عاشت لأنها تحمل بصمة الشارح ، ولا ريب في أن سمعة شروح شيخ زاده الجيدة ، جعلتها من الطائفة التي ترقى لتلقي التأليف ، وإن أدنى درجة.



**هوما مش:**

- (١) كذا جاء اسمه في المصادر التي ترجمت له ، وترجمته في "الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية" ٢٤٥ ، و"الكوكب السائرة في أعيان المئة العاشرة" ٥٩/٢ ، و"شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ٣٢/١٢ . ٤٠٩ ، و"معجم المطبوعات العربية" ١١٦٦/٢ ، و"الأعلام" ٩٩/٧ ، و"معجم المؤلفين" ١٢/١٠ .
- (٢) الأستاذ الحقق إبراهيم صالح.
- (٣) ترجمته كما في "الشقائق النعمانية" ٢٤٥ .
- (٤) "الشقائق النعمانية" طبعة د. أحمد صبحي فرات ، واستعنت بها لأنها أفضل من حيث الفهرسة والدقة ، وقد أطلعني عليها المحقق الفاضل محمود الأرناؤوط ، بعد أن اصطحبها من تركيا.
- (٥) "شذرات الذهب" : ٤١٠/١٠ .
- (٦) "الأعلام" : ٩٩/٧ .
- (٧) "الكتب الواردة في المتن" يدل عليه.
- (٨) للموازنة بين أنواعها وكثثرتها.
- (٩) للتوسيع في "أصول النحو" للأستاذ سعيد الأفغاني : ٤٧ وما بعدها.
- (١٠) تفصيل الآراء في القياس والسماع ، والشاذ ، والفصاحة ، والاحتجاج في "الاقتراح" للسيوطى : ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، فلينظر الحديث النظري هناك.
- (١١) "الاقتراح" السيوطى : ٣٦ .
- (١٢) "في أصول النحو" سعيد الأفغاني : ٢٨ .
- (١٣) "في أصول النحو" : ٤٥ .
- (١٤) مواضع القراءات في شرحه.
- (١٥) "في أصول النحو" : ٤٧ .
- (١٦) "الاقتراح" : ٤٠ .
- (١٧) الحديث ص ٤٦ ، وفي رواية أخرى سقط الاستشهاد به.
- (١٨) "الاقتراح" : ٥٥ .

- (١٩) "الاقتراح" .٥٥.
- (٢٠) "الشرح" : ٩٤ - ١٣٤ .
- (٢١) "الشرح" : ٤٣ - ١٣٧ .
- (٢٢) "الشرح" : ٩ ، ٢٥ ، ١٦٠ .
- (٢٣) "الشرح" : ٩ ، ٢٥ ، ١٦٠ .
- (٢٤) كشف الظنون: ١٨٨ ، ١٢٤٧ ، ١٢٣٢ ، ١٦٨٩ ، ١٧٦٤ ، ٢٠٢٢ ، ٢٠٣٨ .
- (٢٤) "معجم المؤلفين" عمر رضا كحالة : ٣٢/١٢ .
- (٢٥) "الأعلام" للزركلي : ٩٩/٧ .
- (٢٦) "كشف الظنون" : ١٧٦٤ ، "الأعلام" : ٩٩/٧ ، "معجم المؤلفين" : ٣٢/١٢ .
- (٢٧) "كشف الظنون" : ١٦٨٩ ، "الأعلام" : ٩٩/٧ .
- (٢٨) "كشف الظنون" : ٢٠٢٢ ، "الأعلام" : ٩٩/٧ ، "معجم المؤلفين" : ٣٢/١٢ .
- (٢٩) "كشف الظنون" : ١٢٣٢ ، "الأعلام" : ٩٩/٧ ، "معجم المؤلفين" : ٣٢/١٢ .
- (٣٠) لمزيد دمن التفصيل انظر "البدعيات في الأدب العربي" تأليف علي أبو زيد.
- (٣١) "كشف الظنون" : ٢٠٣٨ .
- (٣٢) "كشف الظنون" : ١٢٧٤ ، "الأعلام" : ٩٩/٧ ، "معجم المؤلفين" : ٣٢/١٢ .

## المصادر والمراجع

- الإعراب عن قواعد الإعراب، ابن هشام، تحقيق رشيد العبيدي، دار الفكر - بيروت ط ١٩٧٠ .
- أنوار التنزيل مع حاشية شيخ زادة، البيضاوي، المكتبة الإسلامية، ديار بكر - تركيا .
- البيان في إعراب القرآن، العكري، تحقيق محمد علي الbagawi - دار الجيل - بيروت ط ١٩٨٧ .
- حروف المعاني للزجاجي، تحقيق د. علي توفيق الحمد - مؤسسة الرسالة - بيروت ط ١٩٨٦ .
- شرح قواعد الإعراب، الكافيجي، تحقيق د. فخر الدين قباوة - دار طлас - دمشق ١٩٨٩ .
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١٩٨٧ .
- الكشاف، الزمخشري، دار المعرفة - بيروت ط مصورة .

- كشف الظنون، حاجي خليفة، دار الفكر - بيروت ط ١٩٨٢ .
- اللامات، الزجاجي، تحقيق د. مازن المبارك، مجمع اللغة العربية ط ٢٠٦٩ .
- معجم المطبوعات العربية، إليان سركيس، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت.
- مغني الليب كتب الأعريب، ابن هشام، تحقيق سعيد الأفغاني، المبارك، حمد الله دار الفكر - بيروت ط ٥ ١٩٧٩ .
- من رسائل ابن هشام النحوية، تحقيق حسن إسماعيل مروة، مكتبة سعد الدين، دمشق ط ١٩٨٨ .
- ابن هشام حياته وآثاره د. عصام نور الدين، دار الكتاب العالمي - بيروت.
- ابن هشام النحوي، د. سامي عوض، دار طлас دمشق ط ١٩٨٧ .



# تحقيق مخطوطة



# رسالة في (كان) الناقصة وأخواتها

## لأحمد بن محمد القطان

### (ت بعده ١١٠٠هـ)

#### ملخص البحث

بدأ البحث بمقدمة تحدث فيها عن سبب اختياري الموضوع، وعن طريقة المؤلف في عرض مادة موضوعه، وأثبتت صحة عنوان المخطوط، وصحة نسبته إلى المؤلف، وأشارت إلى أنني لم أقف على ترجمة المؤلف، وبينت أبي اعتمدت على نسخة مخطوطة وحيدة، ثم وصفت النسخة المخطوطة التي اعتمدتها، وعرضت الورقة الأولى والأخيرة منها، ثم ذكرت منهجه في التحقيق، وعرضت بعد ذلك النص محققاً.

#### مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فهذا البحث تحقيق لمخطوط بعنوان<sup>(١)</sup>: (رسالة في كان الناقصة وأخواتها) قام فيه صاحبه أحمد بن محمد القطان بجمع آراء النحاة في "كان" الناقصة وأخواتها من جهة أنها قيد أو مسند أو زائدة، لأن النحاة مختلفون في هذه المسألة.

<sup>(١)</sup> مدرسة في جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة العربية

عثرت في النت على تحقيق سابق للمخطوط للدكتور خليل السامرائي مكتوب على صفحة العنوان أنه حققها ونشرها سنة ٢٠١١م، لكنني لم أعثر على مكان النشر. وقد وجدت أن تحقيقه ينقصه التوثيق في بعض الموضع، وعثرت على بعض الأخطاء في نسخ المخطوط، مما دعاني إلى إعادة تحقيقه.

وقد عرض المصنف فيها آراء النحاة وناقشها نقاشاً علمياً دقيقاً، وبين رأيه فيها ورجح رأياً على آخر، وعقب على بعض الأقوال بأسلوب سهل واضح جلي لا تعقيد فيه مستعيناً بالأمثلة للتوضيح مستندًا إلى أقوال أئمة النحو في ذلك ومستشهاداً بالآيات القرآنية، مختاراً بعد ذلك ما رأاه صواباً.

وعنوان المخطوط صحيح لا شك فيه كما يبدو، لأنه قال في بداية المخطوط: (اعلم أن العلماء اختلفوا في "كان" الناقصة وأخواتها من جهة أنها قيد أو مسند).

أما مؤلف الرسالة فهو كما جاء في آخر ورقة من المخطوط أحمد بن محمد القطان ولم أهتد إلى ترجمته فيما عدت إليه من مصادر، ويبدو أنه توفي بعد سنة ١١٠٠ للهجرة لأنه قال في آخر الرسالة: (انتهى جمعها يوم الثلاثاء، سابع ذي القعدة الحرام، سنة مئة وألف على يد جامعها أحمد بن محمد القطان<sup>(١)</sup>).

وقد اعتمدت في تحقيق هذا المخطوط على نسخة وحيدة، وهي نسخة مكتبة جامعة الملك سعود في الرياض، ولم أهتد بعد البحث إلى نسخة أخرى

وقد رغبت في تحقيقها ونشرها على الرغم من كونها وحيدة، لأنها تامة وغير مخرومة، واضحة، ولأن جل ما كتبه المؤلف هو نقل عن العلماء، وهذا ما جعل مصنفات الذين نقل عنهم نسخاً أخرى مساعدة إضافة إلى هذه النسخة الوحيدة. ولما رأيته من فوائد فيها تتعلق بـ(كان) الناقصة وأخواتها. فافترت أن أخرج هذا المخطوط ليرى النور، ولذلك بين يدي طلبة هذا العلم، فينهلوه منه ما ينفعهم.

والله أسأل أن يحقق هذا العمل الأمل المرجو في خدمة طلبة العلم، وأن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني وينفع به في الدنيا والآخرة، آمين.

## منهج المؤلف ومصادره

### أولاً - منهجه :

قام منهج المؤلف في رسالته على جمع آراء العلماء ثم عرضها واستنباط الأحكام منها وترجيح مذهب على آخر معللاً تعليلًا منطقياً بأسلوب موجز وسهل واضح لا تعقيد فيه، مستندًا في تعليله أيضاً إلى أقوال العلماء.

وما يلحظ في منهجه أنه كان إذا رأى في الرأي المنقول فوائد زائدة عن الفكرة التي يتحدث عنها فإنه يذكره كاملاً ولا يضمن على القارئ بمزيد فائدة. مثال ذلك قوله بعد أن نقل عن ناظر الجيش<sup>(٢)</sup>: ( وإنما سقطت بطيوله وإن كان المقصود حاصلاً من بعضه لحسنه وكثرة فوائده).

<sup>(١)</sup> انظر ما ذكره الدكتور خليل السامرائي في تحقيقه ص ٤٢٦ وما بعد

<sup>(٢)</sup> انظر النص المحقق ص ١٢

وهو في أثناء عرضه لآراء العلماء قد يتعقب أحياناً قول أحد العلماء الذين ينقل عنهم وينتقله معتمداً على التعليل المنطقي متحجاً بالآيات القرآنية. مثل ذلك قوله بعد أن نقل عن ناظر الجيش أيضاً<sup>(١)</sup>: (أقول: وفي كون قول سيبويه يحقق ذلك نظر).

وبعد عرضه الآراء تراه يعتمد رأياً بعينه معبراً عن ذلك بقوله<sup>(٢)</sup>: (وهذا هو الصحيح) وفي ختام بحثه أوجز مضمون الآراء التي عرضها وما استنتج منها بأسلوب بسيط واضح مؤيداً ما ذهب إليه بقول أحد أئمة أعلام العربية<sup>(٣)</sup>.

### **ثانياً - مصادره:**

استقى المؤلف مادته من مصادر عدة، تعد من أجل المؤلفات في علوم العربية، وجل مادته كانت من التسهيل لابن مالك وشروحه.

وهو في نقله عن تلك المصادر يسلك طريقين، فهو إما أن يصرح بذكر اسم المصدر، أو بذكر اسم صاحبه ربما لشهرته له.

### **المصادر التي صرح بذكر اسمها:**

الإيضاح للقزويني، والتلخيص للقزويني، وشرح التلخيص للسعد التفتازاني، وشرح التلخيص للشيخ محمد بن سليمان، وشرح التسهيل للدماميني، وشرح التسهيل لناظر الجيش، وشرح التسهيل لابن مالك<sup>(٤)</sup>.

### **المصادر التي صرح بذكر اسم مؤلفها:**

الجوهري<sup>(٥)</sup>، الرضي<sup>(٦)</sup>

<sup>(١)</sup> انظر النص المحقـ ص ١٤

<sup>(٢)</sup> انظر النص المحقـ ص ١٥

<sup>(٣)</sup> وذلك عندما قال: (ثم أقول - والله أعلم - أن المذهب الأول ناظر إلى معنى الكلام...) إلى آخر النص. انظر النص المحقـ ص ١٦.

<sup>(٤)</sup> انظر النص المحقـ ص ٨٤ وما بعدها.

<sup>(٥)</sup> انظر النص المحقـ ص ٨٤ وما بعدها.

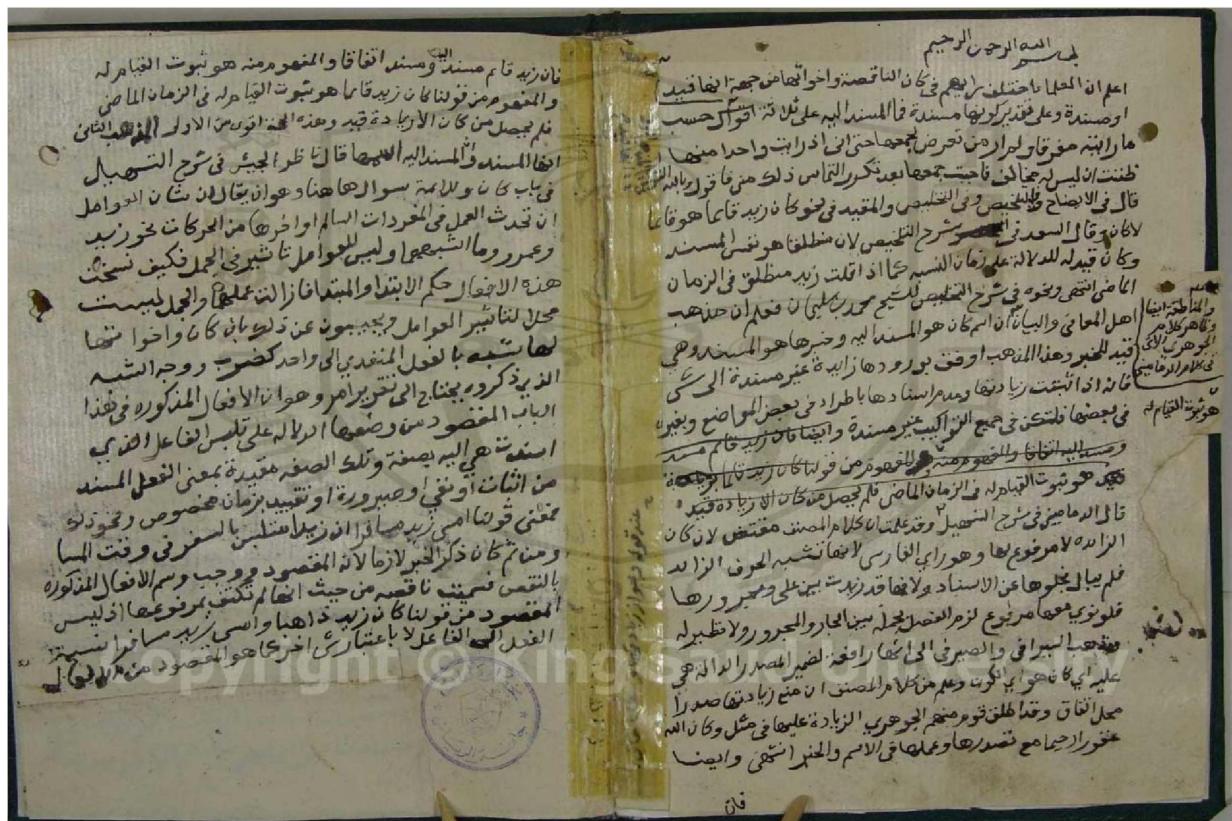
<sup>(٦)</sup> انظر النص المحقـ ص ٨٤ وما بعدها.

## وصف النسخة المخطوطة

نسخة تامة حسنة، محفوظة في مكتبة جامعة الملك سعود في الرياض تحت رقم ١٩٩٩ ، وهي نسخة متوسطة الحجم، عدد أوراقها أربع، وعدد سطورها تسعه عشر سطراً، ما عدا الصفحة الخيرة فعدد سطورها ثلاثة عشر سطراً، قياس  $14 \times 19$  سم، وخطها واضح ومعتاد باستثناء الصفحة الأخيرة طمست بعض كلماتها.

بدأها المؤلف بقوله : (اعلم أن العلماء اختلفوا رأيهما في كان الناقصة وأخواتها).

وختتمها بقوله : (انتهى جمعها يوم الثلاثاء، سبع ذي القعدة الحرام، سنة مئة وألف على يد جامعها أحمد بن محمد القطان).



أول ورقة من المخطوطة

في الزمن الماضي ومعنى صار زيد قاتل الزيد قيام له حصول في الزهر الماضي بعد ان  
لم يكن ومعنى اصبح زيد قاتل زيد قيام له حصول في الزمن الماضي وقت الصبح وكذا  
صار (اذا ذكر في طبعها) معنى الكون مع قيادة اخر مما ذكر ساخراً غير مراد انتهى المقصود منه  
وهذا يمكن ان يكون اشاره الى المذهب الاول وقال في محل اخر واما الناقصه فمعنى  
لتقرير تاعله اعلى صفة هي متصفه بمحاصدار الناقصه معنى كما ان زيد قاتل اهـ زيد  
متصرف بصفة القيام المتصرف بصفة الصيرورة اي الحصول بعد ان يحصل  
انتهـ وهذا يمكن ان يكون اشاره الى المذهب الثاني الا ان العباره يظهر ان  
فيها خطأ من وجده في نسخه صحيحه ولذلكه وقال في محل اخر وقد تقدره  
ما يرشدكم الى ان الناقصه ابضاها منه في المعنى وفاعلهها مصدر الخبر مضافاً  
الى الاسم انتهى وهذا يمكن ان يكون اشاره الى المذهب الثالث والله اعلم  
بالصواب والبه المرجع والباب انتهى جمعها يوم هـ اسلام  
سبعين ذي الحجه امسنه هـ وانه على يد جامعه

احمد بن محمد القطان



Copyright © King Saud University

## منهج التحقيق

قام منهج تحقيق هذه الرسالة على :

- إخراج النص على نحو مقبول يخلو من التصحيف والتحريف والسقط قدر الإمكان.
- قمت بمقابلة النصوص التي نقلها المؤلف من المصادر التي وثقتها منها إضافة إلى النسخة المخطوطة.
- التعريف الموجز بالأعلام التي رأيت أن قد يحتاج القارئ إلى معرفة شيء عنها
- تخريج الآيات القرآنية والشواهد الشعرية من مظانها، مع الإشارة إلى اختلاف الرواية إن وجد، وكذا أشرت إلى اسم صاحب الشعر الذي لم ينسبه إليه المؤلف.
- توثيق النصوص التي نقلها المؤلف عن سابقيه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

اعلم أن العلماء اختلف رأيُهم في "كان" الناقصة وأخواتها من جهة أنها قيد أو مسندٌ. وعلى تقدير كونها مسندًا، فالمسند إليه على ثلاثة أقوال حسب ما رأيته مفرقاً، ولم أر من تعرض لجمعها، حتى إني إذ رأيت واحداً منها ظنت أن ليس له مخالفٌ، فأحببت جمعها بعد تكرر التماسِ ذلك مني، فأقول - وبالله التوفيق - :

قال في الإيضاح وفي التلخيص<sup>(١)</sup>: ((والقيد في نحو : "كان زيد قائماً" هو "قائماً" لا "كان"). وقال السعد<sup>(٢)</sup> في شرح التلخيص<sup>(٣)</sup>: ((( لأنَّ منطلقًا هو نفس المسند، و"كان" قيد له، للدلالة على زمانِ النسبة، كما إذا قلت : "زيد منطلق" في الزمانِ الماضي )) انتهى.

ونحوه في شرح التلخيص للشيخ محمد بن سليمان<sup>(٤)</sup>، فعلم أن مذهبَ أهلِ المعاني والبيان والمنطقة

<sup>(١)</sup> في الأصل هنا زيادة: (وفي التلخيص) ولا وجه لها. انظر النص المنقول في الإيضاح للقرزويني ٩٦، وشرح التلخيص لفتازاني ٢٣٢ وفيه: (منطلاقاً) بدلاً من (قائماً).

<sup>(٢)</sup> مسعود بن عمر بن عبد الله الفتازاني، سعد الدين: من أئمة العربية والبيان والمنطق. ولد بفتازان (من بلاد خراسان) وأقام بسرخس، وأبعدته تيمورلنك إلى سمرقند، فتوفي فيها سنة ٧٩٣ هـ، ودفن في سرخس. كانت في لسانه لكتة. انظر بغية الوعاة ٢١٩، والأعلام ٢٨٥ / ٧.

<sup>(٣)</sup> شرح التلخيص لفتازاني ٢٣٣ / ٢

<sup>(٤)</sup> لم أجد الكتاب ولا صاحبه فيما عدت إليه من مصادر ولم أجد أيضاً فيما عدت إليه من كتب الترجمة لصاحب الكتاب المذكور، وفي هدية العارفين ٢٩٨ / ٢ كتاب تخلص التلخيص في مختصره في المعاني للسوسي الروداني، واسمه محمد بن محمد بن سليمان بن فاسي بن طاهر المالكي نزيل الحرمين، توفي بدمشق سنة ١٠٩٤ هـ

أيضاً، وظاهر كلام الجوهرى<sup>(١)</sup> الآتى في كلام الدماميني<sup>(٢)</sup> أن اسم "كان" هو المسند إليه، وخبرها هو المسند، وهي قيد للخبر. وهذا المذهب أوفق بورودها زائدة غير مسندة إلى شيء، فإنه إذا ثبتَ زيادتها وعدم إسنادها باطراً في بعض المواقع وبغيره في بعضها، فلتكن في جميع التراكيب غير مسندة. والمفهوم من قولنا: "زيادة قيد" هو ثبوت القيام له في الزمان الماضي، فلم يحصل من "كان" إلا زيادة قيد.

قال الدماميني في شرح التسهيل<sup>(٣)</sup>: ((وقد علمت أن كلام المصنف مقتضى لأن "كان" الزائدة لا مرفوع لها - وهو رأي الفارسي<sup>(٤)</sup>، لأنها تُشِّبِّهُ الحرف الزائد، فلم يبال بخلوها من<sup>(٥)</sup> الإسناد، ولأنها قد زيدت بين "على" ومجرورها، فلو نوي معها مرفوع لزم الفصل بجملة بين الجار والمجرور، ولا نظير له. وذهب السيرافي والصimirي<sup>(٦)</sup> إلى أنها رافعة لضمير المصدر الدالة هي عليه، أي : "كان هو" ، أي الكون. وعلم من كلام المصنف أن منع زيادتها صدرًا محل اتفاق<sup>(٧)</sup>، وقد أطلق قوم منهم الجوهرى<sup>(٨)</sup> الزيادة عليها في مثل: **چ** <sup>(٩)</sup> مع تصدرها وعملها في الاسم والخبر)). انتهى.

وأيضاً [ / ] فإن "زيد قائم" مسند إليه ومسند اتفاقاً. والمفهوم منه هو ثبوت القيام له. والمفهوم من قولنا: "كان زيد قائماً" هو ثبوت القيام له في الزمان الماضي، فلم يحصل من "كان" إلا زيادة قيد، وهذه الحجة أقوى من الأولى.

<sup>(١)</sup> عبارته في الصاحح (كون): ( "كان" إذا جعلته عبارة عما مضى من الزمان احتاج إلى خبر، لأنه دل على الزمان فقط ، تقول: كان زيد عالماً، وإذا جعلته عبارة عن حدوث شيء ووقوعه استغنى عن الخبر، لأنه دل على معنى وزمان ، تقول: كان الأمر، وأنا أعرفه مذ كان، أي مذ خلق).

<sup>(٢)</sup> هو محمد بن أبي بكر بن محمد، المخزومي القرشي، بدر الدين المعروف بابن الدماميني : عالم بالشريعة وفنون الادب. ولد في الاسكندرية، واستوطن القاهرة ولازم ابن خلدون. وتتصدر لإقراء العربية بالأزهر، توفي سنة ٨٥٦ هـ انظر: الضوء اللامع ٧ : ١٨٤ وما بعد، وبغية الوعاة ١ / ٦٦ ، ٦٧ ، والأعلام للزركلي ٦ / ٥٦ - ٥٧

<sup>(٣)</sup> انظر تعليق الفرائد للدماميني ٢٢١/٣

<sup>(٤)</sup> في تعليق الفرائد هنا زيادة: (قال) وانظر رأي الفارسي في شرح الرضي على الكافية ٤ / ١٩٢ ، وهمع الهوامع للسيوطى ٢ / ١٠١

<sup>(٥)</sup> في الأصل (عن) والصواب ما أثبته

<sup>(٦)</sup> في الأصل : الصيرفي والصواب ما أثبته. وانظر رأي السيرافي والصimirي في همع الهوامع ٢ / ١٠١ ، والصimirي هو عبد الله بن إسحاق أبو محمد، نحوى، توفي سنة ٥٤١ هـ. معجم المؤلفين ٦ / ٨٧

<sup>(٧)</sup> في تعليق الفرائد : ( محل وفاق )

<sup>(٨)</sup> الصاحح (كون)

<sup>(٩)</sup> النساء ٤ / ٩٦

المذهب الثاني أنها المسند وأن المسند إليه اسمها، قال ناظر الجيش<sup>(١)</sup> في شرح التسهيل في باب كان<sup>(٢)</sup>: (( وللأئمة سؤال ه هنا، وهو أن يقال: إن شأن العوامل أن تُحدِّث العمل في المفردات السالم أو أخرها من الحركات، نحو: زيد و عمرو وما أشبههما، وليس للعوامل تأثير في الجمل، فكيف نسخت هذه الأفعال حكم الابتداء والمبدأ<sup>(٣)</sup> فأزال التعلّم<sup>(٤)</sup> ، والجمل<sup>(٥)</sup> ليست محلاً لتأثير العوامل؟ وينجذبون عن ذلك بأن "كان" وأخواتها لها شبه بالفعل المتعدي إلى واحد<sup>(٦)</sup> ، كضرب. ووجه الشبه الذي ذكره يحتاج إلى تقرير<sup>(٧)</sup> أمر، وهو أن الأفعال المذكورة في هذا الباب المقصود من وضعها الدلالة على تلبّس الفاعل الذي أُسندت هي إليه بصفة، وتلك الصفة مقيدة بمعنى الفعل المسند، من إثبات، أو نفي، أو صيورٍ، أو تقيد بزمان مخصوص، وهو ذلك. فمعنى قولهنا: "أمسى زيد مسافراً" أن زيداً تلبّس بالسفر في وقت المساء، ومن ثم كان ذكر الخبر لازماً، لأنه [هو]<sup>(٨)</sup> المقصود، ووجب وسم الأفعال المذكورة بالنقض، فسميت ناقصة من حيث أنها لم تكتف بمرفوعها، إذ ليس المقصود من قولهنا: "كان زيد ذاهباً" ، وأمسى زيد مسافراً" نسبة الفعل إلى الفاعل، لا باعتبار شيء آخر، كما هو المقصود من الأفعال] / [ التامة إذا أُسندت إلى فاعليها، نحو: "ضرب [زيد]<sup>(٩)</sup>" ، بل المقصود نسبتها إلى الفاعل باعتبار صفة اتصف بها وثبتت له مقيدة بمعنى ذلك الفعل، الفعل، فبمقتضى هذا التقدير قالوا صار كل من هذه الأفعال من حيث إنه يستدعي صفة وصاحبها شبيه<sup>(١٠)</sup> الفعل التام المتعدي إلى واحد؛ لاستدعائه شيئاً<sup>(١١)</sup>.

وال فعل المتعدي إلى واحد يرفع الفاعل وينصب المفعول، فكانت هذه الأفعال الناقصة كذلك ترفع المبدأ تشبيهاً بالفاعل وتنصب الخبر تشبيهاً بالمفعول، وحينئذ يقال: إنما عملت "كان" وأخواتها في الأسمين بعدها لشبيهها<sup>(١٢)</sup> وال فعل المتعدي إلى واحد يرفع الفاعل وينصب المفعول، فكانت هذه الأفعال الناقصة

<sup>(١)</sup> هو محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، عالم بالعربية، من تلاميذ أبي حيان، توفي في القاهرة سنة ٧٧٨هـ . انظر شذرات الذهب ٨/٤٤٦ ، والأعلام ٧/١٥٣

<sup>(٢)</sup> تمهيد القواعد ٣/١٠٦٧ - ١٠٦٨

<sup>(٣)</sup> في تمهيد القواعد: أو المبدأ

<sup>(٤)</sup> أي عمل الابتداء في المبدأ وعمل المبدأ في الخبر

<sup>(٥)</sup> في تمهيد القواعد: والجملة

<sup>(٦)</sup> في تمهيد القواعد: لواحد

<sup>(٧)</sup> في تمهيد القواعد: تقدير، والصواب ما أثبته من الأصل

<sup>(٨)</sup> ما بينهما سقط من الأصل وأثبته من تمهيد القواعد

<sup>(٩)</sup> ما بينهما زيادة من تمهيد القواعد

<sup>(١٠)</sup> في تمهيد القواعد: يشبه

<sup>(١١)</sup> في تمهيد القواعد زيادة: (ضرب)

<sup>(١٢)</sup> في تمهيد القواعد: تشبيها

كذلك ترفعُ المبتدأ تشبيهاً بالفاعلِ وتنصبُ الخبرَ تشبيهاً بالمفعولِ، وحينئذ يقالُ: إنما عملتْ "كان" وأخواتها في الأسمين بعدها لشبهها<sup>(١)</sup> محمولةً في العمل عليها، وستعرفُ في باب "ظن" أنها إنما عملتْ هي وأخواتها لشبهها لشبهها بالأفعال الطالبة مفعولين ليس أصلُهما المبتدأ والخبر، كأعطيتُ. فمن ثم ساغَ تأثيرُ "إن" وأخواتها، و"ظننتَ" وأخواتها في أجزاء الجملة)). انتهى كلامُ الناظر. وإنما سقطه بطوله وإن كان المقصود حاصلاً من بعضه لحسنه وكثرة فوائده. وهذا المذهبُ أوفقُ بكونها أفعالاً، لأن كلَّ فعلٍ عاملٌ مُسندٌ، فلتكنْ هي مسندةً أيضاً.

وهذه الأفعال إذا استعملتْ تامةً مسندةً اتفاقاً فلتكنْ عند استعمالها ناقصةً مسندةً أيضاً، ويكون مالاً يستعملُ منها تماماً ممولاً على ما يستعملُ تاماً، فإن قولنا: "كان الشتاءُ" يعني: "حدَثَ الشتاءُ". "كان" فيه مسندةٌ إلى الشتاءِ من غير قيدٍ. وقولنا: "كان الشتاءُ شديداً"، "كان" فيه مسندةٌ إلى الشتاءِ المتلبي بالشدةِ المقيدةِ بـ"كان".

المذهبُ الثالثُ أنها المسندُ، وأن المسندَ إليه النسبةُ التي بين معموليها، قال ابنُ مالكٍ في شرح التسهيل<sup>(٢)</sup>: ((زعم جماعةٌ [ / ] منهم ابنُ جنِيٍّ وابنُ برهانَ<sup>(٣)</sup> والجرجانيُّ<sup>(٤)</sup> أنَّ "كان وأخواتها" تدلُّ على زمِنِ وقوع الخبرِ، ولا تدلُّ على حدَثٍ. ودعواهم باطلةٌ من عشرةِ أوجه))

ثم ذكر العشرةَ الأوجهِ، وذكرَها عنه الدماميُّ في شرح التسهيلِ، وقال بعدها<sup>(٥)</sup>: ((ولا يخفاكَ ما في بعض هذه الوجوه من الضعف)). ثم قال ابنُ مالكٍ<sup>(٦)</sup> بعد إيرادِ الوجهِ العاشرِ: ((وما ذهبتُ إليه في هذه المسألة من كون هذه الأفعال دالةً على مصادرها هو ظاهرٌ من قول سيبويه<sup>(٧)</sup> والمبرد<sup>(٨)</sup> والسيرافي<sup>(٩)</sup>، وأجاز والسيرافي<sup>(٩)</sup>، وأجاز السيرافيُّ الجمعَ بين "كانَ" ومصدرها توكيداً، ذكر ذلك في شرح الكتاب<sup>(١٠)</sup>، وإذا قد بيَّنتُ بالدلائل المذكورة أن هذه الأفعالَ غيرَ "ليس" دالةً على الحدثِ والزمانِ كغيرها من الأفعالِ، فليُعلمُ أن سببَ تسميتها نوافضٌ إنما هو لعدمِ اكتفائِها بمرفوعٍ، وإنما لم تكتفِ بمرفوعٍ؛ لأن حدثَها مقصودٌ إسنادُه إلى

<sup>(١)</sup> في تمهيد القواعد زيادةً: (إذن)

<sup>(٢)</sup> شرح التسهيل ١٣٨/١

<sup>(٣)</sup> عبد الواحد بن عليٍّ، ابن برهان الأسدِي العكبريُّ، أبو القاسم: عالم بالآدُب والنَّسَب، واللغة والنحو، توفي سنة ٤٥٦ هـ.

انظر إنباه الرواة ٢١٣/٢، والأعلام ١٧٦/٤

<sup>(٤)</sup> همع المهاجم ٧٤/٢

<sup>(٥)</sup> تعليق الفرائد ١٧٤/٣

<sup>(٦)</sup> شرح التسهيل ١/٣٤٠ - ٣٤١

<sup>(٧)</sup> الكتاب ٤٦/١

<sup>(٨)</sup> المقتضب ١٠١/٤ وما بعده

<sup>(٩)</sup> شرح كتاب سيبويه للسيرافي ٣٦٣/٢ وما بعد

<sup>(١٠)</sup> المصدر السابق ٣٦٧/٢

النسبة التي بين معموليهما، فمعنى قوله : "كان زيد عالماً" وُجد اتصاف زيد بالعلم. والاقتصار على المرفوع غير وافٍ بذلك، فلهذا لم يستغن به عن الجزء الثاني<sup>(١)</sup>، وكان الفعل جديراً بأن ينسب إلى النقصان. وقد أشار إلى هذا المعنى سيبويه<sup>(٢)</sup> بقوله : "كان عبد الله أخاك" ، فإنما أردت أن تخبر عن الأخوة، فبَيْنَ أن "كان" مسندة على النسبة ، فمن ثم نشأ<sup>(٣)</sup> عدم الاكتفاء بالمرفوع)). انتهى كلام ابن مالك.

قال ناظر الجيش<sup>(٤)</sup> بعد أن نقله من أوله ، وذكر العشرة الأوجه - : (( ولا يخفى وجه حسنة ولطفه<sup>(٥)</sup> ، لكن قوله في الأفعال المذكورة أن حدثها مقصود إسناده إلى النسبة التي بين معموليهما غير ظاهر ، فإن الإسناد ظاهره<sup>(٦)</sup> إنما هو إلى الاسم الواقع بعدها ٢ / ب لكنه إسناد إليه بقييد تلبسه بصفة ، كما تقدم تقريره ، ومن ثم كان الإخبار بالصفة هو المقصود. وقول سيبويه<sup>(٧)</sup> في : "كان عبد الله أخاك" إنما<sup>(٨)</sup> أردت أن تخبر عن الأخوة ، يتحقق ذلك<sup>(٩)</sup>). انتهى.

أقول : وفي كون قول سيبويه يتحقق ذلك نظر ، بل يصح تزيله عليه وعلى ما قاله ابن مالك. أما تزيله عليه فلأن "كان" إذا قلنا أنها مسندة إلى الاسم المقيد بتلبسه بصفة ، فكأنها مسندة إلى تلك الصفة ، لأن الكلام إذا كان مقيداً بقييد كان ذلك القيد هو المقصود منه.

وأما تزيله على ما قاله ابن مالك ظاهر ، لأن النسبة التي بين "زيد أخوك" هي الأخوة. وأما تزيل كلام سيبويه على المذهب الأول - وهو أن "كان" قيد للمسند - فيحتاج إلى عناية وإلى تكليف بأن يجعل كلام سيبويه بمعنى الباء ، كما قيل به في قوله تعالى<sup>(١٠)</sup> : پ پیٹ آی : به.

ثم قال ناظر الجيش<sup>(١١)</sup> : ((ثم اعلم أن من ذهب إلى أن هذه الأفعال سُلِّبت الدلالة على الحدث وتجبرت للدلالة على الزمان قال إنها لا يتعلّق بها حرف جر ولا عمل لها في ظرف الزمان ولا ظرف المكان ، ومن ذهب إلى أنها لم تُسلِّب الدلالة على الحدث أجاز لها العمل في ذلك كله)) وهذا هو الصحيح ، ولذلك

<sup>(١)</sup> في شرح التسهيل : (الخبر التالي)

<sup>(٢)</sup> الكتاب ٤٥ / ١

<sup>(٣)</sup> في شرح التسهيل : (بينا)

<sup>(٤)</sup> تمهيد القواعد ١٠٨٩ / ٣

<sup>(٥)</sup> (ولطفه) غير موجودة في تمهيد القواعد

<sup>(٦)</sup> في الأصل ظاهرا والصواب ما أثبته عن تمهيد القواعد

<sup>(٧)</sup> الكتاب ٤٥ / ١

<sup>(٨)</sup> في سيبويه : (إنما)

<sup>(٩)</sup> أي أن "كان" مسندة إلى النسبة. وعبارة : (يتحقق ذلك) لم أجده في نص سيبويه.

<sup>(١٠)</sup> النجم ٣ / ٥٣

<sup>(١١)</sup> تمهيد القواعد ١٠٨٩ / ٣

علق بعضهم<sup>(١)</sup> المجرور في قوله تعالى<sup>(٢)</sup>:      بـ كـانـ . وـ قـدـ تـقـدـمـ نـقـلـ الـمـصـنـفـ عـنـ السـيـرـافـيـ أـنـ أـجـازـ الجـمـعـ بـيـنـ كـانـ وـمـصـدـرـهـاـ<sup>(٣)</sup> ، لـكـنـ الـجـمـهـورـ عـلـىـ أـنـ ذـلـكـ لـاـ يـجـوزـ ، وـذـلـكـ لـأـنـهـمـ عـوـضـواـ عـنـ النـطـقـ بـمـصـدـرـهـاـ الـخـبـرـ ، إـذـ هـوـ الـسـنـدـ فـيـ الـحـقـيقـةـ لـاسـمـهـاـ<sup>(٤)</sup> .

ثم بعد كراس قال<sup>(٥)</sup>: (( وقد قال ابن عصفور<sup>(٦)</sup> أن<sup>(٧)</sup> كلاً من الجزئين في هذا الباب لا يجوز حذفه اقتصاراً ولا اختصاراً<sup>(٨)</sup> قال : أما المرفوع وإن كان مبتدأ في الأصل – والمبتدأ قد يجوز حذفه لفهم المعنى، فلأنه<sup>(٩)</sup> لما ارتفع بالفعل صار يشبه الفاعل ، والفاعل [ / ] لا يحذف ، فكذا ما أشبهه . وأما المتصوب مع أنه إنه إن<sup>(١٠)</sup> نظرت إلى أصله وهو الخبر ، فحذفه جائز لفهم المعنى ، وإن نظرت إلى لفظه الآن ، وهو أنه يشبه المفعول ، والمفعول يجوز حذفه ، فيجوز حذف ما أشبهه ، فلأنه – أي المتصوب – قد صار عوضاً من المصدر ، ولذلك لا يجوز : "كان زيد قائماً كونا" كراهة الجمع بين عوض والموضع عنه ، ولو لا أنه عوض لجاز التصریح بالمصدر ، فلما صار الخبر عوضاً من المصدر صار أنه من كمال الفعل ، وكأنه جزء من أجزاءه ، فلم يحذف لذلك)).

ثم قال<sup>(١١)</sup>: (( وقد يُحذف الخبر<sup>(١٢)</sup> في الضرورة ، نحو قوله<sup>(١٣)</sup> :

**لَهُنِي عَلَيْكَ لِلْهَفَةِ مِنْ خَائِفٍ**

يريد : "ليس في الدنيا مجرّر" ، فحذف لفهم المعنى)) انتهى ما ذكره الناظر.

وإنما ذكرته لحسنه ، إذ ليس هو مختصاً بمذهبِ المذاهبِ الثلاثة التي أنا بصددها.

(١) هو ابن يعيش ، انظر شرح المفصل ٤ / ١٤٠

(٢) يونس ٢ / ١٠

(٣) انظر ص ١٠

(٤) انظر همع الهوامع ٧٥ / ٢

(٥) تمهيد القواعد ١١٥٠ / ٣

(٦) شرح الجمل ٤١٠ / ١ وما بعدها

(٧) في تمهيد القواعد : وإن

(٨) في تمهيد القواعد : اختصاراً ولا اقتصاراً

(٩) في تمهيد القواعد : لأنه

(١٠) في تمهيد القواعد : إذا

(١١) تمهيد القواعد ١١٥٠ / ٣

(١٢) (الخبر) سقط في تمهيد القواعد

(١٣) قائله الشمردل بن شريك الليثي ، وروي : (حين لات مجبر)، انظر : شرح الحمامة للمرزوقي ٩٥٠ ، والضرائر الشعرية ١٨٢ ،

وأوضح المسالك ١ / ٢٠٥ ، ومغني الليب ٦ / ٤٤٨ ، والعيني ٢ / ١٠٣ ، وشرح الأشموني ١ / ٢١٣ ، والهمع ٢ / ٨٤ ،

والخزانة للبغدادي ٤ / ١٧١

ثم أقولُ - واللهُ أعلمُ - أن المذهبَ الأولَ ناظرٌ إلى معنى الكلامِ، لأن "كان زيدٌ قائماً" لم يزدْ في المعنى إلا قيداً، فلهذا كانت "كان" قيداً.

والمذهب الثاني ناظرٌ إلى اللفظِ، لأن "كان" فعلٌ عاملٌ يتصلُ به الضميرُ ويسكنُ آخره، لأجل ضميرِ الرفع المتحركِ، فلهذا كانت مسندةً كسائرِ الأفعالِ.

والمذهب الثالث ناظرٌ إلى ما يؤولُ إليه المعنى، لأن معنى قولنا: "كان زيدٌ قائماً" يرجعُ إلى قولنا: ثبتَ اتصافه بالقيامِ، أو ثبتَ قيامه. وفي كلامِ الرضي ما يشيرُ إلى المذاهبِ الثلاثةِ، فإنه قال<sup>(١)</sup>: ((ولا تقع أخبارُ هذه الأفعال جملًا طلبيةً، وذلك لأن هذه الأفعالَ - كما تقدم - صفاتٌ لمصادرِ أخبارها في الحقيقةِ، إلا ترى أن معنى: "كان زيدٌ قائماً": لزيدٍ قيامٌ له حصولٌ [ / ] في الزمن الماضي؟ ومعنى: "صار زيدٌ قائماً": لزيدٍ قيامٌ له حصولٌ في الزمن الماضي وقتَ

الصبح؟ . وكذا سائرُها<sup>(٢)</sup>، إذ في كلّها معنى الكونِ مع قيدٍ آخرَ، كما ذكرنا غيرَ مرّة)). انتهى المقصودُ منه. وهذا يمكن أن يكون إشارةً إلى المذهبِ الأولِ.

وقال في محل آخر<sup>(٣)</sup>: ((وأما الناقصةُ فهي لتقريرِ فاعلها على صفة هي متصفَة بمصادرِ الناقصةِ، فمعنى "كان زيدٌ قائماً" أن زيداً متصفٌ بصفةِ القيامِ المتصفِ بصفةِ الصيرونةِ، أي الحصولُ بعدَ أن لم يحصل شيءٌ)).

وهذا يمكن أن يكون إشارةً إلى المذهبِ الثانيِ، إلا أن العبارةَ يظهرُ أن فيها نقصاً، فمن وجده في نسخةٍ صحيحةٍ فليلحقه.

وقال في محل آخر<sup>(٤)</sup>: (( وقد تقدم ما يرشدُك إلى أن الناقصةَ أيضاً تامةً في المعنى، وفاعلها مصدرُ الخبرِ الخبر مضافاً إلى الاسم)). انتهى.

وهذا يمكن أن يكون إشارةً إلى المذهبِ الثالثِ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ، وإليه المرجعُ والمأبِ. انتهى جمعُها يومَ الثلاثاءِ، سابعَ ذي القعدةِ الحرامِ، سنةَ مئةٍ وألفٍ على يد جامعها أحمدَ بنِ محمدِ القَطَّانِ.

<sup>(١)</sup> شرح الكافية للرضي ٤ / ٢٠٢ نقله عنه المصطفى بتصرف

<sup>(٢)</sup> في الأصل : (سائر) والباء مطموسة أتبتها من شرح الكافية

<sup>(٣)</sup> شرح الكافية للرضي ٤ / ١٨٢ وعباراته يتمامها: ((وأما الناقصةُ فهي لتقريرِ فاعلها على صفة هي متصفَة بمصادرِ الناقصةِ، فمعنى كان زيدٌ قائماً: أن زيداً متصفٌ بصفةِ القيامِ المتصفِ بصفةِ لكونِ أيِّ الحصولِ والوجودِ، ومعنى صار زيدٌ غنياً: أن زيداً متصفٌ بصفةِ الغنيِ المتصفِ بصفةِ الصيرونةِ أيِّ الحصولِ بعدَ أن لم يحصل)).

<sup>(٤)</sup> شرح الكافية للرضي ٤ / ١٩٠

## المصادر والمراجع

- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملائين، بيروت، ط٥، (١٩٨٠م)
- إنبأ الرواة على أنبأ النحاة، جمال الدين القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ط١، (١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ)
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين ابن هشام الأننصاري، تحقيق محبي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٥، ١٩٦٦م
- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٩٨م
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، سوريا، دمشق، ط٢، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م
- تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، محمد بدر الدين الدمامي، تحقيق د. محمد بن عبد الرحمن بن محمد المفدي، ط١، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الحانجي، القاهرة، ط١، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد الحنفي، حقيقه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
- شرح ألفية ابن مالك في النحو، علي بن محمد الأشموني، دار إحياء الكتب العربية، ط١
- شرح التسهيل، ابن مالك، تحقيق د. عبد الرحمن السيد، ود. محمد بدوي المختون، دار هجر للطباعة، مصر، ط١، ١٩٩٠م، ١٤١٠هـ
- شرح التسهيل المسمى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، ناظر الجيش، دراسة وتحقيق د. علي محمد فاخر وآخرون، دار السلام للطباعة، مصر، القاهرة، ط١، (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)
- شرح التلخيص للقزويني، سعد الدين التفتازاني، دار الكتب العلمية، بيروت
- شرح جمل الزجاجي، ابن عصفور، تحقيق صاحب أبو جناح، بغداد
- شرح ديوان حماسة أبي تمام، أبو علي المزروقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م

- شرح الكافية لابن الحاجب، رضي الدين الأسترابادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩ م، مصورة عن طبعة الشركة الصحافية العثمانية، ١٣١٠ هـ
- شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي، حقيقه وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م.
- شرح المفصل في صنعة الإعراب، ابن عييش، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١ م
- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، أبو نصر الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملائين، ط٤
- ضرائر الشعر، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، ط١، ١٩٨٠ م
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، دار الجيل، بيروت، (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م)
- الكتاب، عمرو بن عثمان سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت
- معجم المؤلفين، عمر بن رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق وشرح د. عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ط١، (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م)
- المقاصد النحوية (شرح الشواهد الكبرى) على هامش الخزانة للبغدادي، بدر الدين العيني، بولاق، ط١
- المقتضب، أبو العباس المرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م)
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل بن محمد البغدادي، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١ م، أعادت طبعه بالأوفست : دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق وشرح د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م)

# **محور التاريخ**



# التنجيم السياسي في العصر العباسي الأول

## (دراسة في تطور التاريخ التنجيمي)

\* د. عبد القادر

التنجيم هو التصور الذي يحاول وضع علاقة بين بعض الأجرام الفلكية والأحداث الأرضية. ويقوم بدرجة أساسية على رسم خريطة البروج أو الطوالع (Horoscope) لكل حدث.

### التاريخ التنجيمي : مفهوماً ودلالة

إن التاريخ التنجيمي (السياسي) أو استطلاع البروج يسر حاجات عملية جعلت بعض العلماء، في المراحل القديمة، يرون في التنجيم قمة العلوم. وقد شهد التنجيم محاولة الاستفادة منه في العصر العباسي الأول. والوساطة الفهلوية<sup>(١)</sup> في نقل الأعمال المُترجمة لنصوص في التنجيم كانت أساسية وهامة، مع الإشارة في هذا المجال إلى أن هناك أعمالاً تنجيمية تُرجمت من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية قبل تولي العباسيين السلطة وتشكل هذه الترجمات جزءاً من سياسة الدولة في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

:Pahlavi

والتاريخ التنجيمي هو "التاريخ المبني على التنجيم". وهو رواية التاريخ الأسري على أساس دورات زمانية مختلفة في طول أزمانها، إذ إنها تقع تحت سيطرة النجوم والكواكب السيارة<sup>(١)</sup>. ويندرج التنجيم السياسي أو تاريخ العالم في إطار نظرية القرآن، والتي تؤكد على أن تاريخ العالم هو سلسلة من القرانات للكوكبين هما أبعد ما يكونان عن الأرض في علم الفلك القديم والواسط: زحل والمشتري.

وتم توظيف التنجيم السياسي لتأسيس نوع من التاريخ وهو "التاريخ السياسي" وذلك يرجع إلى توظيف التنجيم في الحكم. ويبدو تأثيره في الأدوار الأولى؛ مثلاً إشارات اليعقوبي<sup>(٢)</sup> إلى الخلفاء كانت تسبقها قراءة أبراجهم المأخوذة من كتاب ما شاء الله<sup>(٣)</sup> المعروف باسم المواليد. ومن ثم لم يكن التنجيم مجرد واحد من الموضوعات التي عالجها المؤرخون، بل كان يشكل أيضاً دافعاً قوياً إلى كتابة هذا النوع من التاريخ (السياسي)، وهذا يتضح من قضية أبي سهل بن نوخن<sup>(٤)</sup> وحمزة الأصفهاني.

وكما ذكرت مسبقاً فإن التنجيم السياسي مرتب بنظرية القرآن: قران زحل والمشتري؛ فإن لقرآن هذين الكوكبين العلويين<sup>(٥)</sup> خاصة من بين سائر الكواكب دلالة على أعمار الدول والمملل إذ هما يقتربان في درجة واحدة من الفلك، مرة واحدة في كل ألف سنة إلا أربعين عاماً، وهو ما يُقال له القرآن الأكبر. ويمكن في هذا المجال الإشارة إلى ما نقله ابن خلدون عن جراس بن أحمد الحاسب، أحد أبرز المنجمين في العصر العباسي، من أن الملة الإسلامية بدأت لدى اقتران زحل والمشتري في برج العقرب عندما ذكر: "ووقع القرآن مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب: ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم النبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات ستمائة الزهرة، وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت، ومدة ذلك ستمائة

( )

( )

( )

مـ

/

/

). :

ـ

( ) ( )

( )

( )

( )

وعشر سنين<sup>(١)</sup>). وهذا النوع من التنجيم ، والذي يُستدلُّ به على أعمار الدول وعلى أعمار الملوك ، يُطلق عليه اسم الحِدْثَان وقد أُلف فيه كتب كثيرة<sup>(٢)</sup>.

### المصادر التاريخية للتنجيم السياسي:

#### المصدر الإيراني (الساسي) القديم:

في هذا الجزء من البحث سوف أحاول أن أبرهن على قضية أساسية وأولية وهي الأصول السياسية للتنجيم السياسي. في البداية يمكن القول : إن إمكانية تطبيق أساليب خريطة الطالع (البروج) من أجل التبوء أو إعادة بناء الأحداث التاريخية ارتبطت أولاً بالحضارة الساسانية القديمة في إيران<sup>(٣)</sup>. وإن مصادر التنجيم السياسي يمكن تتبعها ورصدها في المصادر التي تناولت تاريخ إيران قبل الإسلام والتي تعرض عناصر التنجيم السياسي وموضوعاته الأساسية. وعلى كل حال فإن الكتب العربية والفارسية تتضمن تاريخ إيران في الفترة الواقعة ما بين وفاة كسرى الثاني ، والذي ينتهي عنده كتاب : "خدای نامه" ، حتى عهد يزدجرد أيضاً. وكتاب "خدای نامه" هو كتاب بلهوي ، ويشكل مصدرًا أصيلاً لأقدم الكتب العربية والفارسية التي تناولت تاريخ إيران قبل الإسلام<sup>(٤)</sup>. وقد "ألف" في عهد يزدجرد الثالث وهو كتاب عن ملوك إيران وأحداث حكمهم<sup>(٥)</sup>. وقد عرب اسم الكتاب فأصبح اسمه : "كتاب سير ملوك العجم أو سير الملوك". وسمى بالفارسية "شاهنامه".<sup>(٦)</sup> وأشار الترجمة لهذا الكتاب هو ترجمة ابن المقفع (المتوفى حوالي ١٤٣ للهجرة / ٧٦٠م) ، ثم ترجم بعد ذلك في سنة ٣٤٦ هجرية (٩٥٧ ميلادية) إلى اللغة الفارسية بواسطة

ث

:

" "

( )

( )

٤

ث

( )

<sup>(٣)</sup> "Astrology and Astronomy in Iran" , in: Encyclopaedia Iranica , edited by: Ehsan Yarshater , vol.II , PP:858-871 , 1987 , p:870.

( )

( )

( )

أربعة من الزرتشترين من هراة وسistan وغيرها، وذلك لحاكم طوس أبي منصور بن عبد الرزاق<sup>(١)</sup> ، إلا أن حمزة الأصفهاني، وحسب روايته، أشار إلى وجود عدة نسخ لهذا الكتاب مختلفة وغير متفقة<sup>(٢)</sup> ، ومثيراً إلى هذه النسخ بقوله : "فاتفاق لي ثمانى نسخ وهي : كتاب سير ملوك الفرس من نقل ابن المقفع، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل محمد بن الجهم البرمكي، وكتاب تاريخ ملوك الفرس المستخرج من خزانة المأمون وكتاب سير ملوك الفرس من نقل زادويه بن شاهوبيه الأصفهاني وكتاب سير ملوك الفرس من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني، وكتاب تاريخ ملوكبني ساسان من نقل أو جمع هشام بن قاسم الأصفهاني وكتاب تاريخ ملوكبني ساسان من إصلاح بهرام بن مردانشاه مويد كورة شابور من بلاد الفرس"<sup>(٣)</sup> .

ويُعتبر نص أوستا الكتاب المقدس أو كتاب الزرتشترين الديني (دينكرد)، الكتاب الثالث جمع في القرن التاسع الميلادي وهو كتاب ديني زرواستري). و"الأوستا الساسانية، التي لم يبق منها اليوم غير أقلها، والتي لدينا مختصر منها في الكتابين الثامن والتاسع من الدينكرد، جمع لنصوص بهلوية<sup>(٤)</sup> ترجع إلى القرن التاسع لم تكن قاصرة على النصوص الخاصة بالعبادات فحسب، بل كانت في الوقت نفسه نوعاً من دائرة معارف تحوى العلوم كلها : فعلوم المبدأ أو المعاد وأساطير الأولين والنجوم وعلم التكوين والعلوم الطبيعية والتشريع والحكمة العملية للعهد الساساني كلها مقتبسة من الأحد والعشرين نسكاً التي تنقسم إليها الأوستا"<sup>(٥)</sup>. ولابد من الإشارة في هذا المجال إلى أن قسماً كبيراً من الأوستا الساسانية قد اختفى أيام الإسلام؛ " وقد رأينا أن معظم الأوستا الساسانية كان موجوداً إلى القرن التاسع الميلادي في الترجمة البهلوية التي كانت مصحوبة بالتفسير على الأقل"<sup>(٦)</sup> .

그

:

()

()

" :

٤

- :

()

그

:."

( )

( )

()

()

()

()

إن النصوص التنجيمية الزرواسترية<sup>(١)</sup> المُتضمنة في نص أوستا (الكتاب المقدس) كانت توثق التاريخ السياسي ؟ حيث درج الفرس في تقويمهم على بدئه بتاريخ جلوس كل ملك. وإذا لم يل عرش إيران أحد بعد يزدكرد الثالث فإن الزردشتين قد استمروا حتى اليوم في احتساب السنين تبعاً لسنة ارتقاء العرش ، وهو ما يُسمى بالتقويم اليزدكري<sup>(٢)</sup> .

والفرس قد ضبطوا تاريخهم ما بين مبدأ ملك أردشير<sup>(٣)</sup> إلى وقت هلاك فيه يزدجرد. وقد أسس الفرس حركة التاريخ السياسي وذلك عندما تمكن أردشير من الملك ، فأرخ الفرس تاريخهم بابتداء أيام ملكه وتابعه بذلك ملوك بني سasan على منهاجه ؛ فأرخ كل ملك بسنين ملكه(سنوات ملكه)<sup>(٤)</sup> .

وقد أشار (نلينو) في كتابه "علم الفلك" إلى ضبط الأزياج لقاعدة التاريخ (وهي القضية التالية في هذا البحث) وذلك في معرض حديثه عن زيج الشهريار المترجم إلى العربية ؛ حيث ألف في أيام يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس ، إذ جعل أصل الأوساط فيه لتاريخ ابتداء ملكه. وتاريخ يزدجرد مشهور عند فلكيي العرب وقع في اليوم السادس عشر من شهر يونيو سنة ٦٣٢ م الموافق لليوم الحادي والعشرين من ربيع الأول سنة ١١ للهجرة. ومن المحتمل على حسب قول أبي معشر من أن زيج الشاه أجرى حساب حركات الكواكب على أدوار سنين المعروفة بالهزارات<sup>(٥)</sup>. كما يشير ابن النديم إلى رواية أبي معشر في كتاب منسوب له : "اختلاف الزيجات" ؛ مبيناً أن الكلدانين إنما كانوا يستخرجون أوساط الكواكب السبعة من هذه السنين والأدوار... واستخرج منها المنجمون في ذلك الزمان زيجاً سموه زيج الشهريار. ومعناه ملك الزيجات. هذا آخر لفظ أبي معشر<sup>(٦)</sup> .

( ) - ( )

:Zoroastrism

( )

( )

( )

" :

( ) :

)."

( )

( )

وقد درج الملوك العرب على هذه القاعدة في تأسيس حركة التاريخ السياسي من ابتداء الهجرة إلى ما يبلغ من السنين، وتم ضبط هذه القاعدة في الأزياج أو حساب الزيج. وقد أشار المسعودي في كتابه : "مروج الذهب ومعادن الجوهر" إلى قاعدة مبدأ التواريخ التي اعتمدتها المنجمون في حساب الأزياج ؛ حيث أشار إلى أن "تاريخ العرب من أول السنة التي هاجر فيها النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وكان أولها يوم الخميس. وتاريخ الفرس من أول السنة التي ملك فيها يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز، وكان أولها يوم الثلاثاء. وتاريخ الروم والسريانيين من أول السنة من ملك الاسكندر وكان أولها يوم الاثنين" <sup>(١)</sup>.

وبناء على المعطيات السابقة : فإن المنجمين في الحضارة العربية الإسلامية أسسوا لحركة تاريخية سياسية (التنجيم السياسي) ما بين ابتداء سنى الاسكندر إلى ابتداء سنى الهجرة ليشكل أصلاً ثابتاً لحركة التاريخ <sup>(٢)</sup>. وهذا التأسيس كان مثبتاً في زيج الرصد (حساب المنجمين في الزيجات) كما أشار إلى ذلك المسعودي عندما قال : "بين تاريخ الاسكندر وتاريخ يزدجرد تسعمئة واثنتان وأربعون سنة من سنى الروم ومائتان وتسعة وخمسون يوماً، وبين تاريخ يزدجرد وتاريخ الهجرة من الأيام ثلاثة آلاف وستمائة وأربعة وعشرون يوماً" <sup>(٣)</sup> ، فأول هذه التواريخ تاريخ البخت نصر، ثم تاريخ فيلقوس، ثم تاريخ ابنه الاسكندر، ثم تاريخ الهجرة، ثم تاريخ يزدجرد <sup>(٤)</sup>.

وضبط هذه المعاير في تأسيس حركة التاريخ السياسي تنجيمياً تؤكد على العلاقة بين التاريخ والتنجيم. وبالنسبة للمنجمين، في الحضارة العربية الإسلامية، فإن تاريخ الهجرة قد أسس قاعدةً لحركة التاريخ السياسي، وهو يتميز عن سائر التواريخ لكونه ذا مبدأ واحد على خلاف ما للتواريخ الأخرى من كونها تتميز بأنها ذات مبادئ متعددة مرتبطة بالملوك وتواريخ سنى ملکهم <sup>(٥)</sup>، وهذا ما بينه البيروني في كتابه :

هـ

( )

": " :

( )

)." :

( ) -

( )

عـ

هـ

( )

". :

( )

**الأثار الباقية عن القرون الخالية** عندما أشار إلى أن "تاريخ هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآلـه من مكة إلى المدينة وهو على السنين القمرية برأـية الأهلـة لا الحساب ، وعليـه يعـمل أـهل الإـسلام بـأسـرـهم"<sup>(١)</sup> كما أـشار إلى أن الفرس "في مجـوسـيتها فـأنـها كـانـت تـؤـرـخ بـقـيـام مـلـوكـهم أـولـاً فـأـولـاً فـإـذا مـات أحـدـهـم تـرـكـوا تـارـيخـه وـانتـقلـوا إـلـى تـارـيخـ القـائـم بـعـدهـم وـمـدـدـ مـلـوكـهم مـثـبـةـ في الجـداولـ فيما بـعـد"<sup>(٢)</sup>. فالـعرب اـتفـقـوا عـلـى أن مـبـداـ تـارـيخـهـمـ (ـسـيـهـمـ)ـ هوـ مـبـداـ التـارـيخـ الـمـجـريـ.

## نظـرـيةـ القرـانـ:

### ١- تعـريفـ القرـانـ:

أما القـضـيـةـ الـأسـاسـيـةـ الـأـخـرـىـ فيـ هـذـاـ الـبـحـثـ فـهـيـ تـنـصـ عـلـىـ أنـ نـظـرـيـةـ القرـانـ تـعـتـبـرـ مـصـدـراـ مـنـ المـصـادـرـ الـهـامـةـ لـلتـنـجيـمـ السـيـاسـيـ.ـ وـقـبـلـ أـنـ أـحـلـ هـذـهـ القـضـيـةـ لـابـدـ مـنـ التـعـرـيفـ بـهـذـهـ النـظـرـيـةـ ؛ـ فـنـظـرـيـةـ القرـانـ<sup>(٣)</sup>ـ هيـ نـظـرـيـةـ تـضـمـنـ اـنـتـقـالـ القرـانـ مـنـ مـثـلـثـةـ إـلـىـ مـثـلـثـةـ أـخـرـىـ.ـ وـهـذـهـ النـظـرـيـةـ قـدـ أـسـسـتـ لـإـمـكـانـيـةـ التـبـؤـ بـمـرـكـةـ مـسـارـ التـارـيخـ بـالـنـسـبـةـ لـلتـنـجيـمـ فـيـ الـعـصـورـ الـوـسـطـىـ.ـ وـتـشـيرـ بـعـضـ المـرـاجـعـ إـلـىـ أـنـ بـعـضـ الـبـاحـثـيـنـ يـفـتـرـضـونـ أـنـ نـظـرـيـةـ القرـانـ التـنـجيـمـيـ قدـ تـأـسـسـتـ فـيـ إـيـرانـ السـاسـانـيـةـ الـقـديـمةـ<sup>(٤)</sup>.

والـقرـانـ يـعـنـىـ بـهـ اـجـتمـاعـ زـحـلـ وـالـمـشـتـريـ خـاصـةـ إـذـاـ أـطـلقـ ،ـ فـإـذاـ عـنـيـ قـرـانـ كـوـكـبـينـ آخـرـينـ قـيـدـ بـذـكـرـهـماـ<sup>(٥)</sup>.ـ وـذـكـرـ الـقـنـوـجـيـ أـنـ القرـانـ هوـ "ـاجـتمـاعـ كـوـكـبـينـ أوـ أـكـثـرـ مـنـ الـكـوـاـكـبـ السـبـعـةـ السـيـارـةـ فـيـ درـجـةـ وـاحـدـةـ مـنـ بـرـجـ وـاحـدـ<sup>(٦)</sup>ـ وـقـدـ زـعـمـ الـقـدـمـاءـ أـنـ مـنـهـاـ مـاـ يـكـوـنـ "ـفـيـ كـلـ عـشـرـينـ ،ـ وـمـنـهـاـ مـاـ يـكـوـنـ فـيـ كـلـ مـئـيـنـ

: ."

--

( )

( )

( )

Conjunction

<sup>(٤)</sup> Kennedy, Edward S, *Ramifications of the World Year Concept in Islamic Astrology*, in: *Actes du dixieme congrès international d'histoire des sciences*, Paris, pp: 23- 45, 1964, p:41.

( )

( ) / ( )  
: : :

وأربعين سنة ومنها ما يكون في كل سبعمائة وستين سنة. ومنها ما يكون في كل ثلاثة آلاف سنة وثمانية وأربعين سنة مرة. ومنها ما يكون في كل سبعة آلاف سنة مرة. فُيبحث في هذا العلم عن الأحكام الجارية في هذا العالم بسبب القراءات المذكورة<sup>(١)</sup>.

ومن ثم يمكن القول: إن "القرآن أو الاقتران، أو المقارنة، إحدى الصور الرئيسية الخمس<sup>(٢)</sup> التي تحدثها موقع الكواكب بعضها على بعض، وعليها تُبني أحكام النجميين. ويشير المنجمون إلى أن لاقتران زحل والمشتري، هذين الكوكبين العلويين، خاصة من بين سائر الكواكب، دلالة على أعمار الدول والملل إذ هما يقتربان في درجة واحدة من الفلك، مرة واحدة في كل ألف سنة إلا أربعين عاماً، وهو ما يُقال له القرآن الأكبر. وأشار طاش كبرى زاده إلى ملخص نظرية الاقتران بقوله: "واعلم أن أرباب النجوم زعموا أن الكواكب السبعة كانت مقترنة في أول الميزان في مبدأ العالم، ثم تفرقت. فمتي اجتمعوا في برج واحد يكون سبباً لحدث عظيم بإذن الفاطر الحكيم القادر العليم في عالم الكون والفساد كحدود ث طوفان عظيم، منها طوفان نوح عليه السلام؛ أو تبدل ملة: كبعثة الأنبياء، أو دولة كغلبة اسكندر وجنكيز خان وتيمور وأمثالهم، حسب تفاوت القراءات في البروج، وفي قران الكل أو البعض"<sup>(٣)</sup>.

"الاقتران يحدث" عندما يكون فرق الطول صفرأً، وهو يتم في الكواكب الداخلية<sup>(٤)</sup> عندما يقع الكوكب بين الشمس والأرض على خطٍ واحد، أو عندما يقع الكوكب في وجهة الأرض على خط مستقيم معها ومع الشمس كما هو في الكواكب الخارجية<sup>(٥)</sup>. والاقتران هو الصورة الرئيسية لمناظرة الكواكب في البروج؛ حيث أشار البيروني إلى هذه المناظرة مبيناً أنه إذا كان "الكوكبان في برجين متاظرين تناظراً أيضاً، فإن كانوا في برج واحد سمي مجتمعين، وإن كانوا في درجة واحدة منه سمي مقترنين"<sup>(٦)</sup>.

## ٢- صورة دائرة البروج : الهيئة الثلاثية

ومن أهم القراءات في علم التجيم هو قران زحل والمشتري ، أي اقترانهما مع بعض باجتماعهما معاً في موقع واحد وليكن برج الحمل . وإن اقتران زحل والمشتري ارتبط بصورة معينة لدائرة البروج ؛ " وهذه الصورة المُسمّاة : **الميئه الثلاثيه والعلامات الثلاثيه** Triplicities في دائرة البروج تشكل الأساس لعدة مناهج متعددة من أجل التبؤ بجري أحداث التاريخ والتي كانت شائعة في العصور الوسطى لدى المنجمين" <sup>(١)</sup> .

وهي على الشكل الآتي :

البروج المائية	البروج الهوائية	البروج الترابية	البروج النارية
السرطان	الجوزاء	الثور	الحمل
العقرب	الميزان	العذراء (السنبلة)	الأسد
الحوت	الدلو	الجدي	القوس

وتشكل هذه الثلاثيات الأربع السابقة ثلاثيات المنجمين التي يطلق عليها اسم : "الطوالع" . وكل ثلاثة عُرفت بطالع له خصائصه المميزة . والطوالع الرئيسة هي : الحمل والسرطان والميزان والجدي . ويُسمى البرج الذي يشرق أو يطلع أثناء الولادة ببرج الطالع .

ومن ثم يمكن تقسيم هذا القران إلى ثلات مراحل أساسية :

**القرآن الصغير** : وقع القران أول دقة من الحمل ، وبعد عشرين سنة يكون في أول دقة من الأسد ، وبعد عشرين سنة يكون في أول دقة من القوس (في المثلثة النارية) ثم إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويُسمى دور القرآن وعود القرآن <sup>(٢)</sup> . ( $4 \times 40 = 60$  سنة)

**القرآن الأوسط** : وبعد ٦٠ سنة ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها (قران وسط) . ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية . ( $4 \times 40 = 60$  سنة)

**القرآن الكبير** : ثم يرجع إلى أول الحمل بعد ٩٦٠ سنة وهو الكبير . ( $4 \times 960 = 3840$  سنة)  
**يستوفي زحل والمشتري ٤٨ قران في المثلثات الأربع** : (في كل مثلثة ١٢ قران والقران الواحد يستغرق ٢٠ سنة).

<sup>(١)</sup> Pingree, D (ed.), "Kiran", in: The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Leiden, vol. V, PP: 130-131, P: 130.

ومن الممكن "حساب مواعيد اقتران الكواكب مع بعضهما البعض من خلال مدة دوران الكواكب حول الشمس"<sup>(١)</sup>.

إن صور النجوم المتعددة مثل : ظهور نبي جديد أو تغيرات في الأنظمة السياسية والحاكمة أو الوضع الاقتصادي ، إنما أُسست على خرائط البروج والمرتبطة بتحديد بداية السنة الشمسية<sup>(٢)</sup> حيث ظهر القرآن بين زحل والمشتري".<sup>(٣)</sup>

وقد أشار العلماء العرب إلى هذه الثلاثيات بمصطلح : "المثلثة" ، وعرفها الخوارزمي الكاتب (توفي سنة ٢٨٧ هـ) بأنها "كل ثلاثة أبراج تكون على طبيعة واحدة تُنسب إلى ثلاثة كواكب ، ويكون أحدها صاحب المثلثة المقدم بالنهار ، والثاني المقدم بالليل ، والثالث شريكهما بالنهار والليل . فالحمل والأسد والقوس مثلثة وهي حارة يابسة : والثور والسنبلة (العذراء) والجدي مثلثة باردة يابسة : والجوزاء والميزان والدلو مثلثة حارة رطبة : والسرطان والعقرب والحوت مثلثة باردة رطبة"<sup>(٤)</sup>. وقد قدم البيروني -٣٦٢- ٤٤٠ هـ) خصائص هذه الثلاثيات عندما أشار إلى أن المثلثات هي "البروج المتفقة في الطبيعة بكلتا الطبيعتين ، واقعة في الفلك على زوايا مثلث متساوي الأضلاع ، ولذلك تُعد بروج المثلثة شيئاً واحداً ، ويكون حكمها بالتقريب شيئاً واحداً ومتشابهاً . فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية تدل على الجمع والامتلاء . والثور والسنبلة والجدي على مالا يزر له من العشب والمراعي . والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية تدل على التبريد . والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية تدل على الأخذ".<sup>(٥)</sup>

وي يكن تحديد أحكام القراءات ودلائلها الزمنية<sup>(٦)</sup> حسب الجدول الآتي :

الدلالة الأرضية (الظاهرة الأرضية)	مقدار السنة (مقادير الأزمنة)
الملل والدول	كل ١٠٠٠ سنة مرة واحدة
انتقال المملكة من أمير إلى أمير، ومن	كل ٢٤٠ سنة مرة واحدة

:

ث

<sup>(٣)</sup>"Kiran",in: The Encyclopaedia of Islam vol.V, P:130,

( )

( )

م

:

( )

الدلالة الأرضية (الظاهرة الأرضية)	مقدار السنة (مقادير الأزمنة)
أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد ومن أهل بيت إلى أهل بيت.	
تبديل الأشخاص على سرير الملك، وما يحدث بأسباب ذلك من الحروب والفتنة.	كل ٢٠ سنة مرة واحدة
الحوادث والكائنات التي تحدث كل سنة: الرخص والغلاء والجدب والخصب والخداث والوباء والقطح والأمراض.	كل سنة (تحاويل سنوي العالم التي تؤرخ بها التقاويم)
حوادث الأيام شهراً شهراً ويوماً يوماً.	الأوقات والمجتمعات والاستقبالات التي يؤرخ بها في التقاويم
الاستدلال على الخفيات من الأمور كالسرقة	طالع وقت المسألة والسؤال عنها

## التنجيم وقضية التاريخ:

### الدورات الكونية (الفلكية):

لابد من الإشارة في هذا المجال إلى أن هناك مناهج أخرى أسست للتاريخ التنجيمي (تاريخ العالم)، وهي "المتعلقة بالدورات الكونية أو ثورات تحاويل سنوي العالم. وإن الأنظمة المعقدة حول صور التنبؤات الدينية والسياسية مرتبطة بنظرية الاقترانات لكونكي المشتري والمريخ في برج السرطان كل ٢٠ سنة"<sup>(١)</sup>. والتاريخ التنجيمي اعتمد قاعدة أساسية، كان قد أسس لها المنجمون، وهي أن ثمة أدواراً فلكية تحكم هذا العالم، وتخضع لها كل ما كان وما يكون، وأن ما جرى ويجري من أمور يخضع لختمية تاريخية جبرية لا تتغير عبر الأزمان.

<sup>(١)</sup> "Kiran", in: The Encyclopaedia of Islam, P:130.

وقدم النجمون، وذلك عبر طرحهم لمفهوم خريطة الطالع، مقاييس للزمن. وإحدى التقنيات الأساسية المستخدمة من قبل المُنجمين في ضبط دورة الزمن وقياسه هي **الدورات الكونية cosmic cycles**. والدورات الكونية أو الفلكية ترتبط بتحرك الكواكب في دائرة البروج؛ حيث هذه الكواكب تكمل دورتها في البروج الثاني عشر<sup>(١)</sup> في مدد زمنية مختلفة. وإن تفسير هذه الدورات يعتمد على طبيعة الكوكب وموقعه في خريطة الطالع.

إن الدورة الكونية، كمفهوم أساسي في التاريخ التنجيمي، يشير إلى بداية ونهاية الحياة ثم عودة بيتها من جديد.

## المحتوى الأيديولوجي للتاريخ التنجيمى:

إن القضية التي يتناولها هذا الجزء من البحث تتعلق **بالتوظيف الأيديولوجي للتاريخ التنجيمى**. وهذا المحتوى الأيديولوجي يمكن الكشف عنه من خلال أمرتين اثنتين : أولهما الرجوع إلى النصوص المترجمة من اللغة الفارسية المتوسطة (الفهلوية) إلى اللغة العربية في المرحلة العباسية الأولى<sup>(٢)</sup>. وتحليل هذه النصوص يكشف بدلالة واضحة عن أن هذه النصوص تُعد حاملة لأيديولوجية ساسانية قديمة (زرواسترية)، وهي ذات طبيعة تنجيمية وتعنى بوجه خاص بالتنجيم السياسي أو التاريخ التنجيمي<sup>(٣)</sup>.

وإن تحليل هذه الأيديولوجية السياسية القديمة يبين بشكل واضح أن "المعرفة جماء" تعود إلى جذرها والمتمثل في أفستا(Avesta) وهو كتاب الزرواستيرية المقدس ، وربما كان هذا هو الإطار الأفضل لفهم النشاطات في الترجمة التي بلغت الذروة في أيام كسرى الأول أنس شروان (حكم ٥٣١ - ٥٧٨ م)<sup>(٤)</sup>

وكان من الطبيعي بعد الفتح العربي لبلاد الفرس في النصف الأول للقرن الأول/السابع الميلادي، أن تنشط حركة ترجمة النصوص الفارسية إلى اللغة العربية، وذلك على نحو ما حدث في حالة اليونان؛ إذ إن بعض الترجمات المبكرة من الفهلوية ساهمت بالقدر نفسه في تيسير العمل الإداري كتلك التي نُقلت عن اليونانية<sup>(١)</sup>.

إن هذه الترجمات لنصوص في التنظيم السياسي قد قام بها جماعات أو أفراد من الفرس والذين كان لهم برنامج اجتماعي وأيديولوجي ، وكان ظهورهم أثناء الثورة العباسية على وجه الدقة. وهذه النصوص المترجمة كانت موجهة إما إلى الفرس المتعربين أو إلى العرب الذين تمثلوا الطابع الفارسي. ويكمّن المحتوى الأيديولوجي لهذه النصوص من كونها " ذات صلة بالدعوة العباسية في طورها الأولى وأنها قامت بدور أساسى في الحملات الدعائية لتلك الجماعات التي كانت تحكمها الرغبة في العودة إلى الماضي الساساني. وبيدو أثرها على أوضاع ما يكون في حكم المنصور (١٣٦ - ٧٥٤ / ١٥٨ - ٧٧٥م)"<sup>(٢)</sup>.

أما الأمر الثاني فهو يكمن في تحليل النصوص التي تعرض التاريخ التنجيمي في المرحلة العباسية الأولى<sup>(٣)</sup> ، مع التأكيد على "أن الموضوعات النجومية وجدت طريقها في التراث العربي في النصف الثاني من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي على أبعد تقدير"<sup>(٤)</sup> . أما المصادر التي تحوي هذه النصوص فتنقسم إلى ثلاثة مصادر رئيسة :

المصدر الأول يعود إلى كتاب النهضان لأبي سهل بن نوبحت :

فإن كتاب **النهمطان**<sup>(٥)</sup> لأبي سهل بن نوبحت (عاش في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني / الثامن الميلادي) يعد واحداً من أقدم الكتب من هذا النوع بالعربية في أحكام النجوم. وقد وصل منه مقتطفاً في فهرست ابن النديم.

وقد استهل ابن نوجخت روایته بأن بدأ بقصصي تاريخ انتقال العلوم والتأكيد على دور الساسانيين في تجديد العلم. إذ إنه يقول:

"قد كثرت صنوف العلوم وأنواع الكتب ؛ ووجوه المسائل والمواخذ التي اشتق منها ، ما يدل عليه النجوم ما هو كائن من الأمور قبل ظهور أسبابها ومعرفة الناس بها . على ما وصف أهل بابل في كتبهم ، وتعلم أهل مصر منهم ، وعمل به أهل الهند في بلادهم"<sup>(١)</sup>  
المصدر الثاني فيتضمن كتب أبي معشر الفلكي<sup>(٢)</sup> وهي : اختلاف الزيجات وكتاب الألوف<sup>(٣)</sup> وكتاب القراءات :

يعرض ابن النديم رواية أبي معشر في كتاب منسوب له اسمه "اختلاف الزيجات"؛ فيقول:  
 قال أبو معشر في كتاب اختلاف الزيجات: إن ملوك الفرس بلغ من عنايتهم بصيانة العلوم، وحرصهم على بقائهما على وجه الدهر، وإشفاقةهم عليها من أحداث الجو وآفات الأرض، أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث، وأبقاها على الدهر، وأبعدها من التعفن والدروس، لقاء شجر الخندق، ولحاؤه يسمى التوز<sup>(٤)</sup>.

ولابد من الإشارة في هذا المجال إلى أن "النظام الفلكي لأبي معاشر كان مؤسساً على افتراض سلسلة من قرائنات الكواكب ، والتي تكون موزعة على مسافات زمنية متساوية"<sup>(٥)</sup> . والتجحيم عند أبي معاشر الفلكي "مرتبط بمشكلة بناء الماضي والتنبؤ بالأحداث التاريخية للمستقبل. وعلى خلاف كتابه القرانات ، الذي تأسس منهجه على قرائنات زحل والمشترى ، فإنه في كتابه الأول اعتمد على نظام معقد من الدورات التي تحدد التأثيرات الكوكبية في لحظة معينة من الزمن"<sup>(٦)</sup> . مع التأكيد هنا على أن أبو معاشر الفلكي استطاع أن "يطور في بعض العناصر التجديمية التي ترجم إلى أصول ساسانية وذلك لكي تتفق مع ظروف عصره الخاصة"<sup>(٧)</sup> .

المصدر الثالث يعود إلى كتاب القراءات والأديان والملل مؤلفه ماشاء الله :

<sup>(5)</sup> Pingree, D, The Thousands of Ab $\square$  Mashar, London, 1968, p:22.

<sup>(6)</sup> Ibid, p58

<sup>(7)</sup> Ibid, p58.

ويعتبر كتاب القراءات والأديان والملل<sup>(١)</sup> مؤلفه ماشاء الله بن أثري (أو سارية) أحد أقدم المنجمين المهمين المرموقين، ونصه من أبرز النصوص التي تضمنت التاريخ التنجيمي أو التنجيم السياسي ؟ فقد أشار ماشاء الله إلى المحتوى الأيديولوجي لمؤلفه : "القراءات" عندما أشار إلى القرآن الذي انتقلت عنده السلطة من الأميين إلى العباسين :

"ووقع القرآن العاشر الذي كانت فيه الدولة العباسية وانقراضبني أمية في العقرب وهو برج الملة، وتحولت سنة العالم لهذا القرآن في آخر الساعة الثانية عشر من اليوم السابع عشر سنة مئة وتسعة عشرة سنة ليزدجرد"<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد في موضع آخر على دور السلطة العباسية :

"ويستمر أيضاً قران زحل والمشترى فيها حسب ما جرى في أيام القوس عند انتقال القراءات من مثلثة الجوزاء إلى مثلثة العقرب ولم يكن بين المرين مناسبة ولا مازاجة فدل على ذهاب دولة فارس وظهور دولة العرب وانتقال الملك إليهم ولم يزل الأمر على الاضطراب إلى أن استمرت القراءات في المثلثة وعادت إلى العقرب في القرن الرابع فذهب ملك فارس واستعلى ملك العرب حيث لم يكن بين المرين مناسبة ولا موصلة"<sup>(٣)</sup>.

إن النصين السابقين لأبي معشر وماشاء الله يُعدان وثيقتين تؤكدان على أن الغرض من التاريخ التنجيمي هو صياغة أيديولوجية سياسية بالنسبة للعباسيين الأوائل . وهذه الأيديولوجية السياسية تحقيقتين أساسيتين : "الأولى سياسية إذ إنها زودت سيادة الدولة العباسية ، التي كانت دورتها قد بدأت توأماً ، على نحو ما رسمته النجوم ويأمر من الله في النهاية ، بر رسالة تتضمن إنذاراً إلى جميع الخصوم المحتملين للحكم العباسي ، أن أي نشاط سياسي لهم محكوم عليه بالفشل ؛ والثانية أيديولوجية إذ إنها أدخلت في روع القوم أن الدولة العباسية هي ، من حيث المخطط الأكبر لكل ما تتحكم فيه النجوم ، الوراث الشرعي الوحيد للإمبراطوريات القديمة في أرض الرافدين وإيران والساسانيين الأسلاميين الأدنى"<sup>(٤)</sup>.

( )

E.S.Kennedy Pingree

E.S.Kennedy Pingree ( )

The Astrological History of Māshā allāh : ۷

<sup>(١)</sup> E.S. Kennedy and D. Pingree, The Astrological History of Māshā allāh, Cambridge: Harvard University Press, 1971, ( : )

<sup>(٢)</sup> Ibid, ( : )

( )

إن قضية التوظيف الأيديولوجي للتاريخ التنجيمي تعتبر قضية أكد عليها كثير من المؤرخين العرب فيما بعد أمثال حمزة الأصفهاني والبيروني ؛ فقد أشار حمزة الأصفهاني إلى أن "العقرب كان البرج الذي أوجب انتقال الدولة من الفرس إلى العرب ، وكانت الشمس في العقرب والمريخ في السرطان فدل على أن الملك يكون في الزيادة من مبدأ المولد إلى مترين وعشرين سنة ثم لا يزيد وأن الملة تكون في الزيادة من مبدأ المولد إلى ثلاثة وستين فحسب ، كأنه بعد وفاته ثلاثة وستين سنة ثم يتبدئ النقصان في ملك أهل الملة العربية من جهة المغرب وهو أعلم" <sup>(١)</sup> .

وأشار البيروني كذلك إلى هذه القضية ، عندما تحدث عن انتقال الحكم من العباسين إلى البوهيميين وذلك كما تقتضي النجوم وقرارات الكواكب فيها ، عندما أشار إلى "كتاب أحمد بن الطيب السرخسي في قران النحسين في برج السرطان وما صرحت بذلك تصريح كنكه الهندي منجم الرشيد فإنه زعم أن ملوكهم يتنقل إلى رجل يخرج من أصحابهان ونص على الوقت الذي خرج فيه علي بن بويه الملقب بعماد الدولة بأصحابهان" <sup>(٢)</sup> .

وفي موضع آخر يؤكّد البيروني على هذه القضية :

"وقد قيل أن الدولة الساسانية في القراءات النارية وظهرت دولة الدليل على بن بويه الملقب بعماد الدولة في القراءات النارية وهذا هو الوعد الذي كانوا يتواعدون به في عودة الدولة إلى الفرس وإن لم تكن سيرتهم هي الأولى ، ولست أدرى كيف آثروا دولة الدليل ودلالة انتقال الممر إلى المثلثة النارية أظهر دلالة على دولة بني العباس وهي دولة خراسانية شرقية" <sup>(٣)</sup>



## نتائج البحث:

- لابد من التأكيد أولاً على أن التاريخ التنجيمى اعتمد في بنائه على مفهوم الأبراج؛ حيث هذه الأبراج تشير إلى دورة زمنية تقويمية. وهذه الدورة تتضمن العلاقة بين التاريخ وحساب الطالع أو التخطيط الفلكي.
- وحتى يتتسنى تحديد الخصائص الجوهرية التي تميز التاريخ التنجيمى عن غيره من أنماط التواريخ الأخرى، لابد من التأكيد على مسلمة أساسية وهي أن دراسة المؤلفات العربية في التقويم التنجيمى تزيد الاقتناع القائل بأن المعلومات المتوافرة فيها والتي تتناول الحوادث التاريخية التي وقعت إبان ظهور وصدر الإسلام وأوضاع النجوم التي ترتبط بتلك الحوادث، أن هذه المعلومات ترجع إلى المصادر الأساسية. ومن ثم فإن هذه المصادر ساهمت بشكل كبير في تحديد سمات وخصائص التاريخ التنجيمى. ويمكن إجمال هذه الخصائص في كون المعرفة التاريخية تشكل الأساس الذي يُبنى عليه جميع تنبؤات المنجمين وبناء أحداث المستقبل.
- وبناء على النتيجة السابقة فإن المواد التاريخية و تسلسلها أو ترتيبها على الحوادث والسنين شكلت الموضوعات الأساسية للنصوص التي تتناول التاريخ التنجيمى أو التنجيم السياسي مثل كتاب الألوف لأبي عشر الفلكي، وكتاب القراءات والأديان والملل مؤلفه ماشاء الله.
- إن الفرضية السابقة تؤكد على نتيجة أساسية وهي : أن التنجيم السياسي بعناصره المتعددة قد أسس لنوع من الكتابة التاريخية أو ما يسمى التاريخ السياسي الذي سار عليه عدد من المؤرخين العرب فيما بعد ، وقيام هذا التاريخ هو الدول أو عهود الخلفاء أو الحكام.

## المصادر والمراجع

### المصادر والمراجع باللغة العربية :

- ١- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ج ٢، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٨٠.
- ٢- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بالوراق، كتاب الفهرست، تحقيق: رضا-تجدد، د.ت.
- ٣- الأصفهاني، حمزة بن الحسن، كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء د.ت.
- ٤- بيرنيا، حسن، تاريخ إيران القديم: من البداية حتى نهاية العهد الساساني، ترجمة: نور الدين عبد المنعم والسباعي محمد السباعي، مراجعة وتقديم: يحيى الخشاب، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٢.
- ٥- البيروني، أبي الرحان محمد بن أحمد، كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية، مكتبة المتنبي، ١٩٢٣.
- ٦- البيروني، أبي الرحان محمد بن أحمد، كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، تحقيق: علي حسن موسى، دمشق: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٣.
- ٧- الخوارزمي الكاتب، أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف، كتاب، مفاتيح العلوم، القاهرة: إدارة الطباعة المئوية، ١٩٢٢.
- ٨- رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، المجلد الأول: القسم الرياضي، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٥٧.
- ٩- سارتون، جورج، تاريخ العلم، ترجمة: لفيض من العلماء، ج ٥، القاهرة: دار المعارف، د.ت.
- ١٠- سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، المجلد السابع: أحكام النجوم - الآثار العلوية، مطبع جامعة الملك سعود ١٤١٠هـ.
- ١١- طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، بيروت: دار الكتب العلمية، المجلد الأول، د.ت.
- ١٢- غوتاس، ديمتري، الفكر اليوناني والثقافة العربية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

- ١٣- القنوجي، صديق بن حسن (ت ١٣٠٢ للهجرة / ١٨٨٩ م)، أبجد العلوم: السحاب المركوم الممطر بأنواع الفنون وأصناف العلوم، أعده للطبع ووضع فهارسه: عبد الجبار زكار، الجزء الثاني: القسم الثاني، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٨.
- ١٤- كريستنس، أرثر، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة: يحيى الخشاب، بيروت: دار النهضة العربية، د.ت.
- ١٥- الماجدي، خزعل، موسوعة الفلك عبر التاريخ، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ط ١: ٢٠٠١.
- ١٦- المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: قاسم الشماعي الرفاعي، المجلد الثاني، بيروت: دار القلم، ١٩٨٩ م.
- ١٧- موسى، علي، النجوم والنجوم، دمشق: مطبعة الشام، ١٩٩٧.
- ١٨- مؤمن، عبد الأمير، قاموس دار العلم الفلكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط: ٢٠٠٦ م.
- ١٩- نلينو، كرلو، علم الفلك: تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، مدينة روما، سنة ١٩١١ م.

**المراجع باللغة الإنكليزية :**

- 1- E.S. Kennedy and D. Pingree, The Astrological History of Māshā allāh, Cambridge: Harvard University Press, 1971.
- 2- Kennedy, Edward S, *Ramifications of the World Year Concept in Islamic Astrology*, in; Actes du dixième congrès international d'histoire des sciences, Paris, pp: 23- 45, 1964.
- Pingree, D (ed.), "Kiran", in: The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Leiden, vol. V, PP: 130-131.
- 4- Pingree, D, The Thousands of Abū Mashar, London, 1968.
- 5- "Yarshater, Ehsan(ed.), "Astrology and Astronomy in Iran", in: Encyclopaedia Iranica, vol.II, PP:858-871, 1987.
- 6-



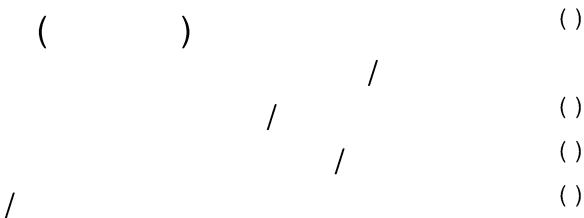
# تراجم الشعراء في مسالك الأبصرار

## للعمري

(٦٧٠٠ - ٦٧٤٩)

د. فاتن كوكة\*

العمري هو شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يحيى بن أبي المعالي فضل الله بن أبي الفضل المُجلّي بن جمال الدين دعجان القرشي العدوبي العمري<sup>(١)</sup> ولد بدمشق سنة ٦٢٠٠ هـ، وهو من أسرة تولى أفرادها رئاسة ديوان الإنشاء في مصر والشام مدةً زمنيةً طويلةً، كان أديباً فقيهاً إماماً في الترسُّل والإنشاء، حجَّةً في معرفة المسالك والممالك وخطوط الأقاليم ومواقع البلدان<sup>(٢)</sup>، وكان مؤرخاً غزير المعرفة بأخبار الرجال وتراثهم وبال تاريخ، ولا سيما تاريخ ملوك المغول من عهد جنكيز خان إلى عصره<sup>(٣)</sup>، «وكان يتقدّم ذكاءً مع حافظة قوية، وصورة جميلة، واقتدار على النظم والنشر، حتى كان يكتب من رأس القلم ما يعجز عنه غيره في مدة»<sup>(٤)</sup>.



توفي العمري سنة ٧٤٩، ولكنه وضع في هذه المدة القصيرة من حياته كثيراً من القصائد والأراجيز والمقطوعات والموشحات، والتقاليد والمناشير، ومكتبات الملك<sup>(١)</sup> ، والمصنفات الجليلة التي شغلت حيزاً مهماً في المكتبة العربية وأهمها : التعريف بالمصطلح الشريف (مطبوع)، مالك عباد الصليب (مطبوع)، النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية (مخطوط)، مسالك الأ بصار في مالك الأ بصار (مطبوع) وهو موسوعة كبرى ألفها العمري في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، ووصفها الصفدي بأنها كتاب حافل ما يعلم أن لأحدٍ مثله<sup>(٢)</sup> .

وليس من المبالغة وصف هذا المصنف بالموسوعة ، فضخامة مادته وتنوعها وشمولها جعلت منه موسوعة ثقافية زاخرة بألوان المعارف ، وضرورب الفوائد. واللافت أن التصنيف في تلك الحقبة الزمنية التي عاش فيها العمري – وهي العصر الملوكى – اتسم بظهور الموسوعات الكبرى التي يقف المرء أمامها معجباً بغزاره ما اشتملت عليه من الجوانب العلمية والفكرية والثقافية التي قام مؤلف واحد بتأليفها وإخراجها في الصورة المشرقة التي وصلت إلينا.

لقد حفظت تلك المؤلفات تراث الأمة العربية الإسلامية ، وعصرارة جهود العلماء والمفكرين من أبنائها، فكانت الوعاء الفكري الذي ضمَّ جلَّ ما أبدعه صانعو الحضارة والفكر الإنساني ، ولهذا لقي تأليف هذه الموسوعات إقبالاً من العلماء الحرفيين على أصالة الحضارة العربية وصونها من كل شائبة تعكر صفوها.

فقد أقبل العلماء في العصر الملوكى على التراث العربي الخالد ، فبذلوا جهوداً جبارة في الحفاظ عليه من جهة ، وتجديده وإحيائه من جهة أخرى ، فوقفوا عند المتون التي صنفها السابقون من العلماء ، وتناولوها بالشرح والتفصيل ، بعدهما تحرروا الدقة التامة في روایاتها ، فكانت شروحهم النواة الأساسية للموسوعات ودوائر المعارف التي ألهوها ، وجعلوا منها آثاراً قيمة خالدة لا يستطيع الباحث في المكتبة العربية غضُّ الطرف عنها ، ولعلَّ أبرزها نهاية الأرب في فنون الأدب للنسيري<sup>(٣)</sup> ، وصبح الأعشى في صناعة الإنسا<sup>(٤)</sup> ، ومسالك الأ بصار في مالك الأ بصار لابن فضل الله العمري ، وهي موسوعة ضخمة تقع في

()

()

()

/

()

()

()

( )

:

/

/

/

/

سبعة وعشرين مجلداً، طابعها العام تاريجي جغرافي، فعنوانها يدل على ذلك، لكن إمعان النظر في مادتها يقطع بأن العمري لم يخصصها للجوانب التاريخية والجغرافية فحسب، وإنما ضمنها كثيراً من الجوانب الأدبية والدينية والسياسية والاجتماعية، وقدم فيها عرضاً لترجم عدد كبير من الأعلام على اختلاف مشاربهم وفئاتهم وشرائحهم وآفاقهم المعرفية، فقد أورد العمري ترجم للشعراء والقراء والمحدثين والفقهاء والحكماء والأطباء والموسيقيين والوزراء وكتاب الإنشاء والخطباء وأهل اللغة والنحو والبيان والتصوفين والزهاد وغيرهم، وإننا سنحصر عملنا في هذا البحث ضمن دائرة الشعراء وأمراء النظم، كي تكون وجهتنا محددة وواضحة.

إن الجانب المتعلق بترجم الشعراء يستحق الوقوف عنده ، لأنه يظهر قدرة العمري التصنيفية الفائقة التي مكتنته من تخصيص تلك المساحة الواسعة لعرض ما وقع اختياره عليه من ترجم الشعراء ، وبين طريقته في عرض تلك الترجم ، والأدوات المنهجية التي استخدمها في ذلك ، وغايتها من هذا العمل.

و قبل الشروع في الدراسة ، لا بد من عرض مختصر لأقسام موسوعة العمري ومضمونها ، فقد جعل العمري موسوعته ضمن قسمين كبيرين :

**الأول :** تناول فيه وصف الأرض وما اشتملت عليه من البر والبحر.

**الثاني :** تناول فيه وصف سكان الأرض من مختلف الشعوب والأمم.

ويتألف القسمان السابقان من أنواع - كما أطلق عليها العمري - فالقسم الأول يشتمل على نوعين هما : **المسالك والممالك** ، أما النوع الأول وهو المشتمل على المسالك ففيه أبواب هي على الترتيب : مقدار الأرض وحالها ، الأقاليم السبعة ، البحار وما يتعلق بها ، القبلة والأدلة عليها ، الطرق ، وضمن هذه الأبواب توجد مجموعة من الفصول التي تتضمن التفاصيل والجزئيات المرتبطة بالعناوين الأساسية في الأبواب .

**والنوع الثاني وهو المشتمل على الممالك** مؤلف من خمسة عشر باباً تحدث العمري فيها عن ممالك السند والهند ، وأسرة جنكيز خان ، والأكراد والأتراك في بلاد الروم ، إلى جانب ممالك بلاد اليمن ، والمحجاز ، والشام ، ومصر ، وال المسلمين في الحبشة ، و المسلمين السودان على ضفة النيل الممتد إلى مصر ، وملك مالي ، وجبال البرير ، وإفريقية ، وبر العدو ، والأندلس ، وختم العمري ما سبق بذكر العرب الموجودين في زمانه ، وقبائلهم ، وأماكن توزعهم وانتشارهم .

أما القسم الثاني فهو يشتمل على أنواع أربعة هي : الإنصاف بين المشرق والمغرب ، الكلام على الديانات ، وهي ست نخل ، وأربع ملل ، الكلام على طوائف المتندين ، ذكر التاريخ وفيه بابان : الأول : في ذكر الدول التي كانت قبل الإسلام ، والثاني : في ذكر الدول الكائنة في الإسلام .

بَيْنَ الْعُمَرِيِّ فِي الْمُقْدَّمَةِ أَهَمُّ الْأَسْسِ الَّتِي ارْتَكَزَ عَلَيْهَا مِنْهَجُهِ فِي الْكِتَابِ ، وَمِنْهَا الدَّقَّةُ التَّامَّةُ فِي إِيْرَادِ النَّصوصِ وَالْاقْتِبَاسَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَالِكِ وَأَحْوَالِ سَكَانِهَا ، فَلَمْ يَبْثُتْ أَمْرًا إِلَّا بَعْدَ اعْتِمَادِهِ عَلَى ثَقَافَتِهِ الْشَّخْصِيَّةِ وَمَعْارِفِهِ الْذَّاتِيَّةِ ، وَمَشَاهِدَتِهِ الْعَيْنِيَّةِ ، وَنَقْلِهِ عَنِ الْمَصَادِرِ الْمُوْثَوَّقَةِ ، وَعَنِ أَعْيَانِ الثَّقَاتِ مِنْ ذُوِي التَّدْقِيقِ فِي الْخَبَرِ ، وَالتَّحْقِيقِ فِي الرَّوَايَةِ ، وَمِنْهَا تَدْعِيمُ مَا أُورَدَ فِي الْكِتَابِ بِالْتَّصْوِيرِ التَّوْضِيَّيِّ ، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ الْخَرَائِطَ وَالْمَصْوِرَاتِ الَّتِي كَانَ يَعْتَزِمُ عَلَى إِدْخَالِهَا ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ ذَلِكَ ، وَذَكَرَ الْعُمَرِيِّ أَنَّهُ لَمْ يَكْتُفِ - حِينَمَا تَحْدُثُ عَنِ الْمَالِكِ - بِالنَّوَاحِي الجَغْرَافِيَّةِ فَحَسْبٌ وَإِنَّمَا تَنَوَّلُهَا مِنَ النَّوَاحِي الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْسِّيَاسِيَّةِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَوْضَاعِهَا وَعَنِ ذَلِكَ يَقُولُ : «وَلَمْ أَقْتَصِرْ بِذَكْرِ الْأَقْلَالِمِ ، عَنْ ذَكْرِي الْمَالِكِ مَقْصِدُ الْجَغْرَافِيَا.. وَلَا بِمَا نَطَّلَقُ عَلَيْهِ الْمَسْمَيَاتِ...، بَلْ أَذْكُرُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مُلْكَةُ كُلِّ سُلْطَانِ جَمْلَةً لَا تَفْصِيلًا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ الْمَدِينَةِ الَّتِي هِيَ قَاعِدَةُ الْمُلْكِ ، ... أَوْ مَا لَا بَدَّ مِنْ ذَكْرِهِ مَعَهَا ، وَالْغَالِبُ فِي تَلْكَ الْمُلْكَةِ مِنْ أَوْضَاعِهَا...»<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ وَعَدَ الْعُمَرِيِّ قِرَاءَ كِتَابِهِ - إِنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِطُولِ الْعُمَرِ وَوَافِرِ الصَّحَّةِ - أَنْ يَذْيَلَ الْكِتَابَ بِمَالِكِ الْغَرْبِ الَّتِي أَطْلَقَ عَلَيْهَا اسْمَ (مَالِكُ الْكُفَّارِ) ، لِأَنَّهُ مَا ذَكَرَهَا فِي كِتَابِهِ هَذَا - عَلَى اتساعِهَا - إِلَّا ذَكِرًا عَارِضًا ، وَمَا شَطَرَ مِنْ تَفْصِيلِهَا إِلَّا جَمْلًا ، رَغْبَةً مِنْهُ فِي تَخْفِيفِ ثَقْلِ مَادَةِ الْكِتَابِ.

خَصَّصَ الْعُمَرِيُّ أَجْزَاءَ مُحدَّدةً مِنْ كِتَابِهِ لِعَرْضِ اخْتِيَارَاتِهِ مِنْ تَرَاجِمِ الشَّعْرَاءِ ، وَالْتَّزَمَ فِيهَا مُعَظَّمُ الْأَسْسِ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا مِنْهَجُهِ ، لَكِنَّ جُوانِبَ أُخْرَى - لَمْ يَأْتِ عَلَى ذَكَرِهَا صَرَاحَةً - تَجَلَّتْ فِي طَرِيقَةِ عَرْضِ تَلْكَ التَّرَاجِمِ ، مِنْ أَبْرَزِهَا :

#### ١- العَاملُ الزَّمَانِيُّ وَالعَاملُ الْمَكَانِيُّ :

ظَهَرَ الْعَاملُ الْأَوَّلُ فِي اعْتِمَادِ الْعُمَرِيِّ عَلَى الْمَنْهَجِ التَّارِيْخِيِّ فِي عَرْضِ التَّرَاجِمِ ، إِذْ بَدَأْ بِتَرَاجِمِ أَشْهَرِ شَعَرَاءِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ ، مِنْهُمْ امْرُؤُ الْقَيْسِ ، وَالنَّابِغَةُ الْذِبِيَّانِيُّ ، وَعُنْتَرَةُ ، وَطَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ ، وَزَهِيرُ بْنُ أَبِي سُلَمَى ، وَعُمَرُو بْنُ كَلْثُومِ ، وَالْحَارِثُ بْنُ حَلْزَةِ الْيَشْكُرِيِّ ، وَانتَقَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمُخْضَرِمِينَ الَّذِينَ عَاشُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَدْرَكُوا إِلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ وَمِنْهُمْ حَسَانُ بْنُ ثَابَتَ ، وَالْحَاطِبَيَّةُ ، وَمَتَمْمُ بْنُ نُوَبِرَةَ ، وَكَعْبُ بْنُ زَهِيرِ بْنِ أَبِي سُلَمَى ، وَالْخَنْسَاءُ ، وَتَابِعُ الْعُمَرِيِّ عَرْضَ تَرَاجِمِ شَعَرَائِهِ ضَمِّنَ ذَلِكَ التَّسْلِيسَ الْتَّارِيْخِيِّ ، فَتَنَاوَلَ تَرَاجِمَ شَعَرَاءِ الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِينَ عَاشُوا فِي كَنْفِ الدُّولَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَجَعَلَ الْحَدَّ الزَّمِنِيَّ لِلْحَقْبَةِ الَّتِي اخْتَارَ مِنْهَا تَرَاجِمَ شَعَرَاءِ الْإِسْلَامِ سُقُوطَ الدُّولَةِ الْأَمْوَيَّةِ ، مِنْ أَهْمَّ هُؤُلَاءِ الشَّعَرَاءِ : ذُو الرُّمَّةِ ، وَجَمِيلُ بَشِّيَّةِ ،

وقيس بن الملوح، وقيس بن ذريح، والأحوص، وجريب، والفرزدق، والأخطل، والطرماح، وغيرهم، ذكر العمري بعد ذلك المخضرمين من شعراء الدولتين الأموية والعباسية ومنهم الحسين بن مطير الأسدي، وبشار بن برد، ثم تناول تراجم شعراء الدولة العباسية، فبدأ بشعراء العصر العباسي الأول، منهم : أبو نواس، وأبو العتاهية، وأبو تمام، وابن البحتري، والمتنبي، والسرى الرفقاء، والواوأء الدمشقي، والخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد، ومهيار الديلمي، وأبو العلاء المعري، وابن حيوس، وغيرهم.

ثم أورد تراجم شعراء العصر العباسي الثاني، منهم : أبو المظفر أسامة بن مرشد المعروف بأسامة بن منقذ، وأبو الفتح محمد بن عبد الله سبط بن التعاويذي، والتلعفرى يوسف بن مسعود بن بركة شهاب الدين أبو المحسن وهو والد الشاعر محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة التلعفرى أبي المكارم الذى اشتهر في العصر المملوكي.

ظهر العامل الزمانى أيضاً حين أورد العمري مجموعة من التراجم لشعراء عاصرهم أو قابليهم ، وعن ذلك يقول : «وأما الأحياء من أهل الغرب فجماعة لا يحضرني الآن منهم إلا القليل.... إلا أنني كنت حين ألقت كتابي المسماً بـ (ذهبية العصر)<sup>(١)</sup> قد أتيتُ فيه بأعيان منهم تقابلت بهم لآلئه في تاجها المرصّع، وتفتحت كمامه في ثوبها الموسى المنشع»<sup>(٢)</sup> ، من هؤلاء الشعراء : ابن خاتمة الأنصارى ، أبو عبد الله المالقى المعروف بابن جابر.

أما العامل المكانى فقد ظهر في عرض العمري تراجم من اختارهم من شعراء مصر، فكان المكان الأساس الذي ركن إليه في ذلك العرض، منهم : تيم بن المعز الفاطمي ، المقداد المصري ، ابن سناء الملك ، البهاء زهير ، الشرف النساج بن غنوم الإسكندرى ، السراج الوراق ، ابن الجباس الدمياطي ، ابن دانيال . والظاهر أنَّ العمري نظر إلى ارتباط الشعراء الذين اختارهم بمصر من حيث النشأة أو الإقامة أو الوفاة ، فذكرهم ضمن شعراء مصر.

وقد بدا اهتمام العمري بالعامل المكانى حين أتى على ذكر تراجم الشعراء في العصر العباسي الثاني مراعياً الجانبين الشرقي والغربي من الدولة العربية الإسلامية ، ومزاوجاً بين هذين الجانبين والعصر الذي

عاش الشاعر فيه، إذ بدأ بشعراء الجانب الشرقي في عصره<sup>(١)</sup> ، ثم انتقل إلى شعراء الجانب الغربي في الدولة العباسية<sup>(٢)</sup> .

ولكنَّ العمري اختار مجموعة كبيرة من تراجم الشعراء، وجعلهم ضمن دائرة العصر العباسي الثاني، وهم في حقيقة الأمر من شعراء العصر الأندلسي، والعصر المملوكي، ومع علمه بذلك - فهو المؤرخ الذي لا يشق له غبار - لم يحدد الإطار الزمني بدقة ووضوح، فابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، والرمادي، والطليق المرواني، وابن فرج الجياني، وابن الزقاق، وابن حيوس الإشبيلي، وابن حمديس، والمحصري القير沃اني، والأعمى التطيلي، وابن الأبار، كلهم من أعلام الشعر الأندلسي.

وابن نباتة المصري، وابن دانيال، وصفي الدين الحلبي من أعلام الشعر المملوكي، ومع ذلك فقد أدرجهم العمري ضمن شعراء العصر العباسي الثاني، ولعل تفسير هذا الأمر مرتبط برغبة العمري في الاعتراف بسيادة الدولة العباسية وبسط نفوذها وسيطرتها على رقعة جغرافية واسعة متaramية الأطراف، ولعل في ذلك إقراراً ضمنياً من العمري بأن الحكم العربي ما زال ساري النفوذ - وإن لم يكن حقاً كذلك - في زمنه الذي حكم فيه الملوك وهم ليسوا عرباً.

يبدو أن الروح العربية المشرقية التي ظهرت نفحاتها في اختيارات العمري للأعلام ولآثارهم الشعرية، وحرصه على تقديمهم ضمن إطار العصر العباسي جعلته يسترجع أصداه الزمن الذي كان فيه لدولة بني العباس شأن ونفوذ وقوة، وكان بعض خلفائها رمز النصر والتلألق العربي، فالعمري ذو الأصول المشرقية، والجذور العربية الأصلية التي تجمعته من حيث النسب مع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكتبه التغاضي عن الحكم العربي الذي امتد نفوذه في العصر العباسي أيام القوة والعز والسؤدد.

## ٢- التوسيع والشمول في عرض التراجم:

لم يكتف العمري بعرض تراجم شعراء حقبة معينة، وإنما توسيع في تراجممه واختيار من العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام ، والعصر الأموي، والعصر العباسي، والعصر الأندلسي، والعصر المملوكي، وهو عصره الذي عاش فيه ، ومع ذلك فقد أعطى كل عصر حقه من حيث عرض تراجم شعرائه وأدبائه، والإشارة إلى أهم الأحداث التي جرت في حياتهم ، وتقديم نماذج مختارة من أشعارهم.

ولم يقتصر العمري في عرض تراجمه على مشاهير الشعراء فحسب ، وإنما ذكر إلى جانبهم المقلين الجيدين في جميع العصور التي انتقى شعراء منها بدءاً من الجاهلي وانتهاءً بالمملوكي ، فقد ذكر إلى جانب أمرئ القيس ، وحسان بن ثابت ، والمتنبي ، والحضرمي القيرواني ، وصفي الدين الخلبي ، أرطأة بن سهيبة <sup>(١)</sup> ، عمر بن الأهتم <sup>(٢)</sup> وابن الجنان محمد بن سعيد <sup>(٣)</sup> ، وابن خروف عليّ ابن محمد القيسي <sup>(٤)</sup> ، ففي كل عصر اختار ما يزيد أو ينقص عن مئة ترجمة لشعراء تفاوت شهرتهم ، وأشعارهم من حيث القلة والكثرة ، والذبوع والانتشار.

### ٣- الاعتماد على الوسائل البحثية المنهجية في عرض التراجم:

اعتمد العمري في عرض تراجم الشعراء على الاستقراء<sup>(٥)</sup> لاصطفاء ، والوصف ، والتحليل ، إذ قام بإجراء مسح شامل على شعراء العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي والأندلسية والمملوكي ، وانتقى من شعراء تلك العصور من وجد في تراجمهم مادةً غنية من حيث الأحداث التي جرت في حياة الشاعر ، ومن حيث الاختيارات الشعرية التي حرص على ألا تخلو ترجمة منها ، واعتمد في ذلك على الوصف الذي كان أداة بحثية منهجية أساسية في وصف الشاعر وشعره بأسلوب أدبي رفيع يدلّ على قدرة العمري الفائقة في تدبیج العبارات ، وإظهار الصنعة الفنية بسلاسة ومرونة ، ففي ترجمة جميل بشينة <sup>(٦)</sup> قال العمري واصفاً : «صاحب بشينة ، ومصاحب جبها حتى فرق الموت بينها وبينه ، العذري نسباً وهوی ، الوري حسباً وضاحاً وجوى ، وكان في دعوى الحب صادقاً غير مریب ، صادعاً قلبه صوت كل نجيب ، وصوب كل غمام يبكي فراق الحبيب ، وصون كل عاشقٍ لعهد غزالٍ ریب ، .. وكان ظاهر الوسامه باهر المھیا ، لأنما سلب القمر تمامه ، مؤثر الشجاعة ، مشهور الكرم إبان المجائحة..» .

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

هذا نصٌّ مجتزأً من ترجمة جميل بشينة يبدو فيه حرص العمري على تقديم ترجمة تعج بالصور والتشبيهات والعبارات الوصفية القائمة على أحد ألوان الصنعة الفنية اللفظية، كالجناس بين (هوى، جوى) (حبيب، ربيب) (الشجاعة، المجاعة) (صاحب، مصاحب)، وعن شعره قال العمري واصفاً : «يرباء بنفسه عن الهجاء والمدح، والرجاء والمنح إنما يصرف ما عنده من فضل اللسان إلى النسيب، يخالط هذا في النساء من التشبيب ، ومن منتقى شعره العجيب قوله :

فليتَ رجَالاً فِيكِ قد نذروا دمي  
إِذَا مَا رَأَوْنِي طَالِعًا مِنْ ثَنِيَّةِ  
يَقُولُونَ مِنْ هَذَا وَقَدْ عَرَفُونِي  
مِنْ إِلِيَّضِ لَمْ تَقْدِنْ طَاقَأَ بِخَصْرِهَا  
وَلَمْ يُرْخِ مَتَّيْهَا ارْتَكَاضُ جَنِينِ  
جَلَّتْ بَرَدًا<sup>(٢)</sup> غَرَّاً تَرَقُّ غَرُوبُه  
عِذَابَ الثَّنَايَا لَمْ تُشَبِّ بِأَجُونَ<sup>(٤)</sup> »<sup>(٥)</sup>

فالعمري يصف شعر جميل بالعجب، ولعل في ذلك إشارة إلى روعة المعاني وسحر البيان، ورقة التعبير، وبينه أيضاً على أن أهم الأغراض الشعرية التي برزت في شعره هي الغزل والنسيب، وبين أنه ابتعد عن الهجاء والمديح الذي فيه إراقة لماء الوجه، وانكسار للنفس.

أما التحليل فقد ظهر في عرض العمري لأرائه وتعليقاته في الموضع التي يسمح فيها المقام بذلك ، فهو لم يكتف بأن يكون ناقلاً للنص والخبر والمادة الشعرية فحسب ، وإنما كان متأثراً ومؤثراً بما ينقله عن طريق إشارة لطيفة، أو تعليق موجز ، أو رأي شخصي يتبنى نظرية نقدية واعية ، فمن ذلك ما ذكره عن شعر انتقامه لـ<sup>(٦)</sup> لـ<sup>(٧)</sup> ، وبين رأيه فيه بتعليق لطيف إذ قال :

«وَمِنْ جَيْدٍ مَا وَقَعَ لِي مِنْ صَالِحٍ أَشْعَارَهُ» .

()

()

()

()

/

()

/

/

()

فتعليق العمري يتضمن رأياً نقدياً لطيفاً للمستوى الشعري الذي وضع فيه شعر كشاجم، ويدل على تفاوت جودة أشعاره .

ومن ذلك أيضاً ما أورده العمري في ترجمة الأوّاء الدمشقي<sup>(١)</sup> عن الخصائص الفنية في شعره ومنها: «...وله الاستعارات اللائقة في مواضعها، الفائقة بما لا تطلع معه النجوم في مطالعها، المتماثلة في أماكنها،  
<sup>(٢)</sup>  
المقابلة حسناً في مواطنها» .

وفي ترجمة ابن خفاجة<sup>(٣)</sup> أورد أبياتاً له يصف فيها جواداً «قلت : وكذلك قوله يصف خيلاً أجرى الركض منها سيلًا ، وأغرب فيها حسناً ، وإن لم يغرب معنىً ، ذكر فيه موقفاً برزت به زُمر الجنود في  
<sup>(٤)</sup>  
مسالكها ، وزبرت زبر الحديد في سنابكها » .

فالتعليقات والإضافات والآراء النقدية تظهر العمري باحثاً يمتلك أدواته البحثية ، ويسعى إلى بيان الحقيقة ، ويحرص على إيراد تعليقاته في الموضع المناسب ، فهو مؤرخ ، ولكنه كاتب متعرّس في أساليب الكتابة<sup>٥</sup> للإنشاء ، لذلك نجده يقتتنص الفرص التي تسمح له بإيراد رأي ، أو تعليق ، أو إشارة إلى أمر يرتبط بصاحب الترجمة .

#### ٤- الموضوعية :

ظهرت في الوصف الدقيق لصاحب الترجمة ، وبيان حاله الحقيقية دون مبالغة زائدة ، أو غلو في الوصف ، والمقصود بالبالغة هنا إسباغ صفاتٍ على صاحب الترجمة ليست فيه ، وتغيير حاله إلى مستوى يوافق أهواء العمري ورأيه فيه ، أما الوصف القائم على المزاوجة بين العبارات فالغاية منه إظهار القدرة البلاغية ، والتمكن من الصنعة الفنية التي امتلكها العمري ، وهذا ما يلاحظه الباحث في التراجم التي أوردها ، فهو يعبر عن أفكاره بأسلوب جميل يجذب القارئ ، ولكنه يعطي صورة واضحة المعالم عن صاحب الترجمة دون أن يتزيد عليه ، ففي كثير من المواضع تحدث عن أصحاب التراجم الذين جمعوا بين

/

( )

-

/

( )

/

( )

/

/

( )

ففي ترجمة ابن خفاجة ذكر العمري املاكه لناصيتي الشعر والثر، إذ قال: «هو للفضل نبعه وغربه، ومنبعه ومذهبـه، كان في الأندلس للأدب إبراهيمـه الذي وفيـ، والذـي أبـراـهـيمـه بمورـده الأصـفـيـ، أجادـ الصناعـتين إتقـانـاً»<sup>(1)</sup>.

وأورد العمرى بعد ذلك مقتطفات من شعره جلّها في الأوصاف، منها:

وصف جواد ، <sup>(٢)</sup> شجرة نارنج ، وساق أحدب ، ونار في آخر الليل <sup>(٣)</sup> ، وحية سفينة <sup>(٤)</sup> وغير ذلك ، وتابع العمري كلامه فقال : « وله نثر كثير ، وأخر في نظمه إن كان ما زاد عليه رونقاً ، وجري لا ترده القافية متتفقاً ، لا إخال الدرّ يواخيه ، ولا أراه في الحسن دون أخيه » <sup>(٥)</sup> وضرب مثالاً على نثر ابن خفاجة ، منه قوله : « لما علمت رغبته في التماس الطيور اللبلية همممت بالفحص عن أشرفها ، فسنج منها طائر يُستدل بظاهر صفاتيه على كرم ذاته ، وأخلق به أن ينقص عن قصبه سهاماً ، ويلوى به ذهاباً ، ويخرقه توقداً والتهاباً » . <sup>(٦)</sup>

وفي موضع آخر أورد العمرى ترجمة الباخزري<sup>(١٠)</sup> ، وذكر فيها إبداعه الشعري والنشرى إذ قال : «وكان ذا ذهنٍ حدٌ لا يصدأ صقيله ، ولا يهدأ في المباحث صليله ، ولا يعرف شرار النار إلا أن يكون هو أو سليله ، ولا طريق إلى الاختراع إلا في شعره وما هو سليله... وسنورد من بديعه ما يشف كتمانه على لسان مذيعه»<sup>(١١)</sup> .

## ٥- الأمانة العلمية :

ظهرت في رد الاقتباسات والنصوص إلى مصدرها، إذ يبدو حرص العمري على توثيق المعلومة بذكر اسم قائلها أو عنوان الكتاب الذي نقل عنه.

### أ- ذكر اسم من نقل عنه .

وأشار العمري إلى تحريه الدقة في إيراد الخبر، وتوخيه الحذر في النقل فقال: «ولم أذكر عجيبة حتى فحصت عنها، ولا غريبة حتى ذكرت الناقل لتكون عهتها عليه، وتبرأت منها»<sup>(١)</sup>.

ولم يكتف العمري بالنقل عن عُرف بالحفظ ورواية الأخبار، وإنما قصد أن ينقل عن «الأعيان الثقات من ذوي التدقيق في النظر والتحقيق في الرواية»<sup>(٢)</sup> فهو يذكر أسماء شيوخه والمؤرخين الذين اشتهروا بصفاتهم الجليلة في التاريخ وتراثهم الرجال، وهذا يدلّ على تشدده في التحقق والتثبت من الأخبار والنصوص التي يوردها في تراجمته، فمن ذلك ذكره أنه سمع من شيخه علاء الدين الكندي أبياتاً رواها لأبي الفتح يحيى بن سلطان بن منقذ<sup>(٣)</sup>، وأشار إلى أنها رويت أيضاً لغيره، لكن ثقته بشيخه دفعته إلى نسبتها نسبتها إليه وهي :

«والشمس مصفرة في الغرب قد نشرت  
شعاعها في تفاريقِ من السحبِ  
كأنما السحبُ أعلامٌ موردةٌ  
والشمسُ من تحتها ترسٌ من الذهبِ»

.... ورويت أيضاً لغيره، وإنما شيخنا علاء الدين الكندي رواهما له ومنه سمعت»<sup>(٤)</sup>. وهو ينقل عن الشعالي في ترجمته للوأواء الدمشقي<sup>(٥)</sup> فيقول: «ذكره صاحب اليتيمة، وعرض جوهره الغالي القيمة قال: وكان منادياً بدمشق بدار البطيخ، ينادي على الفواكه، وقال: وما زال يُشعر حتى جاد كلامه، وساد شعره، ووقع منه ما يروق، ويُشرق ويُفوق، حتى بلغ العيُون، انتهى كلامه».

( ) /

( ) /

( ) /

( ) /

( ) /

( ) /

وفي الموضع نفسه<sup>(١)</sup> يذكر العمري ضمن ترجمة نصر بن علي الملقب بـ”عز الدولة“ نصاً نقله عن العماد الأصفهاني دون أن يذكر اسم كتابه فقال: «ذكره العماد الكاتب الأصفهاني فقال: حضرنا عند الملك الصالح ليلة بدمشق في سنة إحدى وسبعين وخمسة، والأمير مؤيد الدولة حاضر، ينشدنا ملح القصائد، وينشد لنا ضالة الفوائد، وجرى ذكر بيتهن لبعضهم، في المشط الأسود والمشط الأبيض، وهم لأبي الحسن

**كنت أستعمل السواد من الأم — شاط والشّاعر في سواد الدياجي**

أَتْلَقَى مِثْلًا بِعَشْلٍ فَلَمَا  
صَارَ عَاجًا سَرَّحَتْهُ بِالْعَاجِ

فقال أسامي : أخذ هذا المعنى عمّي نصر وعكسه فقال :

**كنت أستعملُ البياض في الأم — شاط عجبًا بلمتى وشبابي**

**فأخذت السواد في حالة الشيء بسلواً عن الصبا والتصابي**

### **بـ- ذكر اسم المصدر الذي ينقل عنه**

ومن ذلك ما نقله العمري عن ابن سعيد في كتابه (المرقصات والمطربات) فقد ذكر اسم الكتاب ضمن

ترجمة أحمد بن محمد بن عبد ربه ومن ذلك:

«وقد استفتح به ابن سعيد شعراً المغرب في المرقص والمطرب<sup>(٤)</sup> وقال: هو بالأندلس إمام أدبائها، وفارس شعرائها، وذكر من شعره قوله:

يا ذا الذي خط العذار بخده  
سطرين هاجالوعة ويل بلا  
ما كنت أقطع أن لحظك صارم  
حتى رأيت بعارضيك حمائلاً<sup>(١)</sup>

ومن ذلك أيضاً نقله عن الحميدي في (جذوة المقتبس)<sup>(٢)</sup> ضمن ترجمة الرمادي : «قال الحافظ أبو عبد الله الحميدي في جذوة المقتبس وقد ذكره : كثير الشعر، سريع القول، مشهور عند الخاصة والعامة حتى كان من شيوخ الأدب في وقته»<sup>(٤)</sup> ثم بين العمري أن ابن خلكان ذكر ذلك أيضاً، ونقل عن الحميدي أن الشعر افتتح بكلمة واحتدم بكلمة أي بأمرئ القيس والمتنبي والرمادي<sup>(٥)</sup>.

#### ٦ - الصنعة الفنية :

اتبع العمري في عرض تراجمه أسلوباً أدبياً راقياً رفيع المستوى عالي المقام يدل على أن صاحبه ذو شأن في الكتابة والإنشاء، واللافت في تلك التراجم أن العمري كان يستوحى من اسم المترجم له عباراتٍ يُظهر فيها امتناعه لناصية البيان، وقدرته على صوغ جمل متراضفة كحبات الجمان.

فمن ذلك ما ذكره في ترجمة يحيى بن هذيل الأعمى<sup>(٦)</sup> إذ قال : «رجلٌ رد نور بصره إلى بصيرته ، وعاد وعاد ضياء ظاهره إلى سريرته ، نفذ العنان إلى ربوعه ونفت البيان في روّعه ، فتوقد نوراً أغناه أن يتلمس ، وأخذ بيده فلم يحتاج أن يحمل عصاً ويتحسس ، سقاه الأدب مورداً نمراً ، وألقى عليه ثوبه فارتدى بصيراً»<sup>(٧)</sup>. استمد العمري من صفة العمى مادةً للنص الذي أورد فيه الترجمة ، وأحسن في انتقاء عباراته التي جعلت من نصوص الترجمة روضة أنفاً مزدانة بأزهى ألوان البيان والبديع.

()

()

()

/

هـ

()

/

()

/

/

/

/

()

هـ

وفي الموضع نفسه أورد ترجمة لجعفر بن عثمان المُصْحَفِي الحاجب<sup>(١)</sup> فقال: «لا بل هو العين، بل المعدن معدن الذهب العين، بل النظرة من الناس الجسم وهو العين، بل هو الذي تقدم به شاؤ الطلق لما ذكر معه حاجب بن زرار، ولا استرهن كسرى قوسه وأبقى عليه عاره، وله يد في الأدب لا تعدّها أصابع النيل، ولا تجيء معها الفرات لريّ الغليل، ولا يعرف سيحون إلا ما ساح منها، ولا جيحون إلا ما أجيح لنقصه عنها»<sup>(٢)</sup>.

فالعمري يرى في نصوص ترجمته فضاءً رحباً لأنّواع الصنعة من صور وتشبيهات، واستعارات وكنایات، وجناس بين الألفاظ فمن الجناس (العين : عين الإنسان والجوهر) ومن الكنية (أصابع النيل).

وفي ترجمة الرمادي<sup>(٣)</sup> قال: «نبعٌ ماؤه من غير ثماد، ونفخت ناره فأضاءت في رماد، عدّته كندة مع ملكها الضليل، وكوفيها المتّبني بالتضليل، وكان في عصر أبي الطيب كلّ منهما يترجم الآخر من كندة في نسبة ومرجل شعره الفاخر في منصبه، حتى فازت كندة بفضلها العرب، وحازت بهما طرف الفخار في

المشرق والمغرب، ورأت له ما رأته أخوة يوسف ليوسفها، وحسّدته بما حصلت إلا على تأسفها...».

فالعمري يعرض الترجم ضمن مساحة حرّة يقدّم فيها ما تجود به ملكته الأدبية كرسام يبدع بريشه لوحة فنية جميلة.

#### ٧- الإشارات التاريخية والدينية :

جعل العمري من الصنعة الفنية وسيلة لعرض إشارات لطيفة من التاريخ العربي، والثقافة الإسلامية المستمدّة من القصص القرآني، ظهر ذلك في الشاهد السابق الذي تضمن إشاراته إلى تعاصر المتّبني والرمادي، وانتسابهما إلى قبيلة كندة العربية<sup>(٤)</sup>، كما ظهر أيضاً في موضع آخر، حيث أشار إلى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، ومع أبيه حين ألقى إخوته ثوبه على وجه أبيه يعقوب فارتدى بصيراً<sup>(٥)</sup>.

## -٨- كثرة الاختيارات الشعرية:

لم يكن الجانب الذي خصصه العمري لترجم الشعرا مقتصرًا على عرض ترجمتهم بكل ما تشتمل عليه من ذكر أسمائهم وأنسابهم وأوصافهم وأهم الأحداث التي جرت في حياتهم، وإنما كان ميدانًا واسعًا أورد العمري فيه كماً كبيراً من الاختيارات الشعرية لأصحاب الترجم، فاستحالت تلك الترجم إلى موسوعة شعرية ضمت أجمل الأشعار المتقدة من جميع العصور التي ذكرها، ولاسيما العصرين الأندلسي والمملوكي.

فقد وقف عند أشهر الأغراض الشعرية التي طرق الشعرا أبوابها، وأورد الاختيارات التي انتقاها من القصائد الشعرية التي نظمها أصحاب الترجم.

## -٩- التجديد في النهج:

أورد العمري في مقدمة الجزء السابع عشر كلاماً مهماً عن طريقته في عرض ترجم شعراً الجانب الغربي من الدولة العباسية، وقارن بين طريقته وطريقة ابن سعيد في كتابيه (المغرب) والمرقصات والمطربات)، فقال: «ثم لم يبق إلا ذكر الشعرا بالجانب الغربي، وأول من بدأ به منهم ابن سعيد وهو المتأخر المجيد، المتصر جمعهم، والقتصر على تحسين صنعهم من أول المئة الرابعة وساقهم إلى زمانه في المئة السابعة مرتبًا على المئين، منظماً لهم نظم العقد الثمين، وأول ما قال إذ ذكرهم ما صورته: شعراً المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المتوسط، الجاهلية وما بعدها إلى المئة الرابعة عاطلة مما هو من شروط هذا الكتاب، ثم ذكرهم على الترتيب، وأدخل مصر في قسم المغرب لسوء حظها العجيب، وقد زدنا على من ذكره ابن سعيد في عدد الأسماء، وفي عدد المختار أضعافاً مضاعفة من أهملها إذ كان كتابنا هذا - والله الحمد - على غير نمطه، ولا على حدٍ مشترطه، ...

ولعل جملة كتاب المغرب تأليف ابن سعيد، ومن قبله لا يجيء حجمه معها قدر السدس، ولا فوائده إلا دون السبع، هذا إلى ما تضمنه كتابنا من علوم جمة، وأمور مهمة، وترجم أعيان هم الناس، وسم من شئت منهم، واستطرد في القياس، مما لا يحكم فيه إلا المُنصِّف، ولا نريد فيه إلا قول الحق لا المسعف، وقد جعلنا المصريين في آخر الجانب الغربي منفردين على ما رأيته وتراه، وعلى ما قضى به عليها سابق القدر، وسوء الحظ الذي لا ينفع معه الحذر»<sup>(١)</sup>.

فالظاهر من كلام العمري أنه سعى في عرض ترجمته إلى تقديم الجديد، إذ اعتمد في منهجه الخاص بعرض الترجم على التوسيع والشمول، وذكر المشهور والمغمور، واستيعاب كل ما يمكن أن يُذكر في الترجمة مما يفيد ويغنى ثقافة القارئ كالحياة الشخصية وأهم الأحداث المرتبطة بالأحوال الاجتماعية والسياسية، وأبرز الاختيارات الشعرية والنشرية ، ولعل هذا العرض الوافي للترجم المتنقا إلى جانب التاريخ الدقيق للأحداث التاريخية والجوانب الاجتماعية في العصر المملوكي على وجه الخصوص هو ما حدا بالعلماء المتأخرين الذين أرّخوا للحقبة المملوكية بالنقل عن العمري كالقلقشندى في (صبح الأعشى) والمقرizi في (الخطط) والسيوطى في (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة). وهذا الأمر يدل على أهمية موسوعة العمري ومكانتها المميزة في المكتبة العربية.



## ثبت المصادر

- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملاليين، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن مجبي الضبي، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي، إدارة إحياء التراث، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.
- الخلة السيراء، ابن الأبار، تحقيق د. حسين مؤنس، الطبعة الأولى، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.
- خربدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، تحقيق مجموعة من الباحثين، قسم العراق تحقيق: محمد بهجة الأثري، مطبوعات المجمع العلمي العراقي العربي ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، قسم الشام: تحقيق: د. شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م، قسم شعراء مصر: تحقيق: أحمد أمين شوقي ضيف، إحسان عباس، طبعة دار الكتب المصرية، مصر، ١٩٥١م.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، دار الجليل، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ديوان ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د. محمد أديب عبد الواحد جمران، الطبعة الأولى، مكتبة العيikan، الرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ديوان جميل بشينة، جمع وتحقيق: حسين نصار، الطبعة الثانية، مصر، ١٩٦٧م.
- الذخيرة في محسن أهل الجزيرة، علي بن سّام الشنتريني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، القاهرة، ١٣٥٠هـ - ١٣٣١هـ.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مصر، ١٩٥٠م.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، إشراف : حسام الدين القدسي ، مصر ، ١٣٥٥ هـ.
- فوات الوفيات والذيل عليها ، محمد بن شاكر الكتببي ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ م.
- المرقصات والمطربات ، ابن سعيد الأندلسي ، تقديم وتحقيق : إبراهيم محمد حسن الجمل ، د. عبد الحميد هنداوي ، دار الفضيلة ، مصر.
- مسائل الأباء في ممالك الأنصار ، ابن فضل الله العمري ، تحقيق د. كامل سلمان الجبوري <sup>مهدى</sup> نجم ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠١٠ م.
- المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد الأندلسي ، تحقيق : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٣ م.
- التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، يوسف بن تغري بردي ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٣ م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقرى ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٨ هـ - ١٤٠٨ م.
- الوافي بالوفيات ، الصدفي ، تحقيق : محمد يوسف نجم ، الطبعة الثانية ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٢ م.
- الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أبيك الصدفي ، عنني به د. إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، ابن خلكان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، أبو منصور الشعابي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مصر ، ١٩٥٦ م.



# **شخصية تراثية**



# الأحنف بن قيس

د. أحمد الخضر\*

لكل أمةٍ عظماءٌ تفتخرُ بهم، ويحق لالأمة العربية أن تفتخرَ برجالٍ خلدوا ذكرهم في التاريخ، بحسن أخلاقهم وصحيح إسلامهم وعظيم أعمالهم، ولا شك أننااليومأشد ما نكون في حاجتنا لهم ولأمثالهم، ففي الليلة الظلماء يفتقدُ البدرُ، وإننا ندعوه بجد وصدق إلى العودة للتراث العربي لإحياء ذكر هؤلاء الرجال ليكونوا قدوةً لأبنائنا،

وأني أرى أن تعظيم ذكرهم هو خير من تعظيم ذكر نابليون الفرنسي أو محمد علي الألباني. وأننا نسعى في هذه المقالة إلى تسليط الضوء على شخصية عربية كان لها عظيم الأثر في تاريخ أمتنا، سنشرح بشيء من التفصيل حياة سيد قبيلة تميم العربية، الأحنف بن قيس، وإن لقائلون حقاً ومحنون صدقاؤه وأهل لحسن الثناء، رجل له فضل على الإسلام وعلى نشر الكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وله فضل علىبني قومه، نعمت تميم بحلمه أربعين عاماً، فقد عاش مودوداً حميداً ومات سعيداً فقيداً وكان عظيم الحلم فاضل السلم رفيع العمام واري الزناد منير الحرير سليم الأديم عظيم الرماد قريب البيت من الناد، ويتناول هذا المقال علاقات الأحنف مع أهم رجال عصره، رجالان قدر الله أن يكونا بنيان الدولة الإسلامية على يديهما، وهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان..... فمن هو الأحنف؟....

/

**أولاً: سيرته :**

اختلف المؤرخون في اسمه فمنهم من قال الضحاك ومنهم من قال الحارث ومنهم من قال صخر<sup>(١)</sup>، على أية حال هو: ابن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزل بن مروة بن مقاعس بن عمر بن كعب بن سعيد بن زيد بن مناة بن تميم<sup>(٢)</sup> والأحنف لقب له لاعوجاج في قدمه، وكان يكنى بأبي بحر<sup>(٣)</sup>، ولد في البصرة، في السنة الثالثة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الموافق لسنة ٦١٩ م<sup>(٤)</sup>. وتوفي الأحنف سنة ٦٧ هـ وقيل توفي في إمارة مصعب بن الزبير على العراق، وقيل سنة ٦٨ هـ، وقيل توفي سنة ٧١ هـ، وقيل سنة ٧٧ هـ، وكان أعوراً صغير الرأس أصلع غير العينين أحنف الرجل<sup>(٥)</sup>. إلا أنه كان حليماً حكيناً، وصفه الذهبي بـ "الأمير الكبير العالم النبيل، أبو بحر التميمي، أحد من يضرب بحلمه وسؤده المثل"<sup>(٦)</sup>، وقال عنه خالد بن صفوان: "كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه"<sup>(٧)</sup>، شارك في الفتوحات الإسلامية وإعلاء كلمة الله وفتح بلاد الفرس.

**ثانياً: إسلامه :**

سبباً بتسليط الضوء على إسلامه، لما إسلامه من فضل على الدين بوصفه فقيهاً ومحدثاً، وقبل كل شيء رجلاً تقىً يخاف الله تعالى، لما بعث رسول الله الرُّسل والمبلغين إلى القبائل العربية يدعوهم إلى الإسلام، بعث رجلاً منبني ليث إلىبني سعد، فجعل يخبرهم ويدعوهم إلى دين الله والدخول في الإسلام، فلقيه الأحنف بن قيس واستمع إليه ثم قال: "إنه يدعو إلى خير وما أسمع إلا حسناً". فلما عاد هذا الرجل إلى مكة المكرمة روى لرسول الله ما كان من أمر الأحنف، فقال رسول الله: "اللهم اغفر للأحنف"<sup>(٨)</sup>. فكان الأحنف يقول: "فما شيء أرجى عندي من ذلك"<sup>(٩)</sup>، أسلم الأحنف في حياة الرسول ولم يره، لذلك يعتبر من التابعين من الطبقة الأولى<sup>(١٠)</sup> لا من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. كان رجلاً تقىً يخاف الله تعالى، حدث عن عمر بن الخطاب، وعن علي بن أبي طالب، وعن أبي ذر الغفاري، وعن العباس عم النبي، وعن عبد الله بن مسعود، وعن عثمان بن عفان، وروى عن الأسود بن سعيد، وجارية بن قدامة السعدي، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله<sup>(١١)</sup>. وقال الأحنف: "سمعت خطبة أبي بكر وعمر بن الخطاب والخلفاء، مما سمعت الكلام من مخلوق أفحش ولا أحسن من أم المؤمنين عائشة"<sup>(١٢)</sup>.

وحدث عنه عمرو بن جاوان، والحسن البصري، وعروة بن الزبير، وطلق بن حبيب، وعبد الله بن عميرة، ويزيد بن الشخير<sup>(١٣)</sup>، وحميد بن هلال العدواني، وخالد أبو إدريس البصري، وخالد العصري، وطلق بن حبيب العنزي، وعبد الله بن يزيد الباهلي، ومالك بن دينار، وهارون بن رئاب، وأبو العلاء يزيد

بن عبد الله بن الشخير وآخرون، وهو قليل الرواية، قال ابن سعد: "كان ثقة مأموناً قليل الحديث وكان صديقاً لمصعب بن الزبير"، وقال عنه يعقوب بن سفيان الفسوبي: "كان الأحنف جواداً حليماً وكان رجلاً صالحًا أدرك الجاهلية ثم أسلم وذكر للنبي فاستغفر له، وقال كان ثقة مأموناً قليل الحديث وكان كثير الصلاة في الليل"<sup>(١٤)</sup>، ويمتاز ذكر الأحنف بروياته بتفسير القرآن، وكان له آراءه الفقهية ومنها مسألة تخطي رقاب الناس في يوم الجمعة، حيث ذكر ابن سعد عن الأزرق بن قيس أن الأحنف كان يكره أن يتخطي رقاب الناس قبل خروج الإمام يوم الجمعة<sup>(١٥)</sup>.

وعن مولى للأحنف كان يصحبه قال: كنت أصاحب الأحنف فكان عاملاً صلاته بالليل، وكان كثير الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه ثم يقول: "حس"، ثم يقول: "يا أحنف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ وما حملك على ما صنعت يوم كذا؟"<sup>(١٦)</sup>. وكان يؤخذ ولا يأخذ بالرخص باعتباره قدوة وإماماً يقتدى به، وكان حريصاً على الصلاة بأوقاتها برغم كل الظروف الصعبة، ومنها ما ذكر عنه أنه استعمل على خراسان، وأُجنب في ليلةٍ باردةٍ فلم يوقظ أحداً من غلمانه وكسر ثلباً واغتسل<sup>(١٧)</sup>. وكان حريصاً على الصيام حتى آخر عمره، ويذكر المؤرخون أنه قيل للأحنف: "إنكشيخ ضعيف وإن الصيام يضعفك"، فقال: "إني أعده لشر يوم طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه"<sup>(١٨)</sup>. وكان الأحنف كثير النظر في المصحف. وكان كثير الدعاء والابتهاج لرب العالمين، وقد أثر عنه أنه كان يقول في الأحنف: "اللهم إن تغفر لي فأنت أهل لذلك وإن تعذبني فأنا أهل لذلك"<sup>(١٩)</sup>. وكان من دعائه: "اللهم هب لي يقيناً تهون به علي مصائب الدنيا".<sup>(٢٠)</sup>.

### ثالثاً: سيرته في الفتوحات الإسلامية:

شارك الأحنف بن قيس في الفتوحات الإسلامية ونشر كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله وإعلاء كلمة الحق زمن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد كتب الله على يدي الأحنف فتح تستر (وهي من أرض البصرة) وكان تخضع لاحتلال الفرس، بعدها قدم الأحنف على عمر بن الخطاب، وقال: "له قد فتح الله عليكم تستر"، فنهض رجل من المهاجرين وقال: "يا أمير المؤمنين هذا الرجل (يعني الأحنف) كف عنا بني مرة حين بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدقائهم، وقد كانوا هموا بنا". فحبسه عمر عنه سنة كاملة، يقول الأحنف: "كان يأتيه في كل يوم وليلة فلا يأتيه يعني إلا ما يحب ثم دعاني فقال: يا أحنف هل تدرى لما حبستك عندي؟!، فقلت لا يا أمير المؤمنين، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذرنا كل منافق عليم فخشيت أن تكون منهم، فاحمد الله يا أحنف".<sup>(٢١)</sup>.

وكان جبهة الفتوحات مشتعلة، وقد كتب الله لل المسلمين أكثر من فتح على يدي أكثر من قائد، ومنها فتح المدائن، وكان عمر يرى أن يقف بالفتحات عند الجبال التي تحيط بحدود الشام والعراق لا يتعداها، وأن يصلح وينظم البلدان المفتوحة، فكتب الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص بعد فتح المدائن إلى الخليفة يستأذنه في مطاردة الفرس خلف جبالهم، فقال له عمر رضي الله عنه: "وددت لو أن السواد والجبال سداً لا يخلصون إلينا ولا يخلص إليهم حسبنا من الريف السود" <sup>(٢٢)</sup>. فاعتذر الفرس أن عمر رضي الله عنه لم يأذن لقواته بتتابعهم لأنه يخافهم، فتجرؤوا على المسلمين وتحرشوا بهم إلا أنهم هزموا هزيمة نكراء، وكان ذلك في السنة السابعة عشرة للهجرة، فشاور عمر رضي الله عنه الأحنف بن قيس فأشار عليه بضرورة فتح بلاد فارس، فاستحسن عمر رأيه، وأمر قواته بالانسياح في بلاد فارس، وكان ذلك في السنة الثامنة عشرة للهجرة <sup>(٢٣)</sup>.

وهكذا تجهزت جيوش عمر لفتح بلاد فارس وبعث عمر بالألوية مع سهيل بن عدي، فدفع لواء خراسان للأحنف بن قيس، ولواء أردشير مزه وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء اصطخر إلى عثمان بن أبي العاص التيفي، ولواء فسا ودرابجرد إلى سارية بن زينم الكناني، ولواء كرمان ظل مع سهيل بن عدي، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمر، وكان عاصم من الصحابة، فخرجوا سنة سبعة عشر فعسكروا ليخرجوا إلى هذه الكور فلم يستتب سيرهم حتى دخلت سنة ثمان عشرة، وأمدتهم عمر بأهل الكوفة <sup>(٢٤)</sup>. فدخل الأحنف خراسان وكتب الله على يديه فتح الطبسين وهراة ومررو الشاهجان ونيسابور في مدة يسيرة وهرب منه يزدادجرد بن شهريار ملك الفرس إلى خاقان ملك الترك بما وراء النهر <sup>(٢٥)</sup>، وإن كان بعض المؤرخين قد أورد خبر فتح خراسان وأشار إلى أن قيادة الجيوش كانت لابن عامر <sup>(٢٦)</sup>، إلا أنهم ذكروا أن الأحنف كان على مقدمتها، حيث لقي جيش المسلمين أهل هراة فهزموهم وتقدم حتى فتح أبرشهر صلحًا (ويقال عنوة) ثم بعث ابن عامر أربعة آلاف رجل تحت قيادة الأحنف إلى طوقان شاة فاقتتلوا قتالاً شديداً وكان النصر لل المسلمين، وكان الأحنف في ساحة المعركة يحمل على أعداء الإسلام وهو يقول:

### إن على كل رئيس حقاً أن ينضب القناة أو تندقاً

حمل على صاحب الطبل فقتله، ثم اندفع باتجاه الكردوس الثاني وقتل صاحب الطبل فيه أيضاً، فخاف الفرس لما سكتت طبولهم فولوا هاربين، فتبعهم المسلمون يقتلون منهم حتى فتحوا مدينة يقال لها مررو الروذ <sup>(٢٧)</sup>، وعن إسماعيل بن مسلم عن ابن سيرين قال: بعث ابن عامر الأحنف بن قيس إلى مررو الروذ فحصر أهلها فخرجوا فقالوا: "يا معاشر العرب ما كنتم عندنا كما نرى ولو علمنا أنكم - كما نرى - لكان لنا ولكم حال غير هذه فأمهلوا ننظر يومنا وارجعوا إلى عسكركم، فرجع الأحنف". وسار الأحنف إلى بلخ فصالحوه على أربع مائة ألف، ثم سار إلى خوارزم فلم يطغها فرجع.

صالح ابن عامر على ما بقي من أبرشهر (يعني خراسان) على ألف ألف درهم ومائة ألف فارد من الطعام وبعث أهل مرو يطلبون الصلح فصالحهم على ألفي ألف ومائتي ألف وكان الذي صالح ماهويه بن آزر مربزيان مرو، ويقال: إن الذي صالح أهل مرو حاتم بن النعمان الباهلي بعثه ابن عامر، وعن ابن اسحاق أن ابن عامر عندما خرج من خراسان معتمراً، ولـي الأحنف مكانه، فهم أهل تختستان وأهل الجوزان والفارياب والطالقان وعليهم الطوقان شاه، وتجمعوا في مرو يريدون الغدر بالأحنف فجرد لهم جيشاً من المسلمين هزمهم به شر هزيمة<sup>(٢٨)</sup>.

وهكذا يتضح لنا الدور الذي لعبه الأحنف في الفتوحات الإسلامية ودوره في إعلاء كلمة الله، ونشر دين الإسلام، وبفضل جهوده وجهود غيره من كبار قادة المسلمين في فتح بلاد فارس، أصبحت ثاني إمبراطورية في ذلك العصر تدين بالولاء والطاعة للعرب.

#### **رابعاً: مواقف الخليفة الراشدي عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه:**

يروى أن عمر ذكر ذات يوم بني تميم فذمهم، فقام الأحنف فقال: "يا أمير المؤمنين أئذن لي"، فقال: "تكلم"، فقال: "إنك ذكرت بني تميم فعممتهم بالذم وإنما هم من الناس فيهم الصالح والطالع"، فقال عمر: "صدقت"، فقام الحنات وكان يناؤه، فقال: "يا أمير المؤمنين أئذن لي فأتكلم"، فقال له عمر: "اجلس فقد كفاكم سيدكم الأحنف".

ويذكر المؤرخون أن وفد البصرة دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان فيهم أبو موسى الأشعري والأحنف بن قيس، فتكلم كل رجل في خاصة نفسه، وكان الأحنف في آخر القوم فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال: "أما بعد - يا أمير المؤمنين - فإن أهل مصر نزلوا منازل فرعون، وأصحابه وأهل الشام نزلوا منازل قيسر وأصحابه، وإن أهل الكوفة نزلوا منازل كسرى ومصانعه في الأنهر والجنان، وفي مثل عين البعير والخوار في السلى تأثيرهم ثمارهم قبل أن تبلغ، وإن أهل البصرة نزلوا في أرض سبخة زعة نشاشة لا يجف ترابها ولا ينبت مرعاها، وطرفها في بحر أجاج وطرف في فلاة، لا يأتينا شيء إلا في مثل مريء النعامة، فارفع خسيستنا وأنعش وكيستنا، وزد في عيالنا عيالاً وفي رجالنا رجالاً وصغر درهماً وكبر قفيزاً ومر لنا بنهر نستذهب منه"، فقال عمر رضي الله عنه: "عجزتم أن تكونوا مثل هذا، هذا والله السيد"، ويقول الأحنف: "فما زلت أسمعها بعد".

كان الأحنف رجلاً زاهداً في الدنيا ورعاً، وكان عمر يقدر له ذلك، فذات مرة قال له عمر: "أي الطعام أحب إليك؟" فقال الأحنف: "الربد والكمأة"، فقال عمر: "ما هما بأحب الأطعمة إليه ولكن يحب الخصب للمسلمين<sup>(٢٩)</sup>". وكان عمر يحترم فصاحة الأحنف وبلاغة كلامه وما قاله عمر: "هو مؤمن عليم

اللسان<sup>(٣٠)</sup>. وكما كان عمر يحترم الأحنف بن قيس كان الأحنف يكن الاحترام لعمر، حتى أنه سُئل ذات مرة وقيل له : "بما أُوتيت ما أُوتيت من الحلم والوقار؟" فقال : " بكلمات سمعتها من عمر بن الخطاب ، سمعته يقول يا أحنف من فرح استخف ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثُر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعيه ، ومن قل ورعيه مات قلبه<sup>(٣١)</sup>". رحمك الله يا أبي بحر ، فقد صدق العرب حين قالت : "عاشت بنو تميم بحلم الأحنف أربعين سنة". وصدق الحسن البصري حين قال عنك : "ما رأيت شريف قوم كان أفضل من الأحنف بن قيس<sup>(٣٢)</sup> .

### **خامساً : موقفه من الفتنة :**

قبل الخوض في هذا الموضوع علينا أن نتذكر مقوله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : " تلك دماء طهّرَ الله أيدينا منها ، فلا نلوث أستاننا" ، ولكننا نذكر موقف الأحنف بن قيس حتى نشير إلى أنه كان صاحب رأي و موقف ، لا ميالاً مع هواه . فلما نشب القتال بين علي كرم الله وجهه والسيدة عائشة أم المؤمنين ، اعتزل القتال ، أي يوم الجمل<sup>(٣٣)</sup> ، وقال لقومه : "يا معاشربني تميم لا تسرعوا إلى الفتنة فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار<sup>(٣٤)</sup>" . إلا أن الأحنف شهد صفين<sup>(٣٥)</sup> وكان في صف الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه<sup>(٣٦)</sup> . وكانت قضية الخوارج من الفتن الكبرى التي واجهت المسلمين بعد صفين والتحكيم ، والخوارج طائفة كانت تقاتل في صف الإمام علي كرم الله وجهه ، فلما أدرك معاوية بن أبي سفيان ضعف جيشه وأن النصر لعلي وجنته طالب بالتحكيم ، عندها حثت هذه الطائفة الإمام علي على عدم قبول التحكيم ، ولما انتهت التحكيم دون أن يتفق الفريقان على حلٍ وسط ، سخطت هذه الطائفة على الإمام علي ، لا بل إنها كفرته ، وكان منهم رجل يقال له : نافع بن الأزرق<sup>(٣٧)</sup> ، أقام في الأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال ، فإذا أجيبي إلى المقالة جبا الخراج وفشا عماله في السواد (أي أهل العراق) فارتاع أهل البصرة فاجتمعوا على الأحنف بن قيس فشكوا ذلك إليه وقالوا : "ليس بيننا وبين العدو إلا ليتان وسيرتهم على ما ترى" ، فقال الأحنف : "إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم فجدوا في جهاد عدوكم" ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، فسأله أن يؤمر عليهم فاختار لهم ابن عبيس بن كربلا وكان دينا شجاعاً وسار حتى لقي ابن الأزرق وتقاتلاً حتى قتل الأزرق وقتل ابن عبيس<sup>(٣٨)</sup> .

وهكذا يتضح أن مثل هؤلاء الرجال يخالفون الله ويختلفون على مصير الأمة لذلك رفضوا أن ينزلقوا في خلافاتها ، وحاولوا قدر الإمكان تجنب أحداث الفتنة ، لكن في أحيان كثيرة يضطر أسياد القوم إلى المواجهة ، مواجهة المشكلة ومفعليها خير من النأي بالنفس ودس الرأس في الرمل ، والرجل المستقيم الكريم وسيد قومه لا تلومه في الله لومة لائم ، ومواجهة المشكلة خير من الهروب للأمام .

### سادساً: موقفه عند معاوية بن أبي سفيان:

ولما ألم الله الحسن عليه السلام حل الخلاف بين فتئين من المؤمنين، وسمى مبيض وجوه المؤمنين، وبائع معاوية بن أبي سفيان، قام الأحنف إلى معاوية وبايده، فعاتبه معاوية وحاطبه بـ(يا أحنف)، فرد عليه الأحنف بـ(يا معاوية) فلما ترافق به معاوية وقال له: "عهدتكم حليما يا أبا بحر"، فرد عليه الأحنف وقال: "ليس بالند يا أمير المؤمنين"، وكانت ابنة معاوية تستمع لحوارهما، وكانت تعجب لهذا الرجل الذي يرد على الخليفة بهذا الأسلوب، فقال لها معاوية: "هذا الذي إذا غضب يغضب لغضبه مئة ألف فارس من بني قيم، لا يسألونه في ما غضب".

وكان معاوية يحترم الأحنف ويظهر له كبير القدر من الاحترام. ولما كانت العراق مصرًا من أهم أمصار الأمة الإسلامية، رماه بنو أمية بدھاة العرب، وكان زياد ابن أبيه واليًا على العراق وكان يحترم الأحنف، فلما تولى الأمر مكانه ابنه عبيد الله بن زياد أهمل أمر الأحنف، ويدرك المؤرخون أن عبيد الله وفد على معاوية مع الأشراف، فقال له معاوية أدخلهم على قدر مراتبهم، فأخر الأحنف، فلما دخل الأحنف على معاوية أكرمه معاوية وقال: "إلي يا أبا بحر" وأجلسه معه وأعرض عنهم، ولما تحدثوا أمام معاوية أخذوا في مدح عبيد الله، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: "لم لا تتكلّم"، فقال الأحنف: "إن تكلمت خالفتهم"، فقال معاوية: "أشهدوا أني قد عزلت عبيد الله"، فلما خرج القوم من عند الخليفة كان فيهم من يروم الإمارة، ثم أتوا معاوية بعد ثلاثة أيام وذكر كل واحدٍ شخصاً وتنازعوا، فقال معاوية: "ما تقول يا أبا بحر"، قال: "إن وليت أحداً من أهل بيتك لن تجد مثل عبيد الله"، فقال معاوية: "أعدته"، فخلا معاوية بعبيد الله وقال له: "كيف ضيّعت مثل هذا الرجل الذي عزلك وأعادك وهو ساكت"، فلما رجع عبيد الله جعل الأحنف صاحب سره.

ويذكر المؤرخون أن الأحنف ذات يوم حدث معاوية حديثاً، فقال له معاوية: "أتكذب؟" فقال له الأحنف: "والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشن أهله<sup>(٣٩)</sup>". وذكر ابن الجوزي عن الحسن قال: "كانوا يتكلمون عند معاوية والأحنف ساكت" ، فقالوا: "مالك يا أبا بحر لا تتكلّم" ، فقال: "أخشى الله إن كذبت وأخشاهم إن صدقت<sup>(٤٠)</sup>". وما رواه ابن الجوزي أن الأحنف قال لمعاوية في إصلاح الحاكم: "أنت الزمان فإن صلحت صلح حال الناس<sup>(٤١)</sup>" .

ويذكر ابن شبرمة أن معاوية كان مع نفر من أصحابه ومنهم الأحنف بن قيس إذ قال رجل: "لو أن أبا سفيان ولد الناس ولدhem حلماء" ، فقال الأحنف: "لكنه ولدhem من هو خير من أبي سفيان، ولدhem آدم أبو البشر فكان فيهم العالم والسفيه والحليم" ، فقال معاوية: "يا أحنف إني كنت لأكره أن أراك خطيباً" ، فقال الأحنف: "يا معاوية إني كنت لأكره أن أراك أميراً، فلم يقل له معاوية شيئاً<sup>(٤٢)</sup>" .

وهكذا يتضح كم كان الأحنف رجلاً شجاعاً لا يعرف الكذب والنفاق، ولا المهادنة والمواربة، كان صاحب وزن وكلمة، فرض احترامه وعظيم قدره على معاوية، داهية العرب وملوكهم، ذلك الرجل الذي استطاع بما آتاه الله من رجاحة العقل وبعد النظر أن ينزل الناس في منازلهم، ويقدّرهم بحسب ما يستحقون، وهذا يفسر سر الحظوة التي حاز عليها سيد تميم عند الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان.

### سابعاً : حلمه وحكمته :

"كان الأحنف جواداً حليماً، وكان رجلاً صالحًا<sup>(٤٣)</sup>"، وكان "سيد أهل البصرة الذي يضرب به المثل في الحلم والوقار<sup>(٤٤)</sup>"، كان حليماً "وله أخبار في حلمه سارت بها الركبان<sup>(٤٥)</sup>"، وكان يقول : "تعلمت الحلم من قيس بن عاصم<sup>(٤٦)</sup>"، كان حكيمًا تشهد على ذلك مقولاته، فقد روى سليمان التميمي عنه أن الأحنف قال : "ثلاثٌ فيَّ ما ذكرهن إِلَّا لِعْتَرْ، مَا أَتَيْتَ بَابَ سُلْطَانٍ إِلَّا أَدْعَىْ، وَلَا دَخَلْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ حَتَّىْ يَدْخُلَانِي بَيْنَهُمَا، وَمَا ذَكَرْ أَحَدًا بَعْدَ أَنْ يَقُومَ مِنْ عَنْدِي إِلَّا بَخِيرٌ" وروي عنه أنه قال : "ما نازعني أحد إلا أخذت أمري بأمور : إن كان فوقني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدرني عنه، وإن كان مثلني تفضلت عليه<sup>(٤٧)</sup>"، وقال : "لست بخليم ولكني أتحلم". وقيل : إن رجلاً خاصم الأحنف وقال : "لئن قلت واحدة لتسمعن عشرًا" ، فقال الأحنف : "لكنك إن قلت عشرًا لم تسمع واحدة<sup>(٤٨)</sup>". وروي أن رجلاً قال للأحنف بم سدت قومك وأنت أحنف أعور" ، وأراد أن يعييه ، فقال له الأحنف : "بتركي ما لا يعنيني ، كما عناك من أمري ما لا يعنيك<sup>(٤٩)</sup>" . وروي عن ذي الرمة قال : شهدت الأحنف بن قيس وقد جاء إلى قوم في دم ، فتكلم فيه وقال : "احتكموا" ، فقالوا : "نحتكم ديتين" ، قال : "ذاك لكم" ، فلما سكتوا ، قال : "أنا أعطيكم ما سألتم ، فاسمعوا إن الله قضى بدية واحدة وإن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بدية واحدة والعرب تعاطى بينها دية واحدة ، وأنتم اليوم تطالبون وأخشى أن تكونوا غداً مطلوبين فلا ترضى الناس منكم إلا بمثل ما سنتتم" ، فقالوا : "ردها إلى دية" . صدق ابن الأثير الجزري حين قال : "كان الأحنف أحد الدهاء العقلاء<sup>(٥٠)</sup>" . ويروى أن الأحنف رأى درهماً في يد رجل ، فقال له : "لم هذا" ، فرد الرجل : "لي" ، فقال الأحنف : "إنه ليس لك حتى تخرجه في أجر أو اكتساب شكر وتمثل أنت للمال إذا أمسكته ، وإذا أنفقته فمال لك" . وقيل : إنه قال : "لا ينبغي للأمير الغضب لأن الغضب في القدرة مفتاح السيف والندامة" . وقال : "إن رأيت الشر يتركك إن تركته فاتركه<sup>(٥١)</sup>" . وقال : "لا يتم أمر السلطان إِلَّا بالوزراء والأعونان ، ولا ينفع الوزراء والأعونان إِلَّا بالمردة والنصيحة ، ولا تنفع المردة والنصيحة إِلَّا بالرأي والعلفة" . وقال : "رأس المروءة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس<sup>(٥٢)</sup>" . وقال : "إن عجبت لشيء ، عجبت لرجال تنمو أجسادهم وتصغر عقولهم" . وقال : "من لم يصبر على كلمات سمع كلمات<sup>(٥٣)</sup>" . وقال : "ثلاثة لا يتصفون من ثلاثة : شريف

من دنيء، وبر من فاجر، وحليم من أحمق<sup>(٥٤)</sup>. وقال : "الأدب آلة المنطق لا خير من قول بلا فعل ، ولا في منظر بلا خبر ، ولا في مال بلا جود ، ولا في صديق بلا وفاء ، ولا في فقيه بلا ورع ولا في صدقة إلا بنية ، ولا في حياة إلا بصحة وأمن ، والعتاب مفتاح التقى ، والعتاب خير من الحقد". وقال : "الحلم هو الذي مع الصبر<sup>(٥٥)</sup>". وسئل عن المروءة فقال : "كتمان السر والبعد عن الشر". وقال : "كثرة الضحك تذهب البهية ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عرف به<sup>(٥٦)</sup>". وسمع الأحنف بن قيس رجلا ذات مرة يقول : "التعليم في الصغر كالنقش على الحجر" ، فقال له : "الكبير أكبر عقلاً ولكنه أشغل قلباً<sup>(٥٧)</sup>". وكان الأحنف يقول : "حشف الرجل محبوه تحت لسانه"<sup>(٥٨)</sup>. وقال : "أحبي معرفتك بإماتة ذكره<sup>(٥٩)</sup>". وقال : "ما قل سفهاء قوم قط إلا ذلوا<sup>(٦٠)</sup>". وقال : "أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار<sup>(٦١)</sup>". وقال : "الكامل من عدت هفواته<sup>(٦٢)</sup>". وقال : "ما ذكرت أحداً بسوء بعد أن يقوم من عندي<sup>(٦٣)</sup>". ووقف ذات مرة خطيباً بقومه في خراسان فقال لهم : "يا بني تميم تحابوا تجتمع كلمتكم ، وتبذلوا تعتدى أموالكم ، وابذلوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ، ولا تغلووا يسلم لكم جهادكم<sup>(٦٤)</sup>" . أوليس هذا القول البلigh يستحق أن يكتب بماء الذهب ويعلق في بيوت أمراء العرب وسادتهم ، رحمة الله يا أبا بحر.

وذكر أن بعض الخلفاء سأله رجلاً عن الأحنف وعن صفاته ، فقال الرجل : "يا أمير المؤمنين أخبرك باثنين ، كان الأحنف يفعل الخير ويحبه ، ويتوثقى الشر ويبغضه ، وكانت له ثلاثة خصال ، كان لا يحسد أحداً ، ولا يبغى على أحد ، ولا يمنع على أحد حقه ، وأخبرك عنه بوحدة ، كان من أعظم الناس سلطاناً في قيامه على نفسه<sup>(٦٥)</sup>". وروي أن رجلاً قال ليعيي البرمكي : "أنت والله أحلم من الأحنف بن قيس" ، فقال يعيي : "لا يقربنا من أعطانا فوق حقنا<sup>(٦٦)</sup>".

ومن بلاغة قول الأحنف ، وحسن حديثه ، ومن قول الثقة والمؤرخين فيه ، يتضح لنا كم كان هذا الرجل حسن البيان ، سليم اللسان ، عامر الجنان ، قوي الإيمان ، ونحن نفخر به ، وتفخر به أمةً ما برحت تنجب الأبطال من قبل ثور.

### ثامناً : علمه :

كان الأحنف عليم اللسان بليغاً حكيم الزمان ، حليماً انشد قليلاً من الشعر ، وربما أن قلته كانت لأسباب متعددة أهمها أن الأحنف كان رجلاً فقيهاً محدثاً مجاهداً في سبيل نشر الإسلام ، وهذه أمور تتطلب الكثير من الجهد ، وتحتل الكثير من الوقت هذا إذا لم نقل الوقت كله ، ولكن نذكر هنا مما أنسد :

**العنكبوت بنت بيتا على وهن تأوي إليه وماليء مثلها وطن**

والخنساء لها من جنسها سكن وليس لي مثلها ألف ولا سكن<sup>(٦٧)</sup>

وقف الأحنف بن قيس على قبر أخيه فأنسد:

فوا لله لا انسى قتيل رزقته  
بلى إنها تعفو الكلوم لاغما  
نجوكل بالأدنى وان جل ما يمضى (٦٨)  
جانب قوس ما مشيت على الأرض

تاسعاً: وفاته:

توفي الأحنف في إمارة مصعب بن الزبير على العراق<sup>(٦٩)</sup>، وقال قرة بن خالد حدثنا أبو الضحاك أنه أبصر مصعباً يمشي في جنازة الأحنف بلا رداء، وقال (أبي مصعب): "مات اليوم سيد العرب"<sup>(٧٠)</sup>. وروى أبو عمر بن العلاء أن الأحنف توفي في دار عبيد الله بن أبي الغضنفر.

الخاتمة

كنا قد أسلفنا في فقرات مقالتنا وفي سطورها، سطوراً عن حياة رجلٍ عظيمٍ، يمكننا أن نوجزها بالقول: كان الأحنفُ رجلاً شريفاً حليماً تقياً فقيهاً ومحدثاً، وقبل كل شيءٍ رجلاً يخافُ الله تعالى، كان سيداً لقومه لا تلومه في الله لومة لائم، كان حسن البيان، سليم اللسان، عامر الجنان، قوي الإيان، كان رجلاً شجاعاً لا يعرف الكذب والنفاق، ولا المهادنة والمواربة، كان صاحب وزن وكلمة، حضي بمكانة لا تداني عند الفاروق، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وفرض احترامه وعظيم قدره على الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، كان كريماً جوداً، مجاهداً في سبيل نشر الإسلام. إن فتح كتب التاريخ وإحياء سيرة هؤلاء العظماء من أمتنا، هو ما نحتاجه في أيامنا هذه، في زمنٍ ضاعت فيه المثل الأخلاقية والقيم العليا، نحن بحاجة إلى رجالٍ مثل أولائك الرجال، رجال لا هم لهم إلا هموم القوم، وهمهم آخر ما يفكرون به، فسيد القوم خادمهم.

## الهوامش

- (١) ابن حجر، شهاب الدين، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٣٢٨هـ ، ج١ ، ص١٠٠
- (٢) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م، ج٧، ص٩٣
- (٣) ابن الأثير عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط١ ، تحقيق محمد علي الجباوي ، دار النهضة القاهرة ، ١٩٦٠م ، ج١ ، ص٧٨
- (٤) ابن خياط، خليفة، الطبقات، ط١ ، تحقيق د.أكرم ضياء العمري مطبعة الآداب ، النجف ، العراق ، ١٩٦٩م ، ص٩٥
- (٥) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله ، عيون الأخبار ، ط١ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٢م ، ج٤ ، ص٣٥.
- (٦) الذهبي، أبو عبد الله محمد، سير أعلام النبلاء ، ط٢ ، تحقيق: د.بشار عواد معروف ، دار الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ج٤ ، ص٨٦.
- (٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار ، ج١ ، ص٢٢٨
- (٨) ابن حنبل، أحمد، المسند ، ج٥ ، ص٣٧٢.
- (٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج٤ ، ص٨٨.
- (١٠) ابن عبد البر، يوسف، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٣٢٨هـ ، ص١٢٨
- (١١) المزي، جمال الدين ، تهذيب الكلام في أسماء الرجال ، ط١ ، تحقيق بشار عواد معروف ، دار الرسالة لبنان ١٩٨٠م ، ج٢ ، ص٢٨٣
- (١٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج٤ ، ص٩٥.
- (١٣) المزي، تهذيب الكلام ، ج٢ ، ص٢٨٣
- (١٤) الفسوسي، أبو يوسف يعقوب، المعرفة والتاريخ ، ط١ ، تحقيق د.أكرم ضياء العمري مطبعة الأوقاف العامة ، العراق ، ١٩٧٦م ، ج٣ ، ص٣٦٧
- (١٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى ، ج٧ ، ص٢٨٣
- (١٦) ابن الجوزي، عبد الرحمن ، صفوة الصفوة ، ط١ ، تحقيق محمد الفاخوري ، مطبعة دمشق ، دمشق ، ١٩٧١م ، ج٣ ، ص١٩٩

- (١٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٩٢.
- (١٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩١
- (١٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩٢
- (٢٠) بدران، عبد القادر، تهذيب تاريخ دمشق، ط ٢، دار الميسرة بيروت، ١٩٧٦م، ج ٧، ص ١٩
- (٢١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٨٨.
- (٢٢) الطبرى، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ط ٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م ج ٤، ص ٢٨
- (٢٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٠
- (٢٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩٤
- (٢٥) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ط ٣، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٧، ج ٣، ص ٤٠٩.
- (٢٦) ابن عامر: هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي الذي فتح بلاد فارس وخرسان وكابل وهو ابن خال عثمان بن عفان رضي الله عنه، انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط ٢، لبنان، ١٩٧٨م، ج ٦، ص ١٨٧.
- (٢٧) ابن قتبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ١٤٧
- (٢٨) ابن خياط، خليفة، التاريخ، ط ١، تحقيق د. أكرم ضياء العمري مطبعة الآداب، العراق، ١٩٧٦م، ج ١، ص ١٤١.
- (٢٩) ابن قتبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ١٩٧
- (٣٠) ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، ط ١، دار التقوى، مصر، ١٩٩٩م، ج ٨، ص ٣٣٠.
- (٣١) بدران تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ١٥
- (٣٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٩٥
- (٣٣) ابن الأثير عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ١، ص ٧٨
- (٣٤) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد، العقد الفريد، ط ٣، تحقيق مفید قمیحة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م، ج ٧، ص ٢٢٢
- (٣٥) وصفين موضع على ضفة الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، وفيه كانت واقعة بين معاوية وعلي رضي الله عنهما سنة ٣٧هـ، انظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٤١٤
- (٣٦) ابن الأثير عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ١، ص ٧٨
- (٣٧) نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الواثلي الحروري أبو راشد رأس الأزرارقة، وكان أمير وفقيه أهل

- البصرة، قتل سنة ٦٦١ هـ، انظر: الزركلي، الأعلام، ج. ٧، ص ٣٠٩
- (٣٨) المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ٢٩٣ م، ج ٢، ص ٢١١
- (٣٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٨
- (٤٠) ابن الجوزي، صفة الصفة، ج ٣، ص ١٩٨
- (٤١) ابن الجوزي، عبد الرحمن المصباح المستضيء في خلافة المستضيء، ط ١، تحقيق ناجية عبد الله ووزارة الأوقاف العراقية، بغداد ١٩٧٦، ج ١، ص ١٨٣.
- (٤٢) وكيع، محمد بن خلف، أخبار القضاة، ط ٢، عالم الكتب، بيروت ١٩٧٢ م، ج ٣، ص ٩٥
- (٤٣) الفسوبي، المعرفة والتاريخ، ج ٣، ص ٣٦٧
- (٤٤) الصفدي، أبو الصفاء خليل، الشعور بالعور، ط ١، تحقيق د. عبد الرزاق حسين، دار عمار، الأردن، ١٩٨٨ م، ص ١٤٨.
- (٤٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٣٠
- (٤٦) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجليل بيروت ٢٠٠٢ م، ج ٢، ص ٤٢
- (٤٧) الماوردي، علي بن عمر، أدب الدنيا والدين، ط ٣، تحقيق محمد علي الحباوي، دار الكتاب بيروت، ١٩٦٨ م، ص ٢٤٧
- (٤٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٣١
- (٤٩) العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ط ١ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٢٨ هـ، ج ١، ص ١٠١
- (٥٠) ابن الأثير عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ١، ص ٧٧
- (٥١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ٩١
- (٥٢) الزمخشري، محمود بن عمر، رباع الأبرار ونحوه الأخبار، ط ٢، ٢٠٠٦ م، بيروت، ج ٢، ص ٤٠٠
- (٥٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٧٦
- (٥٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٩٣
- (٥٥) ابن خالكان، شمس الدين، وفيات الأعيان أبناء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر لبنان، ١٩٧٢ ج ٢ ص ٥٠١

- (٥٦) المصدر نفسه، ج ٢ ص ٥٠١.
- (٥٧) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٥٧.
- (٥٨) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٣١.
- (٥٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٣١.
- (٦٠) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ٨٧.
- (٦١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٧.
- (٦٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٢١١.
- (٦٣) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ج ٢، ص ١٩٨.
- (٦٤) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٩٣.
- (٦٥) ابن العماد، أبي الفلاح عبد الحفيظ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط ٢، دار الميسرة، بيروت، ١٩٧٩م، ج ١، ص ٧٨.
- (٦٦) الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ٣٦٢.
- (٦٧) الثعالبي، عبد الملك، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ط ١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٤٣٢.
- (٦٨) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣، ص ٢١٢.
- (٦٩) ابن خالكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥٠٤.
- (٧٠) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٩٥.

## المصادر المعتمدة

- (١) ابن الأثير عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط١، تحقيق محمد علي الجباوي، دار النهضة القاهرة، ١٩٦٠ م
- (٢) بدران، عبد القادر، تهذيب تاريخ دمشق، ط٢، دار الميسرة بيروت، ١٩٧٦ م
- (٣) الشعاليبي، عبد الملك، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ط١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥ م
- (٤) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجليل بيروت ٢٠٠٢ م
- (٥) ابن الجوزي، عبد الرحمن، المصباح المضيء في خلافة المستضيء، ط١، تحقيق ناجية عبد الله وزارة الأوقاف، بغداد ١٩٧٦
- (٦) ابن الجوزي، عبد الرحمن، صفوة الصفوة، ط١، تحقيق محمد الفاخوري، مطبعة دمشق، دمشق ١٩٧١ م
- (٧) ابن حجر، شهاب الدين، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٣٢هـ
- (٨) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ط٣، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٧ م
- (٩) ابن خالكان، شمس الدين، وفيات الأعيان أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر لبنان، ١٩٧٢ م
- (١٠) ابن خياط، خليفة، الطبقات، ط١، تحقيق د. أكرم ضياء العمري مطبعة الآداب، النجف، العراق، ١٩٦٩ م
- (١١) ابن خياط، خليفة، التاريخ، ط١، تحقيق د. أكرم ضياء العمري مطبعة الآداب، النجف، العراق، ١٩٧٦ م
- (١٢) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨ م
- (١٣) الذهبي، أبو عبد الله محمد، سير أعلام النبلاء، ط٢، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الرسالة، بيروت، ١٩٨٠ م
- (١٤) الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط٢، لبنان، ١٩٧٨ م
- (١٥) الزمخشري، محمود بن عمر، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ط٢، بيروت، ٢٠٠٦ م
- (١٦) الصفدي، أبو الصفاء خليل، الشعور بالعور، ط١، تحقيق د. عبد الرزاق حسين، دار عمار، الأردن، ١٩٨٨ م.

- (١٧) الطبرى، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوک، ط٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧ م
- (١٨) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد، العقد الفريد، ط٣ ، تحقيق مفید قمیحة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧ م
- (١٩) ابن عبد البر، يوسف، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ط١ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٢٨ هـ
- (٢٠) العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٢٨ هـ
- (٢١) ابن العماد، أبي الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط٢ ، دار الميسرة، بيروت، ١٩٧٩ م
- (٢٢) الفسوی، أبو يوسف يعقوب، المعرفة والتاريخ، ط١ ، تحقيق د.أكرم ضياء العمري، مطبعة الأوقاف، العراق، ١٩٧٦ م
- (٢٣) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، عيون الأخبار، ط١ ، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٢ م
- (٢٤) ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، ط١ ، دار التقوى، مصر، ١٩٩٩ م
- (٢٥) الماوردي، علي بن عمر، أدب الدنيا والدين، ط٣ ، تحقيق محمد علي الحباوي، دار الكتاب بيروت، ١٩٦٨ م
- (٢٦) المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨١ م
- (٢٧) المزي، جمال الدين، تهذيب الكلام في أسماء الرجال، ط١ ، تحقيق بشار عواد معروف، دار الرسالة لبنان، ١٩٨٠ م
- (٢٨) وكيع، محمد بن خلف، أخبار القضاة، ط٢ ، عالم الكتب، بيروت ١٩٧٢ م



# أدب الرحلات



# تهذيب موانح الأنس برحلتي لوادي القدس لـ مصطفى أسعد الأقيمِي

د. علي كردي\*

## مقدمة

عُرف العرب منذ القديم بحبّهم للسفر والارتحال، وتعددت أساليب ذلك، وتواترت الأخبار عن هؤلاء الرحاليين وما شاهدوه وقصوه في المصادر المختلفة.

ووقفنا على عدد من الرحاليين يعودون إلى بلدانهم فيرون مشاهداتهم في رحلاتهم تلك، وتطور هذا الأمر إلى أن قام بعضهم بتدوين مشاهداته في كتب خاصة عُرفت بكتب الرحل.

ومن أوائل كتب الرحل التي انتهت إلينا رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار سنة ٣٠٩ هـ بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله، ليفقه أهل تلك البلاد بالدين الإسلامي، وقد دون مشاهداته وانطباعاته عن تلك البلاد وأهلها في كتابه *(هذا)*.

ومنذ ذلك الحين أخذ هذا الضرب من التأليف شكله المستقل، وتواترت الرحل المدونة في المشرق والمغرب.

.) ( . ) (

وتنوعت الرحل بتنوع أسبابها، فهناك رحل اهتمّ بالجانب الجغرافي من وصف للأقاليم والبلدان، وما حوت من عجائب وغرائب، وأخرى اهتمّ بالجانب الديني من حج وعمره، ووصف للمناسك، وثالثة اهتمّ صاحبها بالجانب العلمي من لقاء العلماء والمشايخ، ورابعة كان اهتمام صاحبها بزيارة مقامات الأولياء والصالحين وقبورهم والتّرك بها، وخامسة للساحة... وغير ذلك<sup>(٤)</sup>.

وقد كثرت الرحل بأنواعها في العصر العثماني كثرة لافة للنظر، حتى إن بعض الأدباء كان يكتب عن رحلته إذا انتقل من مدينة إلى أخرى.

ومن هذه الرحلات التي اهتم صاحبها بزيارة الأماكن المقدسة، والشاهد، وقبور الأنبياء، والأصحاب، والتَّابعين، والأولياء في بلاد الشام رحلة (تهذيب موانع الأنس برحلتي لوادي القدس)؛ واسم الكتاب في الأصل (موانع النفس برحلتي لوادي القدس)، غير أنَّ المحقق غيره لما حذفه من أشياء لم يرضها؛ ويدلُّ عنوان الكتاب في شطره الثاني على المواطن التي هدف إلى زيارتها في (وادي القدس) وما حوله، وأمّا الشطر الأوّل فيدلُّ على انبساطه وانشراح نفسه بهذه الزيارة.

فمن مؤلف الرّحْلة؟ وما هدفه منها؟ وعلام احتوت؟

ترجمة صاحب الرحلة:

ذكر صاحب الرحلة اسمه ونسبة كاملاً في رحلته قائلاً : " فإني الفقير مصطفى أسعد اللقيمي الحسني ، سبط المولى محمد أفندي العنبوسي ، سبط المولى عبد الرحمن بن العالم العلامة مفتى الديار المصرية في أواخر القرن العاشر أبي الحسن نور الدين علي بن محمد بن محمد بن خليل بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن غانم المقدسي بن علي بن الحسن بن إبراهيم بن عبد العزيز بن سعيد بن سعد بن عبادة الأنباري الخزرجي " )<sup>٤</sup> .

ولد بدمياط سنة ١١٠٥ هـ، وتلقى علومه الأولى فيها على والده إلى أن شبّ، واختلف إلى مجالس العلماء في بلده، فأخذ عن جده لأمه محمد الدمياطي العلوم المختلفة<sup>(٤)</sup>، وأخذ عن مجموعة من العلماء بالمدينة المنورة والقدس ونابلص، ومنهم الشيخ عبد الله بن سالم البصري المكيّ، ومحمد بن سلطان الوليدى، ومحمد بن سليمان المغربي، وإسماعيل العجلوني، ومصطفى البكري الصديقى<sup>(٥)</sup>،

( ) / / / - / . / ( )  
/ ( )

ومحمد الخليلي<sup>(١)</sup>، وأحمد المؤقت<sup>(٢)</sup>، وعبد المعطي الشافعي<sup>(٣)</sup> وغيرهم. وتتلذذ على يد اللقيمي نفرٌ من الطلبة منهم إخوته عمر، ومحمد سعيد، وعثمان الذين أخذوا عنه علوماً مختلفة ، ومحمد الكزبرى<sup>(٤)</sup>، .... وغيرهم.

توفي اللقيمي بدمشق سنة ١١٧٨ هـ على الأرجح<sup>(٥)</sup>، ودفن بترية مرج الدحداح ، تجاه قبر أبي شامة. كان اللقيمي أديباً شاعراً ، ذا حظ حسن من علم الحساب والفرائض ، حظي بالثناء من معاصريه ومن ترجموه<sup>(٦)</sup>.

#### مؤلفاته :

ترك اللقيمي عدداً من المؤلفات في العلوم المختلفة تدل على تنوع مشاربه ، وتمكنه من علوم عصره ، ولا يزال أكثرها مخطوطاً ، وهاهي مرتبة على حروف المعجم<sup>(٧)</sup> :

- التوصل في شرح الصدر بالتّوسل لأهل بدر.
- الحياة المعلمة البهيجية بالرحلة القدسية المهيجة.
- ديوان شعره ( تحائف تحرير البراعة بلطائف تقرير البراعة).
- رسائل في الحساب والفرائض.
- سح سحب الأدب البديع المعاني بسوح روض الآداب البديع الرضوانى.
- شرح ورد أستاذه مصطفى الصديقي.
- لطائف أنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل.
- مختصر كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل.
- المداماة الأرجوانية في المقامرة الرضوانية (في مدح الأمير رضوان كتّخذا).
- موانح النفس برحلتي لوادي القدس.
- نشر نفحة الصفاء ببشر الصحة والشفاء (في مدح الأمير رضوان كتّخذا).

()

()

()

. / ()

. / ()

. / ()

. / ()

그 / ()

. / ()

/ ()

/ ()

## أسباب الرحلة :

حفر اللقيمي على القيام برحلته سبيان، الأول ديني يتعلق بزيارة المسجد الأقصى لما ورد في فضل زيارته، وزيارة قبور الأنبياء في فلسطين، وقبور الأولياء والصالحين في مدن سوريا ولبنان، والثاني رغبته في لقاء العلماء والمشايخ، والصالحين والأخذ عنهم.

وقد صرّح اللقيمي بالهدف من رحلته في خطبة كتابه فقال: "الحمد لله الملك القدس، باعث لطائف النّفوس، شوقاً لزيارة القدس المحرّوس، وأثار لها بالوجود أشجاناً" (١)

وقال: "وشرعت في تحبير رحلة بهية، تتضمن ما أشاهده، من المآثر الزّهية، ومن الأقيه من السادة العلماء والصوفية، الحائزين من مظاهر الحقيقة والشريعة عرفاناً" (٢)

وقد بين المؤلف فضل زيارة المسجد الأقصى، مستدلاً بالحديث الشريف: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجد رسول الله، والمسجد الأقصى" (٣).

فكان شديد التّوق لزيارة هاتيك الرابع، فعزم على القيام برحلته إلى القدس، ومنها انطلق إلى الشام ولبنان، فزار عدداً كبيراً من المدن، وكان همه البحث عن قبور الأنبياء، والمقامات، ومراتد الأولياء، والأماكن المرتبطة بهم.

واستمرت الرّحلة ستة أشهر بدأها أحد أيام الثلاثاء، من شهر ذي القعدة الحرام عام ١١٤٣هـ، ولكنه لم يدونها وقت القيام بها، بل انتظر عشرين سنة بعد انتهائها فكتّبها سنة ١١٦٤هـ.

## ١- خط سير الرّحلة :

انطلق اللقيمي في رحلته من دمياط، فبدأتها بزيارة بعض الأولياء والصالحين بمدينته، مستمدًا البركة والتيسير من زيارتهم، ثم زار البحيرة (بحيرة تيس)، ثم قم أم مfrage، ثم قلعة الطينة، فالرمانية منزل بنى هشيم، ثم بئر العبد، ثم العريش، ثم وادي الخروبي، ومنها وصل إلى رفح وهي أول بلاد الشام، ثم غزّة، ثم يبني، فالرملة، فیافا على شاطئ البحر المتوسط، فبيت لحم، ثم القدس، ثم طور زيتا، ثم الخليل، ثم عاد إلى القدس ثانيةً ومكث فيها مدة، ثم غادرها إلى نابلس، ثم إلى دير قديس، ثم إلى قرية سبطارة، ثم يازور، ثم يافا ثانيةً، ثم إلى كفر سابا، ثم إلى حبلة، وعاد إلى نابلس ثانيةً، واتجه شمالاً إلى طبرية ومنها إلى القنيطرة فسعسع، فدمشق، ثم زار المزة، وبرزة، والمليحة، وقاسيون، وبعدها اتجه إلى

(١) ب

(٢)

(٣)

دمّر، فالدياس، فخان الظهر الأحمر، والنبطية، وبيروت وصيدا، وركب من مينائها سفينة اتجهت إلى قبرص، ومنها إلى بلده دمياط فوصل إليها يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى سنة ١١٤٤ هـ.

## ٢ - مصادر اللقيمي في تأليف رحلته :

ضمت الرحلة معلومات متعددة، وفيها معلومات جغرافية، وتاريخية، وأدبية، وعلمية تتعلق بعلاج الأمراض بالأعشاب، وغير ذلك، لذا تنوعت مصادر المؤلف تنوعاً كبيراً ككتب الحديث والطبقات والتراجم، والتاريخ، والسيرة، والتّصوّف، ودواوين الشعراء.

ويكّن أن نردّ مصادر اللقيمي إلى الأنواع الآتية :

المشاهدة، ثم الرواية الشفوية، ثم المصنفات المختلفة التي نقل عنها.

أما المشاهدة فظهرت في المعلومات الجغرافية التي أوردها المؤلف عن الأماكن التي مرّ بها، وخصائصها العمرانية وتضاريسها، وكان يصفها عياناً، ومن ذلك قوله عن مدينة الرملة : " وهي واسطة بلد فلسطين، فإنها في أرض سهلة، وهي كثيرة الأشجار والنخيل ، وحولها كثير من المزارع والمغارس، وفيها أنواع الفواكه ، وظاهرها حسن المنظر ، وهي من جملة الثغور " ( )

وضمت الرحلة طائفة من المعلومات والقضايا العلمية، أخذها المؤلف مشافهةً من صدور العلماء ( )، وقيّدتها في رحلته ، وكثير منها تفرد الرحلة بذكره ، وهذا يزيد في قيمتها.

أما المصدر الثالث فهو المؤلفات التي نقل عنها اللقيمي في رحلته ، وكان يفعل ذلك عندما كان يريد الاستدلال على مسألة ، أو توضيح أمر ، أو ترجمة علم من الأعلام.

وقد تنوعت المصادر التي نقل عنها ، ويكون تصنيفها في الأنواع الآتية :

- المصادر الجغرافية والتاريخية : كخطط المقريزي ، وأنس الجليل للعلمي ، والرياض الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لأبي السرور البكري ، ومروج الذهب للمسعودي ، ورحلة الهروي ، وفضائل دمشق لأبي حسن الربيعي..... وغيرها.

- كتب الحديث المختلفة : كالصحيحين ، وسنن أبي داود ، والجامع الصغير للسيوطى ، وشرح القسطلاني ل الصحيح البخاري..... وغيرها.

- كتب تفسير القرآن وعلومه : كتفسير القرطبي ، وتفسير البغوي ، والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام لأبي القاسم السهيلي .... وغيرها.
  - كتب السيرة النبوية : كالشمايل للترمذى وشرحها للمناوي.
  - كتب التراجم والطبقات : كطبقات ابن سعد ، والإصابة لابن حجر العسقلاني ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، وطبقات المناوي .... وغيرها.
  - كتب الأدب والمجموعات الشعرية والدواوين : ككتاب التذكرة للصفدي ، وحلبة الكميٰت للنواجي ، وريحانة الألبان للشهاب الخفاجي ، ونفحـة الريحـانـة للمـحـبـي ، ومقـامـات السـيـوطـي ، وـديـوانـ ابنـ النـبـيـ ، وـديـوانـ المـنـبـيـ ، وـديـوانـ ابنـ زـيـدـونـ ، وـديـوانـ عـبـدـ القـادـرـ الـكـيـلـانـيـ .... وغيرها.
  - كتب التصوف : كتاب العروس لابن عطاء الله السكندرى ، والحكم العطائية ، وحلية الأبدال وشجون المشجون لابن عربي ، وعواوـفـ المـعـارـفـ لـلـسـهـرـوـرـ دـيـ ..... وغيرها.
- وهذا يدل على تنوع مصادر المؤلف ، وعلوّ كعبه في العلم ، وأمانته العلمية في النقل عن المصادر إذ كان ينص على ما ينقله بصراحة ومن غير مواربة.

## ٣- أسلوب اللقيمي في رحلته :

لدى قراءتنا (تهذيب موانع النفس) يلفت نظرنا اهتمام المؤلف بأناقة عبارته عنـاية فائقة ، معتمداً على المحسنات بأنواعها ، وهذا ينمّ على براءة المؤلف ، فهو أديب وشاعر ينتمي إلى عصر انصرف فيه المؤلفون انصرافاً كاملاً إلى الاعتناء بالصنعة ، وتزيين أدبهم بالمحسنات البدعية ، ولم يخرج اللقيمي عن ذوق عصره ، بل حاول أن يجارى أعلامه في نثرهم الفنى ، فجاءت رحلته قطعة فنية مزركشة بكل ضروب الصنعة والتزويق اللغظى من سجع وجناس وطباق واقتباس وتضمين ، وإن كانت نفقة على بعض المواضع في الرحلة ابتعد فيها عن هذا الأسلوب ، ولا سيما عندما كان ينقل المؤلف من المصادر ترجمةً ، أو وصفاً لمدينةٍ ، أو عرضاً لمسألة من المسائل العلمية.

وكان السجع هو السمة الغالبة على أسلوب اللقيمي في رحلته ، وهو عنده ضربان : **الأول** يمكن أن نطلق عليه (**السجع المزدوج**) ، إذ كان يأتي بسجعتين على حرف ، ثم ينتقل إلى سجعة أخرى على حرف آخر ، وهلم جراً ، وهذا هيأ له حرية ومتسعًا في الكتابة مكناه من التنويع وعدم الوقوع في تكرار بعض الألفاظ تلبيّة للسجع في حال التزامه ما لا يلزم ، ومثال هذا النوع من السجع قوله عن مدينة رفح : "... وبه صلينا الصبح قبل الإسفار ، وسرنا فوصلنا رفح وسط النهار. وهو أول أرض الشام ، كما ذكره صاحب مثير

الغرام ، وبه بئر يقارب النيل في عذوبته ، وصلينا عنده الظهر وسرنا في ساعته ، فوصلنا إلى الخان ، وكان وقت العصر قد حان...<sup>(١)</sup>

أما الضرب الثاني من السجع فهو أن يأتي ضمن السجعة الكبيرة بعدد من السجعات القصار في جمل متوازنة ، كقوله : " لعمري طالما كنت كثير الوجد واللوع ، لشاهد هاتيك الربوع ، ناثراً من الأجهان لآلئ الدموع ، فتنتظم على الخدين عقيقاً ومرجاناً . أتشوق حينياً لرؤيابها ، وأتشوف لاجتلاء حُسن محيّها ، لأنتشق شذا عبير رياها ، عَرْفَاً يتضمن روحًا وريحاناً"<sup>(٢)</sup>

فقد أورد المؤلف ثلاث سجعات داخلية قصيرة ضمن السجعة الكبيرة التي اعتمدت حرف النون فاصلة لها ، واعتنى بصياغة جمله عنایة كبيرة ، ونوع في فوائل السجعات القصار ، فأكسب النص موسيقاً داخلية ، يلذّ لها السمع وتطرّب لها الأذن.

وهذا الأسلوب من السجع وجدها عند عدد كبير من الأدباء والرّحالين كالعبدريّ وغيره.

وكان مؤلف الرّحلة يضيق على نفسه بلزمون ما لا يلزم من الحروف في السجع ، ليتسنى له تصييد السجعات ، فأدى ذلك إلى أن تكون كثير من سجعاته من الجناس الناقص كقوله في المسجد الأقصى : "... خصه الله تعالى بمظاهر الجمال ، كما خصّ مكّة والمدينة بالكمال والجلال ، وقد أثر ذلك عن أهل الكمال ، مظهراً يفيض عليه السرور طوفاناً ، فمن وفد إليه وافته منح السعادة ، ونشرت عليه ألوية السيادة ، وبشره لسان الحال بالحسنى وزيادة ، أن قد منح من جناب الرحمن أماناً"<sup>(٣)</sup>

فاللّقيمي كان أسيراً للسّجع ، يتقصّده ، وينوّع فيه ، مُستعيناً بذخيرة كبيرة من الألفاظ ساعدته على التفوّق والإتقان.

وأكثر المؤلف من الاقتباس من القرآن الكريم ، وتضمين الشعر والأمثال والحكم التي كان ينشرها في كتابه ، فتزيد في ألق عبارته وجمالها.

فمن الاقتباس من القرآن الكريم قوله : "والصلاه والسلام على من فضائله لا تُحصى ، ومعجزاته لا تُعدُّ ولا تستقصى ، المنزل عليه ﴿سبحان من أسرى بعده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ هذا اقتباس مباشر ، ليريه آياته الكبرى برهاناً ، هذا اقتباس غير مباشر لقوله تعالى : ﴿لُرِبِّهِ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السميع البصير﴾<sup>(٤)</sup>.

<sup>(١)</sup> بـ

<sup>(٢)</sup> بـ

<sup>(٣)</sup> بـ

<sup>(٤)</sup> بـ

فقد اقتبس اللقيمي الآية الأولى من سورة الإسراء وأدخلها في كلامه.  
وقوله محلياً شيخه مصطفى البكري الصديقي "... مع لطفٍ بلغ غاية الكمال، وحسن خلق وفضل  
وإفضال ، فـ (والنجم إذا هوى) إنه بجمع المحسن قد حوى" (١).

وهنا اقتبس المؤلف الآية الأولى أيضاً من سورة النجم لتأكيد فضائل الشيخ بالقسم الوارد فيها.

وقوله يصف فرحته بانضمامه إلى الطريقة الخلوتية الصوفية بالقدس :

"... فتحققت النفوس هنالك ببلوغ الأربع، وقد قررت بذلك العيون، «وفي ذلك فليتنافس  
المتنافسون» (٢) اقتبس المؤلف الآية ٢٦ من سورة المطففين.

ولا يخفى ما أدّاه الاقتباس من القرآن الكريم من ارتقاء بعبارة المؤلف، وأداء لوظيفته في إيضاح المعنى،  
أو تأكيده.

واستحضر المؤلف أمثال العرب وحكمهم وأدخلها في عبارته للاستدلال أو التوكيد كقوله في أهل  
نابلس : "... وأهلها ذوو لطافة وكرم، وفي مكارم الأخلاق أشهر من نار على علم..." (٣).

فقد ضمن المثل العربي "أشهر من نار على علم" للدلالة على شهرة هؤلاء القوم باللطافة وكرم  
الأخلاق.

وقوله : "... فكان يوماً عليّ أطول من ظلّ القناة، مما يقاسي المبتلى من شدة عنائه" (٤).

وهنا اقتبس المثل : "أطول من ظل القناة" (٥) للدلالة على طول ليله من الهم.

ويلجأ اللقيمي أحياناً إلى تضمين أبيات من الشعر السائر، أو أسطار منها، ليدخلها في نسيج عبارته  
ببراعة وإتقان حتى ليظن القارئ أنها من أصل عبارة المؤلف ك قوله : "... وانشرح الصدر بالاجتماع وقررت  
العين، وشفيت النفس من أليم الجوى، وألقت عصاها واستقرّ بها النوى" (٦) فقد ضمن المؤلف صدر بيت  
مشهور لمعقر البارقيّ، واستخدمه في مكانه.

( )

( )

( )

( )

( )

( )

وقوله : " .... وأنهار رياضها التي مأواها غير آسن ، لعوا إليها من شوقيهم عِنَانًا ، والأذن تعشق قبل العين أحياناً " ) وهذا ضمن المؤلف عجز بيت لبشار ، وهو من الأبيات السوائِر .

ويلجأ اللّقيمي إلى استحضار بعض الأعلام التّارِيخيَّة التي لها حضور في الوجдан العربي ، كذكر سوق عكاظ الذي كان يجتمع فيه العرب للتجارة والأدب في قوله يذكر قراءته منهج العابدين للإمام الغزالي : " فشَّنَفْنَا الأسماع بدرر الفاظه ، والتقطنا الجواهر من سوق عكاظه " ) .

فهو يدل من خلال توظيف (سوق عكاظ) على تنوع الفوائد الموجودة في الكتاب ، ونفاستها.

وقوله يذكر إخوان الصفا ، وسحبان وأئل ، وحسّان بن ثابت ، وهم من هم في التاريخ الإسلامي : " وقد ذهبت مع إخوان أنس وصفا ، مذاكراتهم تلين كل صلد وصفا ، سحبوا ذيل البلاغة على سحبان ، ونشروا درر الفصاحة على مفارق حسان ، صدورهم بيت الحكمة ، وقلوبهم أوعية الرحمة " ) .

فقد ذكر جماعة إخوان الصفا وهي مضرب المثل في آرائهم ، وسحبان وأئل مضرب المثل في البلاغة ، وحسّان بن ثابت أشهر من يُعرف ، كما ذكر بيت الحكمة ببغداد . وهذا يدلنا على ثقافة المؤلف ، وإيمانه بالحضارة الإسلامية .

وعموماً فقد كان اللّقيمي أدبياً متمكناً من لغة العرب وأدبهم ، وكان ابن عصره في عنياته بالصنعة ، والتزام المحسنات البديعية المختلفة في كتابته ، ولاسيما السجع الذي دلّ من خلاله على إلمام باللغة وتمكن من ناصيتها ، فجاء سجعه طوع بنائه ، لم يغرق فيه إغراق غيره ، فجاء مقبولاً إلى حد ما .

### **ضمون الرحلة :**

كان اهتمام اللّقيمي الأساس في رحلته هو زيارة المساجد ، والمشاهد ، والمقامات ، والأضرحة التي ضمّت رفات الأنبياء والصحابة والتابعين ، والأولياء الصالحين ، ولم يُعرِّف اهتمامه للناحية العمرانية للبلدان التي مرّ بها ، ولم يصف أسواقها وأحوالها الاقتصادية ، وعادات أهلها الاجتماعية إلا في مواضع قليلة .

فكان عندما يمرّ ب بلد من البلدان يذكر أهم المقامات والمزارات فيها ، ويندرج أحياناً إلى ذكر نبذة من تاريخها نقاً عن بعض المصادر ، وقد يذكر بعض من خرج منها من الأعلام التّابهين والعلماء ، وربما ذكر بعض الشعر الذي قيل فيها وفي الثناء على أهلها أو ذمّهم .

فعندهما ذكر مدينة دمياط عدد أهم المزارات التي مر بها مستمدًا المد والعون من أصحابها، فذكر سيد شطا والقرشة، والبغدادي، والتفاحي، والدائري... وغيرهم<sup>(١)</sup>

ثم عرّف دمياط نقلًا عن خطط المقريزي<sup>(٢)</sup>، فذكر موقعها، وسبب تسميتها، وبسط الأقوال المختلفة في ذلك، مستعيناً بتفسير البغوي، و(شرح الأسماء الإدريسية) للدمياطي، وتحدث عن تاريخها، ونظم بعض الشعر فيها وفي أهلها، مدحًا وتقريرًا، ثم ذكر أهم من خرج منها من العلماء كعبد المؤمن الدمياطي، فترجمه ترجمة وافية، وذكر بعض مروياته، وختم الكلام على هذه المدينة ببناء الشعراة عليها لأنها "مدوحة للشعراء، مشوقة للأدباء والفصحاء، لطيب معاهدها، وبهجة متزهاتهما ورياضتها، وتمايل أشجارها ورونق غياضها، وتاريخ شذا أزهارها، وتعدد أنواع أسماكها وأطيافها، وناهيك قصبها السكري، وحالى موزها العنبرى..."<sup>(٣)</sup>

فالمؤلف يسوغ اهتمام الشعراء والأدباء بدمياط، وثناءهم عليها بجمال طبيعتها الغناء، ووفرة الصيد في البر والبحر، ولذة طعم قصبها وموزها، لأنها جمعت وفرة الماء، وطيب الهواء، وخصوصية التربة.

ولم يغفل اللقيمي بعض الجوانب الاقتصادية للبلدان التي يذكرها، فمدينة (تنيس) : "كانت أرضًا لم يكن مثلها استواءً وطيب تربة، وكانت جناناً وخلالاً وكرمًا وشجرًا ومزارع..... وكان الماء منحدراً إليها، لا ينقطع عنها صيفاً ولا شتاءً، يسقون جنانهم وزروعهم إذا شاؤوا"<sup>(٤)</sup>.

أما أهلها فقد كانوا "ميسير، وأكثرهم حاكمة، وكان يصنع فيها ثوب للخليفة يقال له: البدنة، لا يدخل فيها سُدى ولُحمة غير أولقيتين، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينار، وكان يعمل منه ستر الكعبة"<sup>(٥)</sup>.

ومن الجوانب الاجتماعية التي التفت إليها مؤلف الرحلة، وتشي باعتقاده بكرامات المشايخ الذين قابلتهم، أو ذكرهم في رحلته، ما ذكره عن كرامات شيخه محمد الخليلي الذي لقيه بالقدس، واختلف إلى مجلسه، وسمع منه فوائد تقر بها العين، قال: "ومن كراماته أنه كلّمه من قبره موسى عليه السلام، كما هو مستفاض ذلك بين يدي الخاص والعام"<sup>(٦)</sup>.

(١) بـ

(٢) )

(٣) )

(٤) بـ

(٥) )

(٦) )

ومنها ما عَدَّه من فوائد شيخه السيد المصطفى البكري الصدِّيقى أفادها منه بالقدس، وهي أمور يصعب على المرء قبولها أو تصديقها، كقوله : "إن الإنسان إذا خاف عدواً فليأخذ قبضة من تراب ، ويجلس ثم يقول : ساهوا ، باهوا ، تاهوا ، الملحجم ، النحّار ، الله ، اللّهم يا من أجمت لسان كلّ متکبر بلسان قدرتك ، سلم سلم سلم ، ثمّ يرشّه تجاه العدوّ ، فإنه يُكافأ" (١) .

والأغرب قول المؤلف : "ولقد جربت ذلك فوجده صحيحاً في الاختفاء من الأعداء" (٢) .

وكأنه يريد أن يقنعنا بأمور غريبة لا تسلم أمام العقل والتفكير ، وعلة ذلك أن المؤلف صوفيٌّ ، وقد صرّح بأنه انتمى إلى الطريقة الخلوتية الصوفية ، ودخل الخلوة في بيت شيخه بالقدس" (٣) .

ولا نعدم في الرّحلة بعض الإشارات إلى الأحوال السياسية في تلك الأيام ومن ذلك إشارة المؤلف إلى عزل سليمان باشا العظم عن ولاية طرابلس من قبل السلطان العثماني ، ووضعه رهن الإقامة الجبرية في قلعة صيدا بسبب سعاية حاسد ، يرى المؤلف أن الوالي بريء منها (٤) ، ثم توثيق العفو الذي منّ به السلطان على الوزير المذكور بقوله : "وفي ضحوة يوم الخميس ، الخامس عشر ربيع الثاني الأنبياء ، حضر قبجي باشي من دار الخلافة الكبرى على نجْب الْهَنَاء ، برسائل البشرى لجناب حضرة الوزير المشار إليه ، بالعفو عن جنابه ، والرّضا عليه ، وأن يُكشف عنه حُجْب الترسيم ، ويرفع فوق منصات الإجلال والتكريم ، وتوليه محافظ طرابلس الشام ، كحكمه بها في سالف الأيام" (٥) .

وللرّحلة جانب توثيقيّ مهم لبعض الأحداث الاجتماعية والسياسية ، من ذلك إشارة المؤلف إلى انتشار الطاعون بأرض مصر سنة ١١٤٣ هـ ، وقت انطلاقه في رحلته ، وذكر ذلك عرضاً عندما وصل إلى مدينة العريش ، فمنعه أكابر أهلها من دخولها خشية نقل العدوى إلى أهل البلد ، فقال : "قد منعنا أكابر العريش وحُماها ، أن نخلّ ذروة حِماها ، خوفاً من الطاعون يناديهم ، أو يحلّ بساحة ناديهم ، لكوني من الدّيار المصرية ، وكان الوباءُ بها إذ ذاك...." (٦)

ومن ذلك حديثه عن سوء معاملة العسكر في مدينة غزة للمؤلف وصاحبه ، إضافة إلى ما عاناه من لسع البراغيث في خانها ، يقول : "فَلِمَّا وصلت لخانها ، ساقتنى يد التقدير إلى خانها ، فنزلت به مصاحباً لبعض

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

الرّفاق. وأنا مَا به من عسْكُر الدّوَلَةِ فِي غَايَةِ الإِشْفَاقِ، فِتْ بَلِيلَةِ مَلْسُونٍ، وَدَهْوَةِ مَفْجُوعٍ، أَرَوْيِ عن السُّهَابِ حَدِيثَ السُّهَادِ، مِنْ وَثَبَاتِ بِرَاغِيَّهَا، وَمَخَافَةِ تِلْكَ الْأَوْغَادِ<sup>(٤)</sup>.

فقد تعاور على المؤلف في غزة همّان جعلاه لا يذوق طعم النوم الأول سوء معاملة عسكر الدولة،  
والثاني كثرة لسع البراغيث وصوت الناموس الذي حرمه من النوم تلك الليلة.

وَمِنْهُ جانِبٌ مُهمٌّ أخْرَى فِي الرِّحْلَةِ هُوَ الْجَانِبُ الْأَدْبَرِيُّ، فَاللَّقِيمِيُّ أَدِيبٌ شَاعِرٌ عَرَضَنَا نَمَادِجَ مِنْ تَشْرِهِ الفَنِيِّ وَبَيْنًا أَهْمَّ خَصَائِصِهِ، وَهُوَ شَاعِرٌ مُتَوَسِّطُ الرِّتبَةِ، وَلَكِنَّهُ يَتَسَمُّ بِقَرِيقَةٍ مَطْوَاعَةً، إِذْ غَصَّتِ الرِّحْلَةُ بِشِعْرِهِ، فَلَمْ يَتَرَكْ مَكَانًاً أَوْ مَشَهِدًاً إِلَّا قَالَ فِيهِ شِعْرًا يَعْبُرُ فِيهِ عَنْ مَشَاعِرِهِ وَأَحَاسِيسِهِ تَجَاهِهِ مَدْحَأً أَوْ ذَمَّاً. وَأَكْثَرُ شِعْرِهِ فِي الشَّاءِ عَلَى الْمَشَاهِدِ وَأَصْحَابِهَا.

من ذلك قوله يتغنى بمحاسن التكية الدرويشية بدمشق<sup>(٤)</sup>:

طاب الشّذا منها بفائح عطرها	وتكيّة تزهـو برونق زهـرها
لا تنطـوي بـسـط السـرور بـنـشرها	نسـج الـرـيـع لـهـا مـطـارـف سـندـسـ
فتـماـيلـتـ أـغـصـانـهاـ مـنـ سـكـرـهاـ	غـتـ بـلـابـلـهاـ بـخـسـنـ لـغـاتـهاـ
مـسـتـكـشـفـاـمـاـ فـيـ ضـمـائـرـسـرـهاـ	وـافـىـ التـسـبـيمـ يـزـورـهاـ مـاعـطـرـاـ

<p>وَهَا هُوَ يَشْتَكِي مِنْ وَثُوبِ الْبَرَاغِيْثِ وَلَسْعَهَا فِي إِحْدَى خَانَاتِ غَزَّةِ<sup>(١)</sup>:</p>	<p>بَرَاغِيْثُ هَذَا الْخَانِ أَسْهَرْنَ نَاظِرِي إِلَسْعَ كَسْقَطِ الزَّنْدِ مَا حَلَّتْهُ يَطْفَى</p>
<p>وَلَكَنْهَا قَدْ أَوْرَثَتْ جُشْتِي ضَعْفًا</p>	<p>لَهَا وَبَيْتُ الْلَّيْثِ مَعْ ضُعْفِ جَسْمِهَا</p>
<p>وَلَكَنْ جَاءَ النَّهَيُّ عَنْ سَبُّهَا كَفَّا</p>	<p>وَقَدْ كَدَتْ أَهْجُوهَا بِحُسْنِ تَلَطُّفِ</p>

**يشير إلى ما روى عن نهى النبي عليه السلام عن سنت الراغب<sup>(١)</sup>:**

1

وشعره يمثل العصر الذي يتتمي إليه، وهو أقرب إلى النظم منه إلى الشعر، إذ يكاد يخلو من الصور والأخيلة، فهو في مجمله وصف لما تراه العين وتسمعه الأذن، وتحس به النفس.

كما ضمّت الرّحلة بين دفتيها كثيراً من النصوص الأدبية القيمة، منها وصف عدد من الأزهار، وذكر خصائصها الطّيبة، وما قيل فيها من الأشعار، مستعيناً بمقامات السيوطي، وكتب الحديث الشريف والتذكرة لداود الأنطاكي، وغيرها من كتب مفردات الأدوية<sup>(١)</sup>.

وأورد اللّقيمي قطعة من "التذكرة"<sup>(٢)</sup> لخليل بن أبيك الصفدي، وهو كتاب ضخم لا يزال مخطوطاً. وضمّت هذه القطعة رسالة للجاحظ، ورسالة النّيرين للصفدي، ومطارحة شعرية إخوانية بين الصفدي وتقي الدين السبكي، ومطارحة بين الشهاب محمود وعلي بن غانم المقدسي، وقطعة نثرية قي المفاخرة بين الأزهار لضياء الدين بن الأثير.

فمّا جاء في رسالة الجاحظ : "رأيت فلاناً ينفض يده منك ، وأنت تصادره على وصلك ، كفى بالإعراض حاجباً ، وبالانقباض طارداً ، ومن وقف في الإذن لك فقد حجبك ، ومن تنكر عن حكاياتك فقد كذبك ، ومن مطلوك ولو ساعة فقد حرملك ، ومن حظر سره عنك فقد اتهمك"<sup>(٣)</sup>

ولذلك لا يمكننا أن نهمل كتب الرّحل على اختلافها في الدراسات الأدبية، فهي راقد مهم من روافد الأدب العربي في مشرق الوطن العربي ومغربه، لأنها تضم نصوصاً أدبية شعرية ونثرية مهمة قد لا نقف عليها في بقية المصادر.

وممّا تتّسم به الرّحلة ترجمة كثيرة من الأعلام، إذ كان اللّقيمي عندما يتحدث عن مقام أو مزار أو ضريح كان يترجم صاحبه نقاًلاً عن المصادر المتاحة بين يديه<sup>(٤)</sup>.

مع أن هذه التراجم ليست ذات بال، لأنها تكرر ما جاء في المصادر، ولكنها توفر على القارئ عناه البحث عن الترجمة في مظانها، في حين كانت تراجم الشيوخ والأعلام الذين لقيهم في رحلته تكتسب قيمة عالية لأنها ترجمة حية من شاهد عيان، أتيحت له معاشرة هؤلاء الأعلام، والاطلاع على كثير من صفاتهم وأخلاقهم، وروى عنهم مشافهة كثيراً من الفوائد التي لها أهمية عند الباحثين<sup>(٥)</sup>.

وممّا يلفت النظر أن اللّقيمي على إعجابه الشديد بدمشق وغوطتها، وثنائه على أهلها، ومشاهدتها

وآثارها، نجد أنه ينصرف إلى زيارة المشاهد والمقابر، ولا يحدها عن لقائه شيخاً واحداً من شيوخها أو علمائها عدا إشارة سريعة إلى حرصه على لقاء الشيخ عبد الغني النابلسي الذي حال موته قبل وصول المؤلف إلى دمشق دون حصوله<sup>(١)</sup>.

وكان اهتمام اللقيمي الأكبر بوصف المقابر والمشاهد والمقامات، دون إيلاء العمران والقلاع والأسواق ما تستحقه، فعندما وصل إلى دمشق ذكر قلعتها ذكراً عابراً، ولم يلتفت إلى عظم القلعة وحصانتها، وروعة بنائها، في حين التفت إلى قبر أبي الدرداء فوصفه ونظم شعراً فيه، وترجمه ترجمة وافية<sup>(٢)</sup>.

وكان لدمشق مكانة أثيرة في نفس المؤلف تمثلت في وصفه معالمها ومشاهدتها وغوطتها وصفاً رائقاً تجلّى في تزيين عبارته وتزويقها، وتتدفق عواطفه عند الكلام على هذه المدينة، يقول: "وقد كنت خلال تلك الزيارات، وتفيّق ظلال الأنس والمسرات، أجيتي محاسن دمشق البدعة، وأتحلّى بشهد مشاهدتها الرفيعة، فإنها قد توشّحت بوشاح الجمال، وتزيّنت بعقود البهاء والكمال، وناهيك بجوانبها الجوامع، ومدارسها الزاهية اللّوامع، وحمّاماتها الحسنة ورياضها، ومنتزهاتها البهجة وغياضها، وأسواقها الظرفية الكيان، وعماراتها المشيدة البنيان، وتقسيم مياها أحسن تقسيم على الأماكن بالضبط والتسهيم، ودؤام الفواكه والثمار، والمحمّضات والخضراوات والأزهار، وتبسيير أسباب التّعيش والمعاش، وتبسيير مسبيات التّريش والرّياش، وتنعماتها الدّانية القطاف، وكم وكم لها في منهج الحسن من أوصاف"<sup>(٣)</sup>.

ففي هذا القول على اختصاره وعمومه، تعبير عن روعة مدينة دمشق منذ أقدم العصور، إذ أجمل المؤلف محاسن هذه المدينة بعبارات مختصرة ولكنها كافية للدلالة على روعة بنائها، ووفرة مائها وتوزّعه على أحياها بالعدل، وكثرة غالاتها وتنوعها ودؤامها على مدار العام، وتنعم أهلها وبحوحة عيشهم<sup>(٤)</sup>.

كانت هذه وقفة مع اللقيمي ورحلته من دمياط إلى فلسطين والشام ولبنان، ثم العودة بحراً إلى قبرص ومنها إلى بلده دمياط.

وهذه الرّحلة مفعمة بالفوائد المختلفة، ففيها قطوف دانية من الأدب، وفوائد في التاريخ والجغرافية، وإن كان اهتمام المؤلف الأكبر كغيره من المتصوّفة هو زيارة القبور والمشاهد والمزارات والتبرّك بأصحابها.

ولكن الغصة الكبرى هي في سوء تحقّيقها وطبعها بهذا الشكل الرديء الذي أساء كثيراً إلى الرّحلة، وعسى أن يتتبّع محقّقها على الأخطاء التي تورّ بها الرّحلة، ويستدركها في طبعةقادمة لتعلم بها الفائدة، وتتبّوا مكانتها بين كتب الرحل المختلفة.

(١) بـ

(٢) بـ

(٣)

(٤)

### \*المصادر والمراجع\*

١. أدب الرحل في المغرب والأندلس ، د. علي إبراهيم الكردي ، الهيئة العامة للكتاب ، دمشق ٢٠١٤ م.
٢. الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، بيروت ١٣٥٩ هـ.
٣. الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، تتح سمير جابر ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢.
٤. الأعلام ، خير الدين الزركلي ، بيروت ١٩٨٠ م.
٥. الإكسير في فكاك الأسير ، محمد بن عثمان المكتناسي ، تتح. محمد الفاسي ، الرباط ١٩٦٥ م.
٦. الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، مجبر الدين الحنبلي ، عمان ١٩٧٣ م.
٧. تاريخ الأدب الجغرافي ، أغناطيوس كراتشوفسكي ، ترجمه صلاح الدين هاشم ، القاهرة ١٩٦٣ م.
٨. تهذيب مواح الأنس برحلي لوادي القدس ، مصطفى أسعد اللقيمي ، تحقيق رياض عبد الحميد مراد ، الهيئة العامة للكتاب ، دمشق ٢٠١٢ م.
٩. خطط المقريزي ، المقريزي ، دار صادر ، بيروت د.ت.
١٠. ديوان ابن زيدون ، تتح. علي عبد العظيم ، القاهرة ١٩٥٧ م.
١١. ديوان المتبي ، تتح. مصطفى السقا ورفاقه ، القاهرة ١٩٣٦ م.
١٢. رحلة العبدري ، محمد بن محمد العبدري ، تتح. علي كردي ، دار سعد الدين ، دمشق ٢٠٠٥ م.
١٣. ريحانة الألب ، شهاب الدين الخفاجي ، وضع حواشيه وفهارسه ، أحمد عناية ، بيروت ٢٠٠٥ م.
١٤. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، محمد خليل المرادي ، تتح. أكرم العليبي ، دار صادر ، بيروت ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م.
١٥. شجون المسجون فنون المفتون ، محبي الدين بن عربي ، تتح. علي كردي ، دار سعد الدين ، دمشق ٢٠٠١ م.
١٦. عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، عبد الرحمن الجبرتي ، تتح. عبد الرحيم عبد الرحمن ، القاهرة ١٩٩٨.
١٧. علماء دمشق وأعيانها في القرن الثاني عشر الهجري ، محمد مطبع الحافظ ونزار أباذهلة ، بيروت ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٠ م.
١٨. لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ م.
١٩. مجمع الأمثال ، الميداني ، تتح. محمد محبي الدين عبد الحميد ، بيروت د.ت.
٢٠. مروج الذهب ، ومعادن الجوهر ، المسعودي ، تتح ، محمد محبي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ م.

٢١. مسالك الأ بصار في مالك الأمصار، ابن فضل الله العمري ، تتح مجموعه من المحققين ، الجمع الثقافي ، أبو ظبي .١٤٢٣ هـ.
٢٢. معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، بيروت د.ت.
٢٣. معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
٢٤. موانع الأنس برحلي لوادي القدس ، مصطفى أسعد اللقيمي ، مخطوط مكتبة الأسد رقم ٥٢٤٨.
٢٥. موسوعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، تأليف علي حسن علي الحلبي ود. إبراهيم طه القيسي ود. حمدي محمد مراد ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
٢٦. نفحة الريحانة ، محمد أمين المحبي ، تتح عبد الفتاح الحلو ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٧ م.

